تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

دار العلم للملايين
بيروت

١٩٧٠

١/١١/٣٠٠٠/٧٠

بيروت
رمضان ١٣٩٠
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠

الكلمة الأولى

لي عددٌ من الكتب تتقاربُ في موضوعها :

تاريخ الجاهلية ،
العرب والاسلام في الحوض الشرقيّ من البحر الأبيض المتوسّط ،
العرب والاسلام في الحوض الغربيّ من البحر الابيض المتوسّط ،
العرب في حضارتهم وثقافتهم ،
ثمّ هذا الكتاب : تاريخ صدر الاسلام والدولة الأمويّة .

والباعثُ على تعدّد الكتبِ في موضوع واحد أو قريبٍ من أن يكونَ واحداً ، تبدّلُ منهاج التاريخ في جامعة دمشق — حينما كنت أستاذاً زائراً للتاريخ في جامعة دمَشْقَ (١٩٥١ — ١٩٦٠ م) ثمّ في جامعةِ بيروتَ العربيةِ حيثُ أحاضرُ في هذا الموضوع نفسه منذ زمن .

جميع هذه الكتب تتّفق في بعضِ الوجوه كثيراً وتختلف في بعض الوجوه قليلاً ، ولكنْ يسودُها منهجٌ واحدٌ : **دراسةُ التاريخ على أنّه علمٌ من علوم الفلسفة** ، كما يقولُ ابنُ خَلْدون ، قائمٌ على تعليلِ الحوادث (ربطِ أسبابِها بنتائجها) **لا على أنّه قِصّةٌ من القِصَص .**

والتاريخُ — في الأصلِ — فنّ من الفنونِ الأدبية ، أو علمٌ من العلومِ الإنسانية ، كما يقولُ نفرٌ من الدارسين ، لأنّ العنصرَ الإنساني يتحكّم في روايته تحكّماً كبيراً . غير أنّ ابنَ خَلْدونِ كان قد أرادَ أن يرفعَ هذا

الفنّ المُهيمِ من فنونِ المعرفة الى رُتْبة العلم . ورَفْع الفنّ الى رُتبةِ العلم يكونُ بأن نُعالِجَ ذلك الفنّ معالجةً علمية .

ليسَ من الضروريّ أن نَقُصَّ تاريخَ العالم في مائة مجلّد بالإكثار من إيراد الحوادثِ الكبارِ والصغار — فاننا مهما حرَصْنا على أن نَستوفيَ حوادثَ التاريخ ، فاننا لا نستطيعُ لها استيفاءً . ولكنْ من الضروريّ أن نُوردَ أمّهات الحوادث التي تجعلُ من التاريخ سِلسلةً متماسكةَ الحَلَقاتِ بيّنةَ الأثرِ في حياة الأمّة التي نَقُصّ تاريخها .

ودراسة التاريخ لا تكونُ صحيحةً الاّ بتعليل الحوادث .

انّ سَرْدَ الحوادث سرداً آلياً — مهما عالجنا هذا السرد بالبراعة والتأنّق — لا يرفعُ تلك الحوادثَ الى مستوى التاريخ الذي أراده ابنُ خلدون ، بل يبقى التاريخُ به نَسيباً لقصّة عنترةَ وقصّة رأسِ الغول وحكاياتِ ألف ليلةٍ وليلة . أليستْ حكاياتُ ألف ليلة وليلة تاريخَ أفراد من البشرِ المُغامرين في سبيلِ المال والمُلك والمرأة ؟ لا أقولُ ذلك انتقاصاً لقصّة رأسِ الغول ، ولكنّني أريدُ أن أؤكّدَ بذلك أن التاريخَ انّما هو تاريخُ الحضارات لا تاريخُ الأفراد ، وتاريخُ الأمم الراقية لا تاريخُ الجماعات العائشة في هذا العالم الفسيح لأنها عائشةٌ في هذا العالمِ الفسيحِ فقطْ . ثمّ انّ التاريخَ هو الوجودُ الإيجابي للأمم لا الوجودُ السلبيّ لها . قد يكون للأممِ الحاكمةِ تاريخٌ ، ولكنّ الشعوبَ المحكومةَ ليس لها تاريخٌ (لأنّ البشرَ المحكومين لا نُطْلِقُ عليهم اسمَ « أمّة ») .

وتاريخُ العربِ في صدرِ الاسلام وفي العصرِ الأمويّ كان تاريخَ العالم في ذلك الحين . كان للبرابرة (القُوط والهُون والفاندال واخوانهم) قِصَصٌ في ذلك العصر تَدُلُّ على مَدى العَيْث الذي قاموا به في بلادِ الحضارةِ الاوروبيّة القديمة ، ولكنْ لم يُصْبِحْ لهم تاريخٌ الاّ بعدَ أن أخذوا يتحضّرون ويُنْشئون دُوَلاً . وكذلك كان للعربِ في جاهليّتهم

قِصَصٌ وروايات تسرُدُ أعمالَ نفرٍ من رجالهم لا صِلةَ لها بحضارات العالم السابقة واللاحقة . إن سيرةَ عنترةَ — أو قصّة عنتر — سيرةٌ جميلةٌ يقرأها العربُ بلذّة ، وهي تَسْرُدُ علينا كثيراً من أعمالِ البُطولة ومن الفضائل القوميّة . وقد نُقِلَتْ سيرةُ عنترةَ الى عدد من اللّغات الأجنبية فقرأها أصحابُ هذه اللغاتِ بشوقٍ وإعجاب . ولكنّ سيرةَ عنترةَ لا تزالُ قصّةً فقط ؛ انها ليست كتابَ تاريخ ! ولكنْ لمّا جاء الاسلامُ ووحّدَ العربَ ثمّ نَشَرَهُمْ في آفاقِ الأرضِ يُنشئون الحَضاراتِ أصبحَ تاريخُهم تاريخاً للعالم المُتمدّنِ كلّه .

لقد أدّى العَرَبُ بالإسلامِ رسالةَ الدين ورسالةَ اللغة ورسالةَ العلم ورسالة الثقافة ورسالة الرحمة ورسالة البطولة ورسالة الحضارة ورسالة الإنسانية ، ولكنّهم أدّوْا تلكَ الرسالاتِ في ماضيهم البعيد ؛ أمّا في حاضرِهم فانّ تاريخَهم جانبٌ من تاريخ الأممِ القويّة التي تَستبِدُّ بحُكْم بلادِهم وتتحكّم بمصايرهم .

أيُّ شعوبِ العرب يَخُطُّ اليومَ طريقَ مستقبله بيده ؟

أيُّ شعوبِ العرب يُحارب أعداءه اليوم بسلاحٍ من صُنع يده ؟

أيُّ شعوبِ العربِ يَقِفُ الى جانبِ جيرانِه كما يقفُ جيرانُه الى جانبِ جيرانهم ؟

أنا أؤمن بأنّ الأممَ تمرُّ في أدْوارٍ من الصُعود والهبوط . وأنّا مؤمن بأنّ الشعوبَ العربيةَ سيأتي عليها دورٌ تهتدي فيه إلى طريق صعودِها ، ولكنّني لا أدري متى سيأتي هذا الدَوْر .

انّ مجيءَ هذا الدورِ رَهْنٌ بأنْ يُريدَ العربُ أن يَنْهضوا مجموعاً لا أفراداً . وهمُ اليومَ لا يريدون ذلك — لأنّهم لم يَفْعلوا إلى اليومِ ما يَدُلّ على أنّهم يُريدون ذلك .

في عام ١٩٤٥ نشأتْ جامعةُ الدول العربية وكان أعضاؤها ثمانيَ دول . أمّا أعضاؤها اليومَ فثلاثَ عَشْرَةَ أو تزيدُ ، وقد كنتُ أنتظر أن تكونَ دُوَلُ العربِ اليومَ دولةً واحدةً أو أربعَ دُوَلٍ على الأكثر .

لم أذكر في هذه « الكلمة الاولى » وجهاً من وجوهِ الإصلاح لأنّني لم أقْصِدْ أن أكونَ في هذا الكتابِ واعظاً ولا مُصْلِحاً ، وإنّما أنا مؤرّخٌ أحاولُ أن أرى الطريقَ التي يَخُطّها تاريخُ العربِ في سيرِه .

فإذا نحنُ قِسْنا تاريخَنا الماضيَ — مَعَ كلّ ما كان في تاريخنا الماضي من السيّئات — بتاريخنا الحاضر ، أدركْنا أنّنا لم نبدأ في طريقِ الصعودِ بعدُ . ولن نستطيعَ أن نبدأ طريقَ الصعود ونحنُ نتَجَنّبُ عمداً تلك الطريقَ التي صَعِدَ عليها أسلافُنا .

ع . ف

الفهرس

المراجع والمصادر [1]

الحديث رواية ودراية [2] :

الحديث هو الأقوال المرويّة عن محمّد رسول الله من الأحكام والآراء والأخبار والآداب . وقد وصل الحديث إلينا بالرواية نقلاً عن رسول الله : نقله أصحابه عنه ثم أدّوه الى الجيل الذي خلفهم ؛ وأهل ذلك الجيل أدّوه إلى من تلاهم ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل الى الذين دوّنوه . وللحديث سند يجب أن يكون متّصلاً : ان يكون كلّ راوٍ قد عرف الذي روى عنه ؛ كما يجب أن يكون جميع رجال السند ، جميع هؤلاء الرواة ، ثقاتاً مشهوداً لهم بالإيمان والصدق والعلم والنزاهة .

على أنّ الاستيثاق في رواية الحديث ، بصحّة الرواية وحدها ، لا يكفي . يجب أن يكون للمحدّث ، أي للعالم الذي يحفظ الحديث ويحدّث به الناس ، دراية : علم بالأحاديث المروية عن رسول الله يتعلّق بمعناها وألفاظها وبالأحوال التي قيلت فيها وبالغرض المقصود منها يوم قولها . وقد يكون الحديث صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ولكنّه منسوخ ، أي أبطل العمل به في أيام رسول الله نفسه . فعلى المحدّث ، إذن ، أن

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من « تاريخ الجاهلية » .

(٢) قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي (دمشق ١٣٥٣ ﻫ) ص ٥١ — ٥٣ ؛ مصطلح الحديث لعبد الغني محمود (مصر ، الطبعة الثانية ١٣٣١ ﻫ — ١٩١٣ م) ، ص ٢ — ٥ .

يكون جامعاً بين صحة الرواية في الحديث وبين سَعَة الدراية به وبالأحوال الملابسة له .

والتاريخ كالحديث خبرٌ مَرْوِيّ عن الذين تقدّمونا ، فيجب على المؤرّخ أن يكون جامعاً بين صحّة الرواية للحوادث التي يحاضر بها أو يؤلّف فيها وبين سَعَة الدراية بالأحوال المُتَّصلة بتلك الحوادث .

هذه الاصولُ في الاستيثاق من صحة الحديث تعرف عند العلماء المسلمين باسم « مُصْطَلَح الحديث » . « والواقع أن الميثودولوجية[1] الغربية ... ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث ، بل تَمُتّ إليه بِصِلَةٍ . فالتاريخ دراية ورواية كما أن الحديث دراية ورواية . والقواعد التي وضعها الأئمّة (المسلمون) منذ قرون عديدة للتوصّل الى الحقيقة في الحديث تتّفق في جوهرها واتّجاهها والأنظمةَ التي اكتشفها علماءُ أوروبةَ فيما بعدُ في بناء علم المثودولوجية . ولو أن مؤرّخي أوروبةَ في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطّلعوا على مُصنّفات الأئمّة المُحدّثين لَمّا تأخّروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الثامنِ عَشَرَ . وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكّد لهم أن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ؛ ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده»[2] .

*

على أننا في هذا الفصل سنَقْتَصِرُ الكلام على جانب الرواية فقط . فبما أن التاريخ ، اذن، في أبسط أوجهه — لا في أصحّها على كل حال — خبرٌ عن الماضي ، فعلينا أن نكون أولاً على ثِقَةٍ من صحة هذا الخبر الذي نُقل الينا . وطريقنا الى الماضي هو المستندات التي بَقِيَتْ لنا أو وصلت من ذلك

(١) الميثودولوجية : الوسيلة المنطقية التي ندرس بها المعارف الانسانية (تنظيم الدراسة على أسس من التدرج والمنطق والبرهان) .

(٢) مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (بيروت ١٩٣٩) ، الصفحتان : و ، ز .

الماضي . فلا بُدّ لنا اذن من درس هذه المستندات التي تُقسَم مصادرَ ومراجعَ .

المصدر هو المُسْتَنَدُ الذي بَقِيَ لنا أو وصل الينا من العصر الذي نريد دراسة أحواله . والمستند يكون أثراً ظاهراً أو بناء باقياً أو وثيقة مكتوبة أو كتاباً مدوّناً . فالحِرار : (جمع حَرّة) ، أي الأراضي البركانيةُ المنتشرة في الشّمال الغربي من شبه جزيرة العرب خاصة ، ونقش النمارة[1] والكعبة المشرّفة وما يشبهها من الأبنية الباقية ثم القرآن الكريم ، كلّها مصادرُ لدراسة أحوال العصر الجاهلي والعصر الاسلامي اللذين نستعرض حضارتَهما وثقافتهما في هذا الكتاب * .

(١) نقش النمارة كتابة على شاهد (حجر منصوب على قبر) بالخط النبطي (بعض أحرفه تشبه الخط الآرامي وتكتب متصلة ، وبعضها يشبه الخط العبري وتكتب منفصلة) . يتألف هذا النص من خمسة أسطر (نحو خمسين كلمة) . بعض ألفاظ هذا النص عربية فصيحة ، وبعضها عربية غريبة ، وبعضها سامية غير عربية على الحصر (آرامية ونبطية) . ولا يبدو على كلمات هذا النقش اعراب . وهو يرجع الى عام ٣٢٨ للميلاد (راجع العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ٢٢٦ — ٢٢٨ ؛ تاريخ آداب العربية لجرجي زيدان ١ : ٣٣ ؛ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٣ : ٤٣٧ — ٤٤٧ ، ٤ : ٣٣) .
— هذا النص لا يمثل اللغة العربية المعاصرة له (اللغة التي كانت قبل نحو مائة عام من لغة المعلقات التي وصلت الينا وقبل ثلاثمائة عام من لغة القرآن الكريم) لأن لغتنا العربية يجب أن تكون قد تمت على ما كانت في الشعر الجاهلي قبل هذا النص بقرون كثيرة . فالنص هذا يجب اذن أن يكون مكتوباً بلهجة محلية ضيقة . وكلمة « بر » هي كلمة « ابن » بالآرامية . أما كلمة « ملك » فلا يجب أن تعني أكثر من « شيخ ، رئيس » . وكلمة « عرب » تقابل كلمة « بدو » . واذا اتفق أن يكون هذا الملك ، على افتراض صحة فهم النص فهماً تاريخياً ، قد حارب عدداً من مشايخ العرب وهزمهم ثم ملك (تغلب) على قبائلهم ، فانه لا يزيد على أن كان في خدمة الروم والفرس (كما يذكر النص نفسه) لجمع الضرائب للروم والفرس ولصد هجمات القبائل عن تخوم امبراطوريتي الفرس والروم (بجنود عرب وغير عرب) . وليس في هذا النص من القيمة التاريخية أكثر مما نجد في تاريخ المناذرة والغساسنة من محاربة هؤلاء للقبائل (النجدية البدوية) في خدمة الفرس والروم . ثم ليس له قيمة لغوية للغتنا العربية ، لأن لغتنا العربية كانت ، لما كتب هذا النص ، قد بلغت في التطور مبلغاً كبيراً جداً .

(*) في الكتاب الحاضر : استعراض لتاريخ صدر الإسلام كله (عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي) .

ويلحق بالمصادر المتعلّقة بالعصر الجاهلي خاصةً اللغةُ التي وصلت الينا من الجاهليين والأمثالُ والاشعارُ والخطب والوصايا ، وان لم تكن قد دوّنت في الوقت الذي نشأت فيه ، لأن الإجماع على صِحّتها (أو على صِحّة الجانب الأكبر منها) يقوم لها مقام التدوين .

أما **المَرْجِــعُ** فهو عادةً الكتابُ الذي كُتِبَ عن عصرٍ ما ، ولكن بعد انقضاء ذلك العصر . وكلّما كان المَرْجِــعُ أقربَ الى العصر الذي يعالج أحداثه وأحواله كان أهمَّ وأوثق .

والمراجع نوعان أساسيّان :

هنالك مراجعُ اعتمد مؤلّفوها كُتُباً ضاعت . إن أبا الفرج الاصفهانيَّ مؤلفَ كتاب الأغاني يسمّي في ثنايا فصول كتابه كتباً اعتمدها ونقل منها ، ولكنّ هذه الكتبَ لم تصل الينا . من أجل ذلك يلحق كتاب الأغاني بالمصادر ، فهو مَرْجِــع بِمثابةِ المَصْدَرِ ؛ ونحن نعدّه اليوم من الناحية العملية مصدراً من مصادر الحياة الجاهلية والحياة في صدر الاسلام .

وأما النوع الثاني من المراجع فيتناول الكتبَ التي اعتمد مؤلّفوها مصادرَ ومراجعَ لا تزال موجودة بين ايدينا ، ككتاب تاريخ آداب اللغة العربيــة لجرجي زيدان . ان هذا الكتاب يعتمد كتباً نَعْرِفُها فيجب ، اذا كتبنا في تاريخ الأدب العربي ، ان نرجع اليها هي لا اليه هو . ولكنّ للمرجعِ الذي هو من طبقة كتاب تاريخ آداب اللغة العربية (في اتساعه وشموله ومحاولة اثبات عدد من المصادر والمراجع بعد كل ترجمةٍ لشاعر او خطيب او لغويّ أو نحوي) فائدتيْن :

أ — الاستدلالُ على ما يتعلق بالأديب الذي نريد دراسةَ آثاره في وقت قصير ، او الرجوعُ اليه في استطلاع خبر أديبٍ استطْلاعاً عارضاً .

ب — قد يتفق ان نجد في مثل هذا المرجع ملاحظةً او تعليلاً او تفسيراً

يكشف بعضها لنا جانباً غامضاً من حياة ذلك الأديب ومن خصائصه .

اننا من المصدر نأخذ الحقائق والآراء ؛ أما من المرجع فنأخذ الآراء فقط .

*

وتُقسم المصادر من جهة ثانية قسمين : مصادرَ أساسيةً ومصادر مساعدة :

حينما نريد أن نؤلّف في تاريخ الحِقَبِ المختلفة فاننا نعتمد بطبيعة الحال مصادرَ أساسيةً ، أي مصادرَ ألّفها أصحابُها في تاريخ الحقبة المعينة وقصدوا أن يُلمّوا بأحداث تلك الحقبة وبأحوالها الحَضارية . غير أننا نقع أحياناً على حقائقَ تاريخية تتعلّق بالأحداث وبأحوال الحضارة منثورةً في كتب لم يؤلّفْها أصحابها ليقصّوا تاريخاً أو ليصفوا حضارة . قد تكون هذه الكتب دواوين شعرٍ أو قواميسَ أو كتباً في الفقه أو الموسيقى . فبالاضافة إلى أن هذه الكتبَ مصادرُ للجوانب اللغوية والأدبية والاجتماعية والفنية من البيئة التي ندرسها ، فاننا نجد فيها أحياناً إشاراتٍ الى التاريخ السياسي على جانب من الأهمّيّة .

ان الذي يَقْصِدُ التأليفَ في التاريخ يحاول أن يَتَخَيَّرَ الحوادثَ التي يبني عليها كتابه ويحاول أن يَرْبِطَ بعضَها ببعض ؛ وقد يُهْمِلُ أشياءَ عَفْواً أو قصداً لأنها لم تتّسق في السلسلة المنطقية أو القَصَصِيّة التي أخذ نفسه بسرد وقائعها . أما الشاعر مثلاً فانه قد يشير الى حادثة ما وهو خالي الذهن من الملابسات كلّها فتكون هذه الاشارة عنده ، أحياناً ، أصحَّ في التاريخ الواقع وأدل على منطق الاحداث مما جاء عند المؤرخ في هذا الشأن . وبما أننا لا نعتمد دواوين الشعر وكتب الفقه وقواميس اللغة عند التأليف في التاريخ اعتماداً أساسياً ، بل نأخذ أحياناً منها كلّها أشياءَ تفيدنا في تعليل أحداث تَرِدُ في كتب التاريخ الأساسية غامضةً كثيراً أو قليلاً ، فاننا نسمّي هذه الكتب مَصادرَ مساعدةً .

وهنالك كتبٌ هي مصادرُ ومراجع في وقت واحد :

هنالك كتب تعالج عصراً واحداً : ان كتاب الاعتبار لأُسامة بن مُنقذ (ت ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) يتكلّم على عدد من الاحداث والاحوال شَهِدَها أسامةُ في قتاله معَ الإفرنج (الصليبيين) ، ثم لا يتجاوزها الى غيرها . فكتابُ الاعْتبار اذن مصدر من مصادر تاريخ الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عَشَرَ الميلادي) على الحصر .

غير أن عز الدين أبا الحسن عليَّ بنَ الأثير قد ألّفَ كتاباً مبسوطاً في التاريخ بدأه بالخليقة وانتهى به الى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٣١ م) . وبما أن ابن الأثير قد تُوفِّيَ في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، فان كتابه في التاريخ المسمّى « تاريخ الكامل » هو مصدر للتاريخ في السنوات الأخيرة من القرن السادس وفي الثلث الأول من القرن السابع الهِجريين (السنوات الأخيرة من القرن الثاني عَشَرَ والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين) ؛ ثم هومَرْجِع لكل ما سبق ذلك . ومُعْظَم كتب التاريخ الواسعة ، كتاريخ الطبريّ والمسعوديّ وابن خلدون ، من هذا الباب .

فبعدَ اعتبار كلّ ما تقدّمَ نتساهلُ في ما نسميه مصدراً لتاريخ الجاهلية ونقبل كل ما أُلّفَ في العصور الوسطى (إلى اواخر القرن التاسع للهِجْرة : آخر القرن الخامس عَشَرَ للميلاد) على أنها مصادرُ للأسباب التالية :

– كان العلم بين العرب الى ذلك الحين لا يزال يعتمد الروايةَ : نقلَ الخالف عن السالف ، وكان العالم لا يزال يعتمد الرحلةَ والتدوينَ نقلاً عن الرجال في الأقطار المختلفة . من أجل ذلك نستطيع أن نقول إن كثيراً من الكتب التي أُلّفَتْ قبل ذلك الحد من الزمن كانت كتباً أصيلة في موضوعاتها ورواياتها .

– ان الحروب الصليبية في مصرَ والشام واجتياحَ التتار للعالم الإسلامي في المشرق وتضافُرَ الأوروبيّين على إخراج العرب من الأندلس قد رافقها

إتلاف كبير للمكتبات ، فنحن نعتبر الكتب التي وصلت إلينا من تلك الحقبة المديدة « مصادرَ » ، وإن كان بعضها نَقْلاً عن بعض لأنها تمثّل الكتب التي ضاعت وتقوم ، من الناحية العملية ، مقامَها .

– لا ريب في أن شيئاً من الشعر الجاهلي منحولٌ (موضوع على لسان شعراء لم يقولوه) . وهنالك أيضاً كتب يقال إنها موضوعة ككتاب المحاسن والمساوىء وكتاب التاج في أخلاق الملوك (وينسبان الى الجاحظ) ثم كتاب الامامة والسياسة (المنسوب الى ابن قُتَيْبة)[1] . ثم ان بناء الكعبة اليومَ ليس البناء الذي كان لها في الجاهلية الأولى . ان الكعبة قد تهدّمت مِراراً في الجاهلية وفي الاسلام ثم أعيد بناؤها مرة بعد مرّة .

فنحن إذن نقبل الشعر الجاهلي كلّه (الثابت والمشكوك فيه) ، على أنه من مصادر الحياة في الجاهلية لأن الذين وضعوا ذلك القدر من الشعر الجاهلي قد حَرَصوا على أن يقلّدوا خصائص الجاهليين المعنوية واللفظية . وهكذا يظل هذا الشعر المنحول دالاً على ما يدلّ عليه الشعر الثابت (وان كنّا في الأدب لا نقبل الشعر المنحول للجاهليين على أنه جاهلي) . وشأن الكتب الموضوعة كهذا الشأن أيضاً .

وكذلك شأن الكعبة :

« في سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله (١٧ قبل الهجرة = ٦٠٥ م) هَدَمَتْ قريشٌ الكعبة ؛ وكان سبب هدمهم إياها أنها كانت رضيمة[2] (وكانت) فوق قامة الرجل ، فأرادوا رفعها[3] وتسقيفها »[4] . ولمّا اختلفوا

(١) راجع مقالا لجبرائيل جبور : كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة – من هو مؤلفه (مجلة الابحاث – بيروت ١٣ : ٣ ايلول ١٩٦٠) .

(٢) مبنية بحجارة مرصوف بعضها فوق بعض (بلا ملاط ، أي بلا طين) .

(٣) رفع البناء : تشييده عالياً . سقف البناء تسقيفاً ؟ جعل له سقفاً .

(٤) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

في من يردّ الحجر الأسودَ الى مكانه حكّموا في ذلك محمدَ بن عبدالله قبل مبعثه[1]. وبعد ثمانين سنة احترقت الكعبة لمّا غزا مُسْلِمُ بنُ عُقْبةَ المُرّيّ مكّةَ في أيام يزيدَ بن معاويةَ ، في ذي الحجة من سنة ٦٣ (آب – أغسطس ٦٨٢ م) . فلما استقرّ الأمر لابن الزبير بعد موت يزيدَ هدم الكعبةَ حتّى لَحِقَتْ بالأرض ، وكانت حيطانها قد مالت من إصابتها بحجارة المنجنيق . فحفر ابن الزبير فوجد أساساً أمثال الجمال (يقصد حجارة كبارا) ... فقال أقرّوها على أساسها وبنائها ، وجعل لها بابين يُدْخَلُ من أحدهما ويُخرج من الآخر . وذلك سنةَ ٦٥ أو ٦٤ هـ (٦٨٣ – ٦٧٤ م)[2] .

طبقات المصادر وأصنافها

أرفعُ طبقات المصادر القرآنُ الكريمُ :

نَزَلَ القرآنُ الكريم مُنجّماً (متفرّقَ السورِ والآياتِ حَسْبَ الحاجة) في مَدى ثلاث وعشرين سَنَةَ ، من ١٣ ق. هـ. الى ١١ هـ. (٦١٠ – ٦٣٢ م) . وكانت السور والآيات تُدوّن ساعة نزولها . ثم جُمِعَ القرآنُ الكريم (رُتّبت سُوَرُهُ ، فقد كانت الآياتُ مُرتّبةً على ما هي في السور الآن منذ نزولها) مرتين : مرّةً في أيام أبي بكر ومرّةً في أيام عثمانَ بن عفّان . فالقرآن الكريم أقرب الوثائق المدوّنة الى الجاهلية . ثم هو تنزيل لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أخّرنا النقوش عن هذا المقام لقلّة عددِها ولضَعْف دلالتها على تاريخ الجاهلية بالاضافة الى سائر المصادر (راجع الحاشية ١ على الصفحة ١٩ فيما يتعلق بنقش النمارة) .

ويلي القرآنَ الكريمَ في طبقات المصادرِ الحديثُ الشريف :

(١) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

(٢) ابن الأثير ٤ : ٨٧ ، راجع ٣٠ .

الحديثُ لم يبدأ تدوينه – فيما نعلم – قبل أيام عمرَ بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ = ٧١١ م) ؛ ومعَ ذلك فان هذا التدوين لم يصل الينا .

وقيمةُ الحديث أنه يفصّل ما أجمله القرآن أو يشرح ما ذكره القرآن . من أجل ذلك نستطيع اعتمادَ الحديث في الدين وفي التاريخ اذا كان موافقاً لما ورد في القرآن الكريم .

ومجاميع الحديث كثيرة منها مُسْنَدُ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطّاب من رواية أبي يوسف يعقوب بن شَيبة (ت ٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م) . ومنها المُوطّأ للامام مالك (ت ١٧٩ هـ = ٧٩٥ م)، مسند الامام أحمدَ بن حَنْبل ، سُنَنُ الدارمي ، صحيح البُخاري ، صحيح مُسلم ، سنن أبي داوود ، سنن الترمذي وسنن النَسائي (وقد تُوفّي هؤلاء قبل ٣٠٣ هـ – ٩١٥ م) .

وللقرآن الكريم تفاسيرُ وضعها العلماء لتبيان ما أُوجز فيه أو ما أشير اليه فيه اشارةً عارضةً او لِما غمض علينا نحن من تشابيهه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح أحكامه .

وأشهر التفاسير وأهمها: جامعُ البيان عن تأويل القرآن لأبي جعْفرِ محمدِ ابنِ جريرِ الطَبَريّ (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م) وهو مشهـور باسم تفسير الطبري . وتفسير الطبريّ تفسيرٌ تاريخي يحاول ان يفسر الآيات بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التي رافقت نزولها ، ولا غَرْوَ فالطبري في الأصل مؤرخ . ثم ان الطبري يستعرض جميعَ الروايات الواردةِ في تفسير الآيات ، رواياتِ الحديث وروايات التاريخ وروايات الأدب ، بعدئذ يفاضل بين تلك الروايات ويُرجّح ما يراه في نظره أقربَ الى الواقع مما لا يعارض نص الآيات . والطبري يسلك في التفسير مسلكاً سَلَفياً فهو فقيه من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت (بطَل العمل بها) . فهو لذلك أقرب الى ما تُقرّه الروايةُ الصحيحة والواقع التاريخي .

وهنالك أيضاً الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل لأبي

القاسم محمود بنِ عمرَ الزمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م) ويعرف باسم تفسير الزمخشري. يَسْلُكُ الزمخشريّ في التفسير مَسْلكاً لُغوياً بلاغياً في الدرجة الأولى، فهو يعتمد في التفسير الذوقَ البلاغيّ اكثرَ من اعتمادِ الواقعِ التاريخي. ثم ان الزمخشري كان من المُعتزلة الذين يحاولون تعليلَ مظاهرِ الوجود بالنظر العقلي اكثرَ مما يعتمدون الرواياتِ التاريخيةَ والدينية. من أجل ذلك كَرِهَ الفقهاءُ تفسيرَ الزمخشري.

ويلحق بكتب التفسير الكتبُ التي تبحث في «أسباب النزول» (الأسباب التي دعت الى نزول السور والآيات في الزمن الذي نزلت فيه كلّ واحدة منها)، وكتب «الناسخ والمنسوخ» (الكتب التي تذكر الآيات المنسوخة التي بَطَلَ حكمُها والآياتِ الناسخة التي حلّت مَحِلَّ الآياتِ المنسوخة).

والكتب المعنونة باسم «الناسخ والمنسوخ» كثيرة أشهرُها بلا ريب لابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م). ثم هنالك كتب أخرى في هذا الموضوع وبهذا الاسم للطباطبائي الرّسيّ (ت ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م)، ولأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) ولابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ولغيرهم.

أما «أسباب النزول» ففيها كتاب لأبي الحسن عليّ الواحديّ النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م) وآخر للسيُوطي (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م).

وللحديث الشريف أيضاً كتب ناسخ ومنسوخ منها «ناسخُ الحديث ومنسوخُه» لأبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين (ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م).

ومن مصادر الحياة في الجاهلية الأدب الجاهلي:

الأدب الجاهلي شعرٌ ونثر؛ والشعر الذي وصل الينا مَرْوِيّاً عن الجاهلية كثير جداً بالاضافة الى ما وصل الينا من النثر الجاهلي. ومع أن الأدب الجاهليّ أقدمُ في الزمن من نزول القرآن الكريم ومن الحديث، فاننا قد أخّرناه

في طبقات المصادر لأن تدوينه تأخّر ولأن الرواة لم يَحْرِصوا على ضبطه وصِحّته حِرْصَهم على تحرّي الصِحّة والضبط في تدوين القرآن الكريم وجمعه ونسخه. ثم ان الأدب الجاهلي ضاع معظمه ثم تجرّأ كثيرون عليه بالنَحل[1]، إما بنقل شيء من قائل الى قائل وإمّا بوضع شيء منه على ألسنة الناثرين والشعراء. والشعر الجاهلي في التاريخ على كلّ حال مصدر مساعد.

فمن مجاميع الشعر الجاهلي «المُفضّليّات» للمُفضّل الضّبّيّ (ت نحو ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م)، و «الاصمعيّات» للأصمعيّ (ت ٢١٦ هـ = ٨٣١ م) وديوان الحماسة لأبي تمّام، والحماسة للبحتري، وشرح المعلّقات السبع الطوال الجاهلية لأبي بكرٍ الأنباري (ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م)، وجَمْهرة أشعار العرب لأبي زيدٍ القُرَشي، وشرح المعلّقات السبع للزوزني، وشرح المعلّقات العشر للتبريزي (ت ٥٠٢ هـ = ١١٩٠ م)، وشرح حماسة أبي تمّام للتبريزي أيضاً.

ومن دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة: ديوانُ الشعراء الهُذَليين، ودواوينُ أمرىء القيس، عمرو بن قَميئة، عَبيد بن الابرص، علقَمة الفحل، أوسِ بن حجَر، الشَنْفري، الأفْوه الأوْديّ، المُتَلَمِّس، طَرَفَة، الخِرْنِقِ أخت طرفة، المُثقّب العَبْدي، عمرو بن كلثوم، تميم ابن أبي مُقبل، الحارث بن حِلِّزَةَ، طُفيل الغنوي، أبي دُؤاد الأيادي، القَتّال الكلابي، النابغة الذبياني، حاتَم الطائي، جِران العَوْد النَمِري، سلامة بن جَندل، عبد القيس بن خفاف البُرجمي، عنترة، السَموْأل، زُهير، لَبيد، كَعْب بن زهير، أعشى قيس، الخنساء، أُميّة بن أبي الصَلت. ويلحق بمجاميع الشعر مجاميع النثر ومنها: أمثال العرب للضبيّ وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري والمُستقصى في امثال العرب للزمخشري ومجمع الأمثال للميداني.

---

(١) راجع فوق، ص ٢١.

وهنالك ايضاً مجموع حديث يدعى جَمْهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ اللغة :

ان اللغة العربية التي نكتب بها وننظم هي نِتاج العصر الجاهليّ ، فهي من أجل ذلك لا تزال تدل بمفرداتها على اوجه الحضارة الجاهلية . والقاموس العربي اليوم ليس القاموسَ العربي وحدَه، بل هو القاموسُ الساميّ ايضاً ، ذلك لأن علماء اللغة جمعوا في كتب اللغة وفي القواميس خاصةً جميعَ ما سمعوه دائراً على الألسنة في البلاد التي سُمِعَتْ فيها العربية . ان كثيراً من الألفاظ التي يُقال فيها إنها غريبة يجب ان تكونَ بقايا اللغاتِ البابلية والكلدانية والحِمْيَرية والآرامية وسواها .

والقاموس العربي ليس للمفردات اللغوية فحَسْبُ ، بل هو في الحقيقة يجمع المفرداتِ اللغويةَ والمعارفَ الجغرافيةَ والتاريخية والعلمية والعملية والفنية . من اجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ، ومعاجمُ اللغة خاصة ، مصادرَ مهمةً للحياة في الجاهلية . وقواميسُ العرب الكبرى هي : القاموسُ المحيط للفيروزابادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للمرتضى الزَّبيدي .

وهناك كتب في اللغة هي قواميس اختصاص يُعْنَى كلٌّ واحدٍ منها بجانبٍ واحد من مفردات اللغة او بمنهج واحد في دراسة مفردات اللغة . هذه الكتب تساعد على استعمال المفردات في وجوهها الصحيحة لأنها تجمع الكلمات في نِطاقها المعنوي الصحيح ، بينما القواميس تفرق تلك الكلمات تفريقاً آلياً بحَسْبِ الحروف .

فمن كتب اللغة: فِقْهُ اللغة للثعالبي ، الخصائص لابن جِنّي ، المُخَصَّص لابن سِيْده ، شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي ، ليس في كلام العرب لابن خالويه ، كتاب النبات لأبي حنيفة

الدِينَوَري ، كتاب الخيل لأبي عبيدة مَعْمر بن المُثنى ، كتاب الاصنام لابن الكلبي ، كتاب الانواء (الرياح والأمطار والنجوم) لابن قتيبة .

وهنالك كتب في اللغة تجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، معَ الاستطراد الى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع ، منها : الأمالي في لغة العرب لابي اسماعيل علي بن محمد القالي ، الكامل في اللغة لأبي العباس المُبَرّد ، خزانة الأدب ولُبّ لسان العرب لعبد القادر البغدادي ، المُزْهر في علوم اللغة للسيوطي ، أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام لابي المنذر هشام ابن محمد الكلبي .

ويلحق بكتب اللغة كتبُ النحو ، وهي كثيرة جداً يكفي ان نثبت هنا منها كتاب سِيبَوَيْه ، المُفصّل للزمخشري ، الإنصاف في مسائل الخِلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لابي البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري .

اما المصادرُ الأساسية للحياة في الجاهلية فهي كتبُ الجغرافية والتاريخ :

فمن كتب الجغرافية : صفة جزيرة العرب للهَمْداني ، معجم ما استعجم للبكري ، ثم معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي . ومعجم البلدان في الحقيقة دائرةُ معارفَ اكثرُها الجغرافية ، ولكن فيه استطراداً كثيراً الى التاريخ والأدب — وفيه ملاحظاتٌ كِثار تتعلق بالحضارة والثقافة .

وعمدة كتب التاريخ عند العرب تاريخ الرسل والملوك (او الامم والملوك) لأبي جعفرٍ محمّد بن جرير الطَبَريّ ، جمع مؤلفه فيه جميع الروايات التي وصلت اليه ، على مِثال ما فعل التفسير[1] ، الا انه في التاريخ يُورد الروايات من غير ان يُرجّح إحداها على الأخرى الا نادراً . ومن كتب التاريخ ايضاً تاريخ الكامل لابن الاثير ، وسيرة ابن هشام وكتاب الاصنام لابن الكلبي

(۱) راجع فوق ، ص ۲٥ .

والمعارف لابن قتيبة ثم التنبيه والاشراف ومروج الذهب واخبار الزمـان للمسعودي، والاخبار الطوال لأبي حنيفة احمد بن داوود الدينوري والعقد لابن عبد ربه وكتاب المُعَمَّرين لأبي حاتم السَجِستاني وكتاب العِبَر لابن خلدون .

وهنالك كتب تعالج الناحية الاجتماعية من التاريخ اشهرُها وأجلّها قيمة : الجزء الأول من كتاب العِبَر لابن خلدون وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون . وهنالك ايضاً نهاية الارب في فنون العرب لشهاب الدين النويريّ صدر منه ثمانيةَ عشَرَ جزءاً ؛ وقد حاول النويريّ ان يجمع أوجه الحضارة العربية في كتاب واحد .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ الأدب :

في كتب الأدب مراجعُ تقوم مقام المصادر وتعالج الجانب الأدبي من حياة العرب وتتناول الجاهلية كثيراً أو قليلاً . من هذه الكتب : عيون الاخبار لابن قُتيبة ، كتاب الاغاني لابي الفرج الإصفهاني أجمعُ كتب الأدب في تصوير الحياة العربية من الناحية الأدبية والاجتماعية . ومنها معجم الشعراء للمَرْزُباني ، طبقات الشعراء لابن سَلاَّم الجُمَحي ، الشعر والشعراء لابن قُتيبة ، البيان والتبيين والحَيَوان وكلاهما للجاحظ .

ولا ريب في أن كتب الأدب التي تتّصل بالحياة الجاهلية من قرب أو من بعد كثيرة جدّاً . وفي عدد منها تاريخ مفصّل لعدد من نواحي الحيـاة الجاهلية .

ويحسن ان نعلم أن معظم هذه الكتب التي هي مصادر أو مراجع للعصر الجاهلي هي في الوقت نفسه مصادر ومراجع للعصر الاسلاميّ (في أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين وفي أيام الدولة الأمويّة) .

وفي عدد من كتب اليونان وكتب السّريان التي أُلِّفَتْ في مدى العصر

الذي ندرسه إشارات الى العرب ؛ غيرَ أن المتعلّق من تلك الاشارات بتاريخ الجاهلية ، بتاريخ عرب الشمال في الجاهلية القريبة ، قليل .

أما المراجع في تاريخ الجاهلية السياسي والاجتماعي والفكري فأكثر من أن تُحصى ، ولكن لا بُدّ هنا من الكلمة التالية .

ان أجمع المراجع لتاريخ الجاهلية بكل ما فيها وأحدث تلك المراجع « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي[1] . وقد حاول المؤلّف ان يجمع في كتابه كلَّ ما قاله العرب قديماً وحديثاً في تاريخ الجاهلية في اليمن ونجد والحجاز والعراق والشام . ثم هو يُضيف الى ذلك ما قاله المستشرقون في ذلك . ولا ريب في ان هذا الكتاب يُغني عن مراجعة عدد من اصول التاريخ ومراجعه . ومع اتساع نطاق هذا الكتاب وتنوّع ما يتناوله من وجوه التاريخ فإن مؤلّفه يناقش رواياتِ المصادر والمراجع ويقارن بعضَها ببعضٍ ويرجّح بعضَها على بعض ؛ فهو من أجل ذلك أوفى ما كتب في تاريخ العرب قبل الاسلام .

ومن مراجع تاريخ الجاهلية « تاريخ العرب قبل الاسلام » والجزء الأول من « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وهما لجرجي زيدان . وهناك ايضاً : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ، العرب واطوارهم : طور العرب والعربية في أطوار الجاهلية لمحمد عبد الجواد الأصمعي ، مدنية العرب في الجاهلية والاسلام لمحمد شكري (مصر ١٣٢٩ ﻫ = ١٩١١ م) ، بلوغ الأرب في مآثر العرب لمحيي الدين بن ابراهيم العطار ، تاريخ الفلك عند العرب تأليف كارلو نالينو ، تاريخ الموسيقى العربية تأليف هنري جورج فارمر (منقول) ، القيان والغناء في العصر الجاهلي لناصر الدين الاسد ،

(١) صدر في ثمانية أجزاء (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) ، وطبع في مطابع متعددة في بغداد بين سنة ١٤٦٩ (والرقم ١٣٧٩ على الجزء الأول الذي طبع في مطبعة التفيض خطأ مطبعي) وبين سنة ١٣٧٨ للهجرة (١٩٥٠ — ١٩٥٩ م) . وهو يصدر الآن عن دار العـلم للملايين (بيروت) وسيتم في نحو اثني عشر جزءاً .

تذكرة في تاريخ الطب قبل الاسلام للدكتور شوكت الشطّي ، اختـلاط الجنسين عند العرب ، دراسات حول وضع المرأة الاجتماعي والقانوني في العصور القديمة لمحمود سلام زناتي ، الخ .

ومن مراجع الأدب الحديثة « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها » لناصر الدين الأسد ، تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الجزء الأول (نقله عبد الحليم النجار) ، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان .

وفي عام ١٩٢٦ اصدر الدكتور طه حسين كتاباً سماه في « الشعر الجاهلي » وتكلم فيه على صِحة الشعر الجاهلي . وصحة الشعر الجاهلي قضية معروفة مفصول فيها في جميع كتب الأدب القديمة . غير ان طه حسين استطرد استطراداً جانبياً الى صِحة الرواية المتعلقة ببناء الكعبة فأثار ضجة ادبية وضجة دينيـــة .

اما الضجة الأدبية فأسفرت عن صدور رُدود منها كتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد الخَضِر حسين ، وكتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلي » لمحمد فريد وجدي و « النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي » لمحمد احمد الغمراوي (القاهرة ١٩٢٩) . واما الضجة الدينية فحملته على الاعتذار عما كان قد أعلنه وعلى ان يعيد اصدار الكتاب في عام ١٩٣٣ باسم « في الأدب الجاهلي » بعد أن حذف منه الأشياء التي اثارت الضجة.

*

مراجع للتوسّع في فلسفة التاريخ والطريقة العلمية للتأريخ وفي المؤرخين العرب . إن القائمة التالية تمثل هذين الفنين ولكنّها لا تستنفد الكتب المؤلّفة فيهما . ويحسن ان نعرف أن بعض هذه المراجع منقول عن اللغات الأجنبية ، كما أن بعضها أحدث من بعضها الآخر (وأن بعض ما ذكرناه يقوم مقام بعضِ ما لم نذكره في هذا الباب) :

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، تأليف السيد جمال الدين القاسمي الدمشقي ، دمشق ١٣٥٣هـ (١٩٣٥ م) .

مقدمة ابن خلدون.

دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، تأليف ساطع الحصري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٣.

مصطلح التاريخ لمؤلفه الدكتور أسد رستم ، بيروت ١٩٣٩ .

التاريخ : مجاله وفلسفته ، تأليف نوري جعفر ، بغداد ١٩٥٥.

منهج البحث التاريخي ، تأليف حسين عثمان ، القاهرة ١٩٤٣.

علم التاريخ عند المسلمين، تأليف فرانتز روزنتال (ترجمة صالح أحمد العلي) ، بغداد ١٩٦٣ .

نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، تأليف حسين نصّار ، القاهرة ، بلا تاريخ .

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري، بغداد ١٩٦٠ .

مختصر دراسة التاريخ ، تأليف أرنولد توينبي (ترجمة فؤاد محمد شبل) ، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٢ .

ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريـخ العربي وغيره ، باشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٥٩ .

نحن والتاريخ ، تأليف الدكتور قسطنطين زريق ، بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٥٩ م .

فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، تأليف عبد العزيز عزّت ، القاهرة ١٩٦٠ م .

التاريخ والمؤرّخون العرب ، تأليف عبد العزيز سالم ، القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) ١٩٦٧ م .

History of Philosophy of History, by Robert Flint, Edinburgh 1893.

Introduction to the Study of History, by V. Langlois and Ch. Seignobos (translated by G.G. Berry) N.Y.

L'histoire et sa philosophy, par Henri Gaston Gouhier, Paris 1952.

De la connaissance historique, par Henri Irénée Marrou, 3ème. éd., Paris 1958.

History: its purpose and Method, by Gustaaf Johannes Renier, London 1950.

Kritik der historischen Vernunft, von Alois Dempf, München 1957.

The intrepretation of history: Confucius to Toynbee, by Alban Widgery, London 1961.

Lectures on Arabic historians, by D.S. Margoliouth, Calcutta 1930.

العرب قبل الإسلام

بلادُ العربِ شبهُ جزيرةٍ واسعةٌ سمّاها جُغرافيّو العرب جزيرةً لأنّ مياهَ البحار تُحيط بها من ثلاثِ جهاتٍ ثمّ يَعْقِد لها نهرُ الفُراتِ ونهرُ العاصي عند اقترابِهما في أعالي الشامِ حدّاً رابعاً من الماء .

سطح بلاد العرب

سطحُ بلاد العرب شديدُ التفاوُتِ : القِسْمُ الأعظمُ منه باديةٌ (أرضٌ تَصْلُحُ للزراعة ولكن لا ماءَ فيها) ، ويتَخلّلَ البَوادي واحاتٌ يَنْبتُ فيها الزرعُ والنَخْل . وفي الطَرَف الجَنوبيّ الغَرْبي من مستطيلِ شبهِ جزيرةِ العربِ جبالٌ يُسمّى فرعُها الشَماليُّ « الحِجازَ » لأنّه يَحْجِزُ (يعترض) بينَ « تِهامةَ » (الساحلِ المنخفض) وبينَ « نَجْد » (وهي هَضْبةٌ واسعةٌ في شَماليّ شِبه الجزيــرة) . وفي الجنوبِ في عُمانَ واليَمَنِ تَعْظُمُ الجِبالُ وتعلو حتى تبلُغَ ثلاثةَ آلافٍ ومائتَيْ مِترٍ فوقَ سَطْحِ البحر .

وإلى الشَمال الشرقيّ **من** نَجْد – بينَ باديةِ الشام ونجدٍ والحجاز – صحراءُ النُفود أو النفوذ ، سُمِّيَتْ بالإضافة الى صحراءِ الدَهْناء التي يَصْعُبُ النفوذُ فيها . أمّا الدهناءُ فَهِيَ فَلاةٌ واسعةٌ تَبْدأ مَمَرّاً ضيّقاً جَنوبَ صحراءِ النُفود ثمّ تسيرُ في قوسٍ كبيرةٍ غربَ نَجْدٍ حتى تتّسعَ في الجنوبِ اتّساعاً كبيراً جدّاً حيثُ تُعْرَفُ باسم الرَبْع الخالي (بفتح الراء بمعنى المكان) أو الرُبْع الخالي (بضمّ الراء بمعنى الجزء من أربعة) . والربع

الخالي « صحراء » (أرضٌ رمليةٌ لا يَنْبُتُ فيها شيءٌ (ولو سُقِيَتْ بالماء) .

وكان في شبه الجزيرة براكينُ ثارتْ في القرن الرابع قبلَ الهجْرة (أو قبلَه بقليل) فغَطّت أجزاءً واسعةً بالحُمَم . وقد ظلّ ثَوَرانُ هذه البراكينِ متقطّعاً الى ما بعدَ ظهورِ الإسلام . ومُعْظَمُ الحِرارِ[1] في غربيّ شِبْهِ الجزيرة ، في الحِجازِ قُرْبَ المدينة .

مناخهـا

ومُناخ بلاد العرب مُتفاوتٌ بتَفاوُتِ سَطْحِها ، والغالبُ عليه أنّه قاريٌّ صحراويٌّ يَميلُ الى الجَفاف وتَميل الحرارة فيه الى الاشتداد . ثمّ انّ تفاوُتَ الحرارة بين اللّيلِ والنهار في المكان الواحد (في نَجْد مثلاً) كبيرٌ أيضاً . والمطرُ قليلٌ جدّاً . أمّا على الساحل الغرْبيّ — حيثُ مُعْظَمُ الأرضِ حَرّةٌ — فان المطر ينهمرُ أحياناً مِدْراراً فيسيلُ سُيولاً جارفةً من غيرِ أن يَتَسَرَّبَ منه شيءٌ الى باطن الارض . ثم تَنْحدرُ تلك السيولُ الى البحر فتبدو الأرضُ وكأن لم يسقط عليها مَطَرٌ . غيرَ أنّ ثَمّتَ بقاعاً قليلةً ذاتَ تُربة في الطائف والمدينة تستفيدُ من بعض ماء المطر . وليسُ للمطرِ في البادية قياسٌ مألوفٌ . فإذا اتّفق أنْ أمطرتْ غَيْمةٌ في مكان فانّها تُنْبِتُ العُشْبَ فيها وشيكاً (بفعل الحرارة الطبيعية) ثمّ ينمو هذا العُشْبَ بسُرعةٍ . ثمّ يَصْفَرُّ ويَهيجُ بسرعةٍ أيضاً .

الأقسام الجغرافيـة

تبدأ شبهُ جزيرةِ العربِ من الغَرْب بسِيفٍ[2] ضيقٍ على ساحلِ

(١) الحرار جمع حرة (بفتح الحاء) : طبقة سوداء قاسية تتألف من الحمم التي قذفتها البراكين الثائرة .

(٢) السيف (بكسر السين) : ساحل البحر أو النهر .

البحر الأحمر يُدعى تِهامةَ . ثمّ تلي ذلك السِيفَ شرقاً سلسلةُ جبال تبدأ منخفضةً في الشَمال ثمّ ترتفعُ كلّما أوغلتْ في الجَنوبِ حتى تَصِلَ الى اليمن ، ثمّ تَدورُ مُتّجِهةً شرقاً الى عُمانَ . وهنالك نَجْدٌ (في شَماليّ شبه الجزيرة) ثمّ اليَمامةُ (في الجَنوب الشرقي من نَجْدٍ) ثمّ هَجَرَ أو البحرين (وهي المعروفةُ اليوم ببلاد الخليج) .

سكان شبه الجزيرة

يرى نفرٌ من الدارسين أن شِبهَ جزيرةِ العرب كانتْ مَهْدَ الجِنْس البَشَريّ . ثم قَسَمَ المؤرّخون الغربيون الجنسَ البشري ثلاثةَ عُروق : العِرْقَ السامِيَّ والعرقَ الحاميّ (الزَنْجيّ : الأسودَ) والعرقَ اليافِثيّ (الآريّ) . هذا التقسيم قاصرٌ لأنّه لا يَشْمَلُ جميعَ العُروق البشرية ؛ ثمّ إنّ الخصائصَ الطبيعيةَ لهذه العروق الثلاثة تتداخلُ في عدد من أطوارها التاريخية (فالآريّون أصلُهم هِنْديٌّ أسودُ) وفي عدد منَ الخصائص الطبيعية (بين الساميّين والآريّين) . و « الساميّة » اليومَ مُدْرَكٌ لُغويّ يُطلَقُ على عدد من الشعوب التي تتكلّم لغات قريبةً لِلّغةِ العربية (تقومُ كلماتُها على الاشتقاق : فَعَلَ ، فاعلٌ ، مُفاعل ، مستفعل ، الخ ؛ ثمّ فيها التركيبانِ الإسناديّان : الجُملةُ الفعلية والجملة الاسميّة ، مَعَ تفضيل الجُملة الفعلية ؛ ثمّ تَجْري الجملةُ فيها مجرًى مستقيماً : يجيء الفعلُ فالفاعل فالمفعول أو المبتدأ فالخبرُ ، الاّ عند الضرورة) .

والمتّفقُ عليه اليومَ أن الشعوبَ الساميّةَ (الأكّديّين والبابليّين والآراميّين والفينيقيّين الخ) قد انتقلوا من شبهِ جزيرةِ العرب الى مَواطنِهمُ المعروفةِ في التاريخ . غيرَ أنّ البلادَ التي انتقلَ اليها هؤلاء الساميّون لم تكنْ خاليةً من الشعوب فاختلطَ الساميّون الطارئون بتلك الشعوب . ولقدِ اتّفقَ للعَرَبِ الذين بَقُوا في شبه الجزيرة — وخصوصاً في اليمنِ وعلى السواحلِ الجَنوبية والشرقية — شيءٌ من الاختلاط بشعوبٍ أخرى كالزَّنْج والفُرْس والهُنود خاصّة .

« العرب » ومعنى كلمة « عرب »

إنّ أقدمَ نصٍ جاءتْ فيه كلمةُ « عَرَب » نصّ أشوريّ من عام ٨٥٠ ق . م . وَرَدَتْ فيه الكلمةُ للدلالة على القبائلِ التي كانتْ تعيشُ غَرْبَ العراق . فكلمة عرب ، إذَنْ ، مَدْرَكٌ جُغرافيّ . ولم يَرِدْ في الشعر الجاهليّ صيغةٌ من الجذْرِ « عرب » بهذا المعنى . أمّا في القُرآن الكريم فانّ كلمة « أعراب » تَعني البَدْوَ ؛ وأمّا كلمة « عربيّ » فتَدُلُّ فيه على مَدْرَكٍ لُغويّ : « بلسانٍ عربيٍّ مُبين (واضح) » ، الخ .

وفي السَنَة الثالثة للهجرة (٦٢٥ م) وَرَدَتْ كلمةُ « عَرَب » في شعرِ كَعْبِ بنِ مالكٍ بالمعنى القوميّ المـألوف : قال كعبُ بنُ مالكٍ يذكُرُ رسولَ الله :

بدا لنا فاتّبَعْناه نُصَدّقه ، وكذّبوه ؛ فكُنّا أسعدَ العَرَبِ .

ثمّ استعملَ حسانُ بنُ ثابتٍ كلمةَ « عرب » للدلالة على المسلمين .

طبقات العرب

يذهَبُ مُعْظَمُ المؤرّخين الى أن العرب ثلاثُ طَبَقات : بائدةٌ وعاربةٌ ومُستعربةٌ . والأصوب أن نَجْعَلَهُمْ طَبَقَتَيْنِ فقطْ : بائدةٌ وباقيةٌ . أمّا العربُ البائدةُ (ويُطْلَقُ عليهم أيضاً اسمُ العربِ العاربةِ والعربِ العَرْباء ، فهُمُ الذين كانوا صُرَحاءَ ذَوي نَسَبٍ خالصٍ — نظرياً على الأقلّ — كقبائلِ عادٍ وثمودَ وطَسْمٍ وجديسَ وجاسِمٍ) . وأمّا العرب الباقية ، ويُسَمَّوْنَ أيضاً العربَ المُتَعَرّبة أو المُسْتَعْرِبة ، فهم الذين ليسوا خُلَّصاً (ليسوا ذَوي نَسَبٍ صافٍ) ؛ وهم بنو يَعْرُبَ بنِ قَحْطانَ وبنو مَعَدّ بنِ عدنانَ .

انقراض العرب البائدة في الجاهلية الأولى

في تاريخِ العربِ قبلَ الإسلامِ حِقْبتانِ : الحِقبةُ القريبة من الإسلام ،

وكانتْ نحو مائتَيْ عامٍ — وهي التي سَمّاها القُرآنُ الكريم « الجاهليةَ » على الحَصْرِ — ثمّ الحِقْبةُ التي سَبَقَتْ هذه « الجاهلية » ، ويحسُنُ أن نُسَمّيَها الجاهليةَ القديمةَ أو الجاهلية الأولى ، وهيَ تمتدُّ من نحو عام ٢٠٠ ق . هـ . (٤٠٠ م) رُجوعاً الى فجرِ التاريخ . وجميعُ أخبارِ الجاهلية القديمة قد ضاعتْ إلاّ ما بَقِيَ من آثارِها الماديّةِ على الارضِ (الحِرارَ والكَعبةَ مثلاً) .

ويبدو أنّ العربَ البائدةَ قد بادوا أو انقرضوا بعاملين طبيعيّـين رئيسيّيْنِ : بالرَمْلِ الزاحفِ وبهياجِ البراكين . أمّا الرملُ الزاحفُ من الشواطىء الجنوبية الشرقية فقد قضى على المُدُنِ التي كانت في أواسط شبهِ الجزيرةِ وفي الأحقافِ (على أطرافِ الربع الخالي خاصّةً) . وأمّـا هياج البراكينِ فَنَتُجَ منه ظواهرُ متعدّدةٌ : قوّةُ الانفجار (الصوت والاهتزاز) ، خَسْفُ الأرض (بالزلازل) ، الغازاتُ المنتشرة من البراكين ، تساقُطُ الرَماد والحِجارة ، سَيَلانُ اللّوبة أو اللابة (الحُمَمِ : المعادنِ السائلة من البراكين) ، الريح العَقيم (الشديدة الحارّة) .

العرب الباقية

انّ العربَ الذين سمّيناهم بائدةً لم يَبيدوا (لم ينقرضوا) تماماً ، بل بَقِيَ منهم بقايا اختلطتْ بسُكّانِ الأراضي التي لم تُصِبْها الكوارث . فالبَدْوُ الذين يعيشون اليومَ في خيامِهم في بَوادي شبهِ الجزيرةِ وفي باديةِ الشام هم أحفادُ البَدْوِ الذين عاشوا في هذه البوادي نفسِها منذُ أقدمِ أزمنةِ التاريخِ التي وصلتْ إلينا أخبارُها (ذلك لأنّ مُعْظَمَ العرب الذين بادوا بالكوارثِ الطبيعية كانوا حَضَراً — أهلَ مُدُنٍ) .

الجـاهلية

الجاهليةُ اسمٌ أطلقه القرآنُ الكريم على الحِقْبة التي سَبَقَت ظهورَ

الاسلام لأنّ أهلَ هذه الحقبة كان يَغْلِبُ عليهم التنازعُ والتقاتُل والعداوةُ والثأر ، كما كان يَغْلِبُ على جماعات منهم وأدُ الاولاد [1] وشُرْبُ الخمر ولَعِبُ المَيْسِر وأخذُ الربا والإسرافُ في الكرم . فالجاهلية ، إذَنْ ، تدلّ على الجَهْلِ الذي هو ضِدّ الحِلْم لا على الجهل الذي هو ضِدّ العلم (لأنّ عربَ الجاهلية كانوا على شيءٍ جيّدٍ من العِلم بالإضافة الى مُعاصريهم من جيرانهم) .

عرب الشمال وعرب الجنوب

مُعْظَمُ شماليّ شبه الجزيرة باديةٌ ، ومُعْظَمُ جَنوبيّ شبه الجزيرة حَضَرٌ . من أجل ذلك نشأ شيءٌ من الخِلاف بين أهلِ الشَّمال وأهل الجَنوب . كان أهلُ الجَنوبِ أهلَ زِراعةٍ وصِناعة وحكومة مستقرّة ، بينما كان أهلُ الشَّمال أهلَ رِعاية وتِجارةٍ ورِئاسةٍ بالعصبيّة . وبما أنّ عَرَبَ الجَنوب كانوا أقوى من الناحيةِ الاقتصاديةِ المادّية محتاجينَ إلى أن يكونَ أهلُ الشَّمال مَدًى حَيَويّاً لهم فقد حاولوا التسلّط على عرب الشمال اقتصادياً وسياسياً . ومن هنا نشأ النزاعُ بينَهم واشتدّتْ بينَهم العداوةُ ونَشِبَتْ أحياناً الحروبُ . ولم تكن هذه العداوةُ بين عَرَبِ الجَنوبِ وعرب الشَّمال فقط ، بل بين القبائلِ الشمالية والقبائل الشمالية التي كانت تعتقد أن أصلَها يَرْجِـعُ الى عرب الجنوب ايضاً . وقد جرَى التعبيرُ عن هذه العداوةِ بألفاظ مختلفة : عربُ الشَّمال وعرب الجَنوب ، قَيْس ويَمَن ، مُضَر ويَمَن ، بكْر وتَغْلِب ، الخ .

البـــداوة والحضـــارة

البداوةُ هِيَ الاكتفاءُ بالضروريّ من أسبابِ المَعاش ؛ والحضارةُ

[1] وأد الأولاد : دفنهم أحياء (إذا كانوا مشوهين أو كان آباؤهم فقراء أو كان العام عام قحط) . وكان الغالب وأد البنات . ولم يكن ذلك كله كثيراً .

هي التأنّقُ (الاستجادة) والتفنُّن (التعديد) لأسبابِ المَعاشِ في المَطْعَم والمَلْبس والمسكن . وللبَدْوِ في حياتِهِم العامّةِ خصائصُ منها : الرِحْلَةُ (الانتقال من مكانٍ الى مكان) في طَلَبِ المعاش – القوّة والشجاعة لحاجتِهم الى الدفاع عن أنفسهم ضِدّ الحَيَوان المفترس والعَدوّ المُغير) – العصبيّةُ (شعورُ كلّ قبيلة برِباط من النسب يجعلُها يداً واحدةً على كلّ قبيلة أخرى) – الظُلم (العُدْوان : أن تبدأ خَصْمَك بالهُجوم عليه قبل أن يتَمَكّنَ هو من الهجوم عليك) – الغزو لأنه كان وَسيلةً من وسائلِ المَعاش في البادية القاحلة – البِرّ (طاعةُ القَبيل : أن يُطيعَ الفردُ القبيلةَ التي يَنْتَسِبُ إليها ، ولو أضرّ ذلك بمصلحته هو) – الحياةُ الفِطْرية (نفسُ البَدْو أقربُ إلى الخير ؛ قلّة المنافسة بينهم لقلّة حاجاتهم الكمالية ، كما أنّ في البَدْويّ صفاتٍ نبيلةً من الكَرَم والنَجْدة والوفاء والدِفاع عن العِرْض) .

ومن البداوةِ تتطوّرُ الحَضارةُ فيستقِرُّ الإنسانُ في السُكْنى ويَميل الى التَرَف وتَعَدّدِ الحاجات في الحياةِ فتنشأ في مجتمعه الدولةُ ويُصْبِحُ طَلَبُ العِلم من الضروريّات) .

جيران عرب الشمال

في العصرِ الجاهلي (٢٠٠ – ١ ق . ه . = ٤٢٢ – ٦٢٢ م) كانتِ اليمنُ قد أصبحتْ دولةً غريبة عن عَرَبِ الشَّمال بحَضارتها وباللَهْجة التي كانت تتكلّمها من العَرَبيّة . ثمّ إنّ اتّساعَ البوادي والصَحارى في بلادِ العرب قد حالَ بينَ الرومِ والرومانِ والفرس وبينَ احتلال شَماليّ بلادِ العرب . وحاول الاحباش احتلال الحِجازَ (في عام الفيل : ٥٣ ق . ه . = ٥٧٠ م) فخابوا وارتدّوا مهزومين .

غيرَ أنّ الرومَ استطاعوا أن يُقيموا دُوَيْلَةً للغساسنة (من عرب الجَنوب) في جِلّقَ (حوران) ليكونَ هؤلاءُ الغساسنةُ عيوناً لهم على

العربِ وجُباة للأموالِ من عرب الشمال . وكذلك أقامَ الفُرْسُ من المناذرة (من عرب الجَنوب) دُوَيْلَةً في الحِيرة (الكوفةِ اليومَ) للغَرَضِ نفسه . ويحسُنُ أن نعلم أن المناذرةَ والغساسنةَ كانوا طَبَقَتَيْنِ حاكمتين ولم يكن أهلُ البلاد المحكومةِ منهم . ثمّ انّ الرومَ أقاموا (بوَساطة الحبشة) دويلةً لآل كِنْدَةَ (قومِ الشاعرِ المشهور امرىء القيس ، وهم أيضاً من عرب الجنوب) دويلة في نَجْد . أمّا أشهرُ ملوك الروم (البيزنطيين) الذين عاصروا عرب الشمال قبيل ظهورِ الاسلام فكان يوستنيانُسَ صاحبُ مجموعةِ القوانين ثمّ هِرَقْلَ الذي أنقذَ المسلمون منه الشامَ ومِصْرَ وبلاد المغرب . وأمّا أشهر ملوك الفرس (الساسانيين) فكان كِسْرى أنوشروان .

واحتلّ الاحباشُ اليمنَ مدّة ، فاستنجد اليَمنيّـونَ بالفُرس ، فاستطاعَ الفرسُ أن يُخْرِجوا الاحباشَ من اليمن ولكنِ احتلّوها هم .

المدن وطرق التجـارة في بـلاد العرب

كانت شِبْهُ جزيرةِ العَرَب طريقَ التجارة بين الهندِ وفارسَ والعراق وبين الشامِ ومِصْرَ . ولم يكنْ لعربِ الشَمال محصولاتٌ أو مصنوعاتٌ يتاجرون بها ، فكانوا يعمَلون في نَقْلِ التجارة بين البلادِ المختلفة أو يعملون في خفارة القوافل التجارية الغريبة . وهذا دعا الى نُشوء مَحطّات تجاريةٍ عَبْرَ الحِجاز (بين اليمن وبين الشام ومصر) وعبر نجدٍ (بين العراق وبين الشام ومصر ايضاً) . من هذه المدن سَلْعُ (بسكون اللام : وتسمّى باليونانية بطرا : الحَجَر ، في جَنوبيّ الأردنّ اليوم) وتدمُرُ ثمّ المدينةُ وتيماءُ ومكّةُ والطائفُ ومَدْيَنُ (وكلّها في الحجاز) .

الأديـان في بـلاد العرب

كان عربُ الشَمال على الفِطْرة ليسَ لهم دينٌ ذو عقائدَ وعباداتٍ معيّنةٍ مفروضةٍ ، ولكنْ كان منهم حُنَفاءُ (يَسْلُكون في الحياة مسلكاً

أخلاقياً لا يعتدون على أحدٍ ولا يشربون الخمرَ ويتّبعون في الحياة مَسلَكاً روحيّاً من التواضع وحُبِّ الخير والخشوعِ ومن الاعتقاد بأن كلَّ انسان سيُحاسَبُ في الآخرةِ على أعمالِه في الدنيا) . ومع الأيّامِ وبانتشارِ الجَهلِ نشأ بين عرب الشَمالِ شيءٌ من الاعتقاد بالاوثان[1] في المدن خاصّةً . ثمّ تسرّبَ اليهم من الشام والعراق شيءٌ من عبادة الاصنام . ومَعَ الحُكْمِ الفارسيّ انتقلَ الى بلادِ العربِ (في البحرين : شرقيّ شبه الجزيرة) شيءٌ من المَجوسيّة (الاعتقاد بآلهٍ للنورِ وللخيرِ والهٍ للظلمة والشرّ وبعبادة النارِ) . ثمّ تبع ذلك شيء من المزدكية (الشيوع في الأموال والنساء والزواج بالأقارب) . ولكن بما أنّ العربَ يَقْدِرونَ العِرضَ حقّ قَدْرِه فإنّ المزدكيةَ لم تستقرَّ في بلاد العرب (ولعلَّ بعضَ ما يُنْسَبُ الى امرىء القيسِ في هذا الشأنِ راجعٌ الى أثر المزدكية) .

ثمّ إنّ اضطهادَ الرومانِ والرومِ البيزنطيّينَ لليهودِ وللنصارى في الشام والعراق دَفَعَ جماعاتٍ من اليهودِ والنصارى الى اللجوء الى بلادِ العرب . وكذلك كان في شِبْهِ الجزيرةِ شيء من دين الصابئة (عبادةِ النجوم والقمر والشمس) .

أيّـام العرب

أيّامُ العربِ هي الحروبُ التي كانتْ تثورُ بينَ القبائلِ العربية (بين القبائل الشَمالية والقبائل الجَنوبية عموماً) . واليومُ من أيام العرب يُطْلَقُ على الحربِ مهما طالتْ كقولنا يوم داحسٍ والغبراء أو على المعركةِ الواحدة .

وأسبابُ أيام العربِ قد تكون أحياناً تافهةً (كالسبب النفساني في نشوب حرب داحسٍ والغبراء) أو غيرَ تافهةٍ (كالعاملِ الاقتصادي في نشوب

(١) الوثن حجر (على غير صورة معينة) أو شجرة ، الخ . والصنم : صورة معينة لبشر أو لحيوان أو لمزيج من بشر وحيوان .

حربِ البسوس أو العامل الاقتصادي والقومي في نُشوبِ يوم ذي قارٍ) .

وأيامُ العربِ كثيرةٌ جداً أهمها : حربُ البسوسِ بينَ بكرٍ (من عرب الشمال) وتَغْلِبَ (من عرب الشمال المنتسبين الى عرب الجنوب) وحرب داحسٍ والغبراء بين عبسٍ وذُبيانَ (وهما قبيلتان من بني غَطَفان من عرب الشَمال) ويومُ خُزازى بين كِنْدَةَ (من عربِ الجَنوب) وبينَ بكرٍ وتَغْلِبَ وأحلافِهِمْ . ثمّ هنالك يومُ ذي قارٍ بين العَرَبِ والفُرس .

الحجاز وقريش

مُنذُ أواسط القرنِ السادسِ للميلاد بدأ مجرى التاريخُ في بلاد العَرَبَ يتحوّلُ من نَجْدِ الى الحِجازِ فاكتسبَ الحجازُ بذلك مكانةً اقتصاديةً تجارية . فمن العواملِ التي أدّتْ إلى ذلك تحوّلُ طريقِ التجارةِ من البرّ الى البحر الأحمر . وكان النزاع القبليُّ قد أضْعَفَ نَجْداً . ثمّ انّ مكّةَ في الحِجاز كانتْ مركزاً دينياً قديماً ، وكانت الكعبةُ في مكّةَ بناءً قديماً جداً حتى سُمِّيَتْ منذُ ذلك الحينِ « البيتَ العتيق » . وقد اقتضى الحجُّ إلى مكّة (قبلَ الاسلام) أن يقومَ فيها وحَوْلَها وعلى الطُرُقِ المُخْتَلِفَةِ المتّجهة إليها أسْواقٌ دائمةٌ أو موقّتةٌ في فَتَرات متفاوتة . وقد كانتْ هذه الأسواقُ للبيعِ والشراء وإنشاد الشعر وإلقاء الخُطَبِ وللبحثِ عن الغُرَماء وللمفاخرة ولغير ذلك . وكذلك كثُرت الجَوَالي من الشعوبِ المختلفة في ذلك الحين في الحِجاز فحدثتْ فيه نهضةٌ عمرانيةٌ واقتصادية . وكانت خيبةُ الحَمَلاتِ على الحجازِ قد جعَلَتْ لأهلهِ وجاهةً وحوّلت اليه الأنظارَ وخلقتْ له قيمةً صحيحة . وحَرَصَتْ قريشٌ على أن تُوَثِّقَ صِلاتِها بجميعِ جيرانها فلا تُعادي أحداً منهم محافظةً على مَصالحها الاقتصادية .

مكــة

مكّةُ مدينةٌ قديمةٌ ، قيل إنّ أقدمَ سُكّانِها العَماليقُ جاءوا إليهــا من العِراق ، ثم غَلَبَتْهُمْ عليها بنو جُرْهُمٍ ، وجُرْهُمٌ قبيلةٌ عربيةٌ

قديمة . بعدئذ جاء بنو خزاعة من اليمن وأجلَوْا جرهماً عن مكّة واستولَوْا هم عليها . وكان من رؤساء خزاعة عمرو بن لحيّ ، فيقال إنّه رجع من إحدى رحلاته بصنم اسمه هُبَل (البعل) جاء به من الشام أو من العراق .

ومن خزاعة ورثت قريش الحكم في مكّة والولاية على الكعبة .

قريش

يرجع نسب قريش إلى النضر بن كنانة ، فقد كان اسم النضر قريشاً . وقد بدأ تاريخ قريش المعروف في أيام فهر بن مالك بن النضر الذي جمع قومه وعدداً من القبائل القريبة والحليفة وصدّ بهم حسّان ابن تبّع يوم جاء (٤٨٠ م) للاستيلاء على مكّة .

ومن الذين اشتهروا من قريش كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر ، وكان عظيم القدر عند العرب ولذلك أرّخوا بموته (جعلوا موته بدءاً لتاريخ الحوادث) الى عام الفيل . ثمّ أرّخوا بعام الفيل .

غير أن شأن قريش لم يبرز في التاريخ الاّ في أيام قصيّ بن كلاب ابن مرّة بن كعب .

وفي أيام قصيّ انقسمت قريش قسمين : نزل قسم بظواهر (ضواحي) مكة فسمّوا قريش الظواهر وكانوا بدواً ، ونزل سائرهم في بطحاء مكة فسمّوا قريش البطاح واصبحوا حضراً ، وكانوا هم الفرع الأقوى والأغنى والأوجه .

وبايعت قريش قصيّاً بالمُلك فكانت له الحجابة (الإشراف على الكعبة) والسقاية والرفادة (اسقاء الناس واطعامهم في المواسم — بثمن طبعاً) واللواء (القيادة في الحرب) والندوة (دار الحكم) . وبذلك أصبحت دار قصيّ مركزاً لإدارة شؤون قريش كلها .

وكان عبد الدار أكبر ولد قصيّ — إلاّ أنّه كان ضعيفاً - فأعطاه أبوه دار الندوة (الحكم) والسقاية والرفادة واللواء . فأقرّ اخوة عبد الدار ذلك ثمّ أقرّه أبناؤهم من بعدهم زمناً . وكان لقصيّ ولد اسمه عبد مناف بارع مقتدر فعقد حلفاً بين قريش وبين الأحابيش (وكانوا مزيجاً من العرب والأحباش والزنج ، إلاّ أنّهم كانوا ذوي بأس في القتال) .

عام الفيل

في عام ٥٧٠ للميلاد سار أبرهة الحبشي بجيش كثيف من اليمن يريد الاستيلاء على مكّة وهدم الكعبة لتكون طريق التجارة من اليمن الى الشام ومصر كلّها تحت سيطرته ، كما كانت حملته تنطوي على معنى ديني تتحوّل به القيمة الدينية في غربيّ شبه جزيرة العرب الى اليمن ثمّ تكون مكّة مركزاً لنشر النصرانية . وكان في جيش أبرهة فيلة — ولم يكن العرب قد رأوا فيلة في الجيوش — فسمّوا ذلك العام عام الفيل .

ولكنّ حملة أبرهة على مكّة خابت وأُبيد جيشه بالجدريّ ، فإنّ أوّل ما رؤيت الحصبة والجدريّ في بلاد العرب في ذلك العام (الطبري ٢ : ١٣٩) . ولقد أُشير إلى هذه الحادثة في القرآن الكريم في سورة الفيل (رقم ١٠٥) : « ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل ! * ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ * وأرسل عليهم طيراً أبابيل (أسرابا) * ترميهم بحجارة من سجّيل (طين مطبوخ أو متحجّر) * فجعلهم كعصف (غلاف حبّة القمح) مأكول (متساقط من أفواه الدوابّ : كناية عن أنّه مبتلّ ومقطّع حتى خسر شكله الأوّل) » .

حلف المطيبين

ثم إنّ الخلاف دبّ في قريش : أراد فريق منهم أن يعيد النظر في

توزيعِ المغانم الاقتصادية التي كان قُصَيّ قد خَصّ بها ابنَه عبدَ الدار ؛
وأرادَ آخَرونَ أن يُبقوا ما فعَلَه قُصَيّ كما كان . واستعدّ الفريقــانِ
للحرب ، ولكنّ نَفَراً من عقلاءِ الفريقين دَعَوْا الى الصُلح بالمفاوضة .
وقد رَضيَ بنو عبد الدار أن يتنازلوا عن السقايةِ والرفادة (وهما أقلُّ تلك
المنافع الاقتصادية شأناً) لبني عبدِ مَناف . وظلّت الحِجابةُ واللواءُ والنَدْوة
لبني عبدِ الدار . وقد عُرِفَتْ هذه التسويةُ باسْمِ حِلْفِ المُطيّبين .

ورَضيَ أبناءُ عبد مَنافٍ بذلك — لأنّهم مَعَ أحلافِهِم كانوا أضعفَ
من بني عبد الدار مَعَ أحلافِهم . وقد كان أبناءُ عبد مَناف أربعةً : عَمْراً
وعبدَ شمسٍ ونَوْفَلاً والمُطَّلِب . وكان عمرٌو أكبرَهم سنّاً فتولّى السقايةَ
والرِفادة بعدَ موتَ أبيه . ويبدو أنّ عَمْراً كان يُكْثِرُ في الثَريد (الطعام
الذي يقدّمه الى الحجّاج) من هَشْمِ (فتّ) الخُبْز : يجعلُ في الثريد من
الخبز أكثرَ ممّا كان يَضَعُ فيه من اللحم فلُقِّبَ هاشماً .

وكان أبناءُ عبدِ مَناف قد أدركوا مُنذُ شَبابِهِم الأوّل أن معيشتهم
يَجِبُ أن تكونَ من التجارة ، والتجارةُ تقتضي أمناً داخلياً ومُسالمة للجيران ؛
فعقَدَ هاشمٌ اتّفاقاً مَعَ الروم والغَساسنة في الشام ، وعقد عبدُ شمسٍ
اتّفاقاً مَعَ الحَبَشة ، وعقدَ نَوْفَلٌ اتّفاقاً مَعَ الفُرْس والمناذرة في العِراق ،
وعقدَ المُطّلبُ اتّفاقاً مَعَ اليمن . بهذا كانت قوافلُ قريشٍ التجاريةُ تنتقلُ
بينَ الحِجاز وبين الشامِ والعراقِ واليمن والحَبَشة لا يَعْتَرِضُها أحدٌ ولا
تَعُوقها الحروبُ الناشبةُ فازدهرتْ تِجارة المكّيين . والى جانبِ نقلِ
التجارة بينَ الأقطار المختلفةِ كان المكّيون الأغنياء يُقْرِضونَ الناسَ الأموالَ
بالربا (بالفائدة الفاحشة) .

الطائف وبنو ثقيف

الطائفُ واحةٌ مرتفعةٌ جَنوب شَرق مكّةَ ، وهي مَصيفٌ لأهلِ مكّةَ .
واستفادَ بنو ثَقيفٍ أهلُ الطائفِ من خِصْبِ واحَتِهم ومن مَوْقِعها على

طريقِ القوافل فجعَلوا منها قريةً (بلدة ، مدينة) غنيّةً مُهِمّةً نافَسَتْ
مكّةَ ولكن لم تبلُغْ في المكانةِ السياسيةِ إلى ما كانت مكّةُ قد بَلَغَتْ إليه .

يثرب والأوس والخزرج

تَقَعُ يَثْرِبُ (أو المدينة) شمَالَ مكّةَ ، وكانت مِنْطَقةً خِصْبةً
تَغْلِبُ عليها الحياةُ الحضريّة (الاستقرار) . ومَعَ الأيام لجأ الى يَثْرِبَ
جماعاتٌ من اليهود منهم بنو قُرَيظةَ وبنو النَضير وبنو قَيْنُقاع ، كما
جاء اليها جالياتٌ من شعوب مختلفة . ثم نَزَلَ فيها جماعاتٌ من الأوْسِ
والخَزْرَجِ من عرب الجَنوبِ إخوان المناذرةِ والغَساسنة .

كان اليهودُ قد كَثُروا وقَوُوا في يَثْرِبَ وبَنَوُا الحُصونَ والقِلاعَ
— وخصوصاً في خَيْبَر وتيماء — وسيطروا على المرافق التجارية في يثربَ
وما حولَها . ولكنّ الأوسَ والخزرج استطاعوا أنْ يَضُمّوا إليهِم
عربَ الشمال من سكانِ يثربَ وأن يسيطروا على الحياة السياسية سيطرةً
تامة . غير أنّ الاوسَ والخزرجَ عادوا فتنازعوا ووَقَعَتْ بينَهُم المنازعاتُ
والمعاركُ ثم كانت بينهم أيامٌ من أيام العربِ .

أيّام عبد المطلّب بن هاشم

إن حِلْفَ المُطيّبينَ لم يَحْسِمِ الخلافَ الأصليَّ ، فان أُميّةَ بن
عبدِ شمس حسدَ عمّه هاشماً على رئاستهِ فنافره (دعاه الى التحكيم
بينهما) وأهانه . ولكن قُريشاً حكموا لهاشم على أمية : حكموا بأن يدفع
أميةُ إلى هاشم خمسين جملاً وبأن يتغرّبَ أُميّة عن مكّةَ عشرَ سنينَ قضاها
في الشام . ولما توفّيَ هاشمٌ — في احدى رِحلاته — في غَزّةَ (فلسطين)
انتقلت الرِفادةُ والسِقاية الى أخيه المُطّلب لأن ابنه الحارثَ كان طفلاً .

ضَمّ المُطّلبُ الحارثَ ابنَ أخيه إليه وتولى ترْبيته وتَنشئته . وكَثُرَتْ
رؤيةُ الناسِ للحارثِ مع المُطّلب حتى سَمَّوُا الحارثَ « عبدَ المطلبِ » .

ثم توفي المطلبُ فعادتِ الرفادةُ والسقاية الى الحارثِ (عبد المطلب) .

أبو طالب (٥٣٥ – ٦١٣ م)

كان لعبدِ المطلب بن هاشم عشرةُ أبناءٍ منهم عبدُ مَناف (وكنيتهُ أبو طالبٍ) وحمزةُ والعبّاسُ والزُبيرُ والحارثُ وأبو لَهَبٍ (واسمه عبد العُزّى) وعبدُ الله (والدِ محمدٍ رسول الله) وهو أصغرُ ابنائه . وكان أبو طالب سيدَ بني هاشمٍ ، واليهِ انتهتِ الرفادةُ والسقاية من أبيه ؛ وكان يعمَلُ أيضاً في التجارة .

مولد محمّد بن عبد الله

وُلِدَ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطّلب بن هاشمٍ في مكةَ في عام الفيلِ (٥٧٠ م) ، بعدَ وفاةِ والده بثلاثة أشهرٍ . ثم تُوفِّيتْ والدتُه آمنة بنت وَهْب[1] وله من العُمُرِ ستُّ سنوات فكفله جَدّه عبدُالمُطلب . ولما بلغ محمّدٌ الثامنةَ مِنْ عُمُرِه توفيَ جدُّه عبدُ المطلبِ فكفله عمه أبو طالب .

كان ابو طالب أقلَّ إخوتهِ مالاً وأكثرَهم عَيْلةً . وعاش محمدٌ في بيتِ ابي طالب عيشةَ كَفافٍ ، ولكن في رِعايةٍ وحنانٍ بالغَيْنِ . وكان ابو طالب رُبما ارْسَلَ محمداً مَعَ ابنائه لرَعْيِ غنمه ، وربما أخذه معه إلى الشام ليعوِّده التجارةَ . إلا ان محمداً كان منصرفاً عن كلِ عملٍ دُنْيَوِيٍّ ، كما يبدو من سُلوكه ، وكان كثيرَ التفكيرِ والعُزْلة .

ولما بلغَ محمدٌ الخامسةَ والعشرينَ من عُمُرِه كان ابو طالبٍ قد ساءتْ حالُه الماديةُ كثيراً ، ولم يكن لمحمدٍ عملٌ يعيشُ منه . فاتصل ابو طالبٍ

(١) كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة (والدة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) قرشية من جهة أبيها ومن جهة أمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي . ولكن والدة عبد الله بن عبد المطلب كانت من بني النجار ، من قبيلة الخزرج (من أهل يثرب : المدينة) . فبنو النجار ، إذن ، كانوا أخوال والد رسول الله .

بخديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ ، وهي من تجارِ مكةَ المعروفين ، واستطاعَ بما له من وجاهة ان يجعلها تقبَلُ محمداً في عِداد الذين يذهبون بتجارتها الى الشام – وأنّ كان موسمُ التجارة في ذلكَ الحين قد انقضى – وهكذا غادرَ محمدٌ بيتَ ابي طالب ؛ ولكنّ صِلةَ العم بابنِ أخيه ظلت وثيقةً جداً .

ولَفَتَ محمدٌ بأمانته نظرَ خديجةَ . ثم بَدَتْ لخديجةَ مزايا عظيمةٌ في محمدٍ فتزوجته . وهكذا رُفِعَ عن عاتقِ محمد الكَدْحُ في سبيل العيش وأصبح موسِراً . ولكنّ محمداً عاد – بعد ان أصبحَ مالُ خديجةَ كأنه مالُه هو – فانصرفَ عنِ الكسب إلى استئناف التفكيرِ والعُزْلة في غارِ حراءٍ في رَمَضانَ من كلِّ عامٍ تحنُّفاً وتعبُّداً ، على ما كان قد ألِفَه ذَوُو الاتجاه الروحي من قُرَيشٍ . وقد عاد محمد وخديجةُ فقيرينِ ، ولكن فقرَ محمدٍ لم يُغْطِ على مزاياه السامية .

ولقدْ أجمعت المصادرُ على انّ القبائلَ لما أرادتْ أن تجدِّدَ بِناءَ الكعبة ، عام ٦٠٥ م ، حكّمت محمداً في الخِلاف الذي نَشِبَ بينها حينما جاءت إلى حمل الحجر الأسود الى مكانهِ من رُكْنِ الكعبة . وحَلَّ محمدٌ هذا الخلاف بأن أمرَ بأن يوضَعَ الحجرُ في رداءٍ – في ردائه هو – وان يُمْسِكَ رجلٌ من كل قبيلةٍ بطرف من أطراف الرداء ثم يقترب به من الركن . بعدئذ تناولَ محمدٌ نفسه الحَجرَ الأسود بيده وردّه إلى مكانه الأول . إنّ هذا التحكيم يدل على أمرينِ : على وجاهة محمدٍ وأسرته في قريشٍ وعلى مزايا محمدٍ الشخصيةِ التي كانت موضعَ احترامٍ كبير .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

النبوة

صدعَ محمدٌ رسولُ الله بالرسالة في شهر رمضانَ (سنة ١٣ قبل الهجرة = ٦١٠ م) وعُمُره اربعون سنَةً. ولقد اختلف الرواة في أولِ من استجاب لدعوته؛ ولكن الإجماعَ واقعٌ على ان ثمتَ بضعةَ نفرٍ كانوا أولَ المؤمنين برسولِ الله. هؤلاءِ النفرُ هم: زوجتُه خديجةُ، وصديقه ابو بكرٍ عبدُ الله بنُ ابي قحافةَ، وابنُ عمه عليُّ بنُ أبي طالبٍ، ومولاه زيدُ بنُ حارثةَ، وعبدٌ حبشيٌّ بمكةَ اسمه بلالٌ. ثم كان هنالك طبقةٌ ثانية من المؤمنين فيها ابو ذرٍّ الغفاريُّ، وعثمانُ بنُ عفانَ، والزبيرُ بن العوّامِ، وعبدُ الرحمن بن عوفٍ، وسعدُ بن أبي وقّاص، وطلحةُ بن عُبيدِ الله. ثم فشا ذكرُ الإسلامِ بمكة.

والذي نلاحظه أن الذين دخلوا في الإسلام في أولِ الأمرِ لم يكونوا كلّهم من المستضعفين، بل كان فيهم بعضُ ذوي القوةِ والغنى والوجاهة في قريشٍ.

(أ) الدور المكي:

الاضطهاد والحياة الروحية

جاء الإسلامُ بالتوحيد وبالمُساواة بين الناس وبتركِ استغلال الدين وبتحريمِ الربا وبإعتاقِ الأرقّاء، فكأنه جاء بكل ما يناقض مَصالحَ أصحابِ الزعامة الدينية الوثنية ومصالح التجار من المكّيين. ولذلك لم يُقاومِ المكيون الإسلامَ في الدرجة الأولى على أنه دينٌ، بل قاوموه على أنه نظامٌ اجتماعيٌّ يريدُ ان يسلبهمُ امتيازاتٍ كانوا يتمتعون بها.

ولم يستطعِ المكيون ان يقاوموا محمداً صلى الله عليه وسلم لمكانِ محمد من قريشٍ عامةً ومن أُسرتهِ خاصةً. لذلك حاولوا في أولِ الأمر ان يَثْنوهُ بالحُسنى عن مُتابعة الدعوة، فجاءوا إلى أبي طالبٍ مرتين يطلبون منه ان يمنع ابنَ أخيه عن «تسفيهِ رأيِ قريشٍ في الأوثان»، أو يُلحقوا بمحمد أذىً. فعزّ على أبي طالب ان يَلحق بابنِ أخيهِ أذىً كما عزّ عليه ألا يسمع لشكوى المكيين. من أجل ذلك خاطبَ ابو طالبٍ محمداً بقوله: «يا ابنَ أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا. فأبْقِ عليّ وعلى نفسك ولا تُحمّلْني ما لا أُطيق». فظنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمِّه رأيٌ جديدٌ فيه، وانه سيَخذلُه ويُسلِمه لأنه ضَعُفَ عن نُصْرته والقيامِ معَه. فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: «يا عمّاهُ، لو وَضَعوا الشمسَ على يميني والقمر على يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركته». حينئذ قال له ابو طالب: يا ابنَ أخي، اذهبْ وقُلْ ما أحبَبْتَ، فواللهِ «لا» أُسْلِمُكَ أبداً.

الهجرة الاولى الى الحبشة

من هنا نعلَمُ ان أبا طالبٍ كان يدفَعُ قريشاً عن محمدٍ؛ ولكنه لم يكنْ يومذاك مُسْلِماً.

أخذ المكيون الآنَ يَضْطهدون المسلمين. ولم يحتملْ بعضُ الضُعفاء الاضطهادَ فارتدّوا ؛ فخافَ الرسولُ على المسلمين الأذى والارتدادَ أيضاً فأمرَهُمْ بالهجرة الى الحبشَةِ. واختارَ الرسولُ الحبشةَ لأن النَجاشيَّ المعاصرَ له كان عادلاً صالحاً، ولأن الحبشةَ كانتْ متجراً لقريشٍ فهم يَعْرِفونها ويَعْرِفون طُرُقَ الارتزاق فيها. أما لماذا اختارَ الرسولُ الحبشةَ فموجز في قولِ الرسولِ عليه السلام للذين نصحهم بالهِجرة: «لو خرجتم إلى أرضِ الحبشة، فإن فيها مَلِكاً لا يُظلَمُ أحدٌ عِندَه، حتى يجعلَ الله لكم فَرَجاً ومخرجاً مما أنتم فيه». ونحن نعلَمُ أنّ الحبشة كانت على المذهبِ اليعقوبي القائلِ بالطبيعةِ الواحدةِ في المسيح، والتي كان يُعَبَّرُ عنها بالأُقنوم الواحد أيضاً. ولعل هذا مما كان يجعَلُ المذهبَ المسيحي السائدَ يومذاك في الحبشة قريباً من التوحيد.

وكانتِ الهِجرةُ الأولى الى الحبشة في رَجَبَ من السَنة الخامسة للدعوة (الثامنة قبل الهجرة = ٦١٥ م). أما المهاجرون يومذاك فكانوا اثنيْ عَشَرَ رَجُلاً وأربعَ نِسْوةٍ. وفي العام التالي أسلمَ عُمَرُ بنُ الخطاب فاكتسبَ المسلمون شيئاً من القوة والمَنعة فعاد مهاجرو الحبشة إلى مكة. ولكن سَرْعانَ ما استأنفَ المكيون اضطهادَهم للمسلمين واضْطَرّوا الرسولَ الى اللجوء الى شِعْبِ أبي طالب (الى الحي الذي يسكُنُه). وخافَ الرسول على الضِعافِ من المَسلمين أن يُعَذّبوا أو يُفْتَنُوا عن دينهم فأمَرَهم بالهجرة الى الحبشة ثانية. وكان عدد المهاجرين في هذه المرة ثلاثةً وثمانين رجلاً وثماني عَشْرَةَ امرأةً.

غير ان المكيين لم يستطيعوا ان ينالوا محمداً بأذىً فحاولوا ان يَطالوا المسلمين المهاجرين إلى الحبشة فأرسلوا وفداً مؤلفاً من عمرو بن العاصِ وعبدِ الله ابن ابي ربيعةَ (والدِ عمرَ ابن ربيعة الشاعرِ) يطلُبون من النَجاشيِّ ان يُسَلِّمَهُمُ المسلمين المهاجرين اليه ؛ فلم يقبَلِ النَجاشيّ.

الصحيفة ونقضها

رأى المكيون ان يَحْبِسوا المسلمون فاضْطَرّوهم إلى ان يدخلوا في شِعْبِ ابي طالبٍ. وكتبَ المكيون بينَهم صحيفةً (معاهدة) على ألاّ يَبيعوا شيئاً للمسلمين ولا يشترونه منهم ولا يُزَوِّجوهم أو يتزوجوا منهم. وظل المسلمون في عُزْلتهم نحو سَنَتَيْنِ او ثلاثاً. ولكنّ نفراً من المكيين أدركوا أخيراً أنه لا يجوز ان يفعلوا ذلك بمحمدٍ واتباعه، وكلُّهم من اقاربهم، فعَمِلوا على نَقْضِ الصحيفة وخرج المسلمون من عُزْلتهم. وبعد نقض الصحيفة بدأ مهاجرو الحبشة يَرْجِعون الى مكة.

وفاة خديجة وابي طالب

تُوُفّيَتْ خديجةُ بنتُ خُويلدٍ زوجُ الرسول ثم تُوُفّيَ عَمُّه أبو طالبٍ بعدَها بشهرٍ واحدٍ (٣ ق.هـ. = ٦١٩ م)، فاشتد الأذى على المسلمين وعلى الرسولِ خاصة.

الدعوة في مواسم الحج

حاولَ الرسولُ أن ينشُرَ الدعوة الى الاسلام في أحياء العرب، خارِجَ مَكّةَ، فلَقِيَ أذىً شديداً في كُلِّ مكان. ثم ذهب إلى الطائفِ فكان ما لَقِيَه من أهلِها ثقيفٍ أشدَّ مما لقيه في كُلِّ مكانٍ آخرَ.

عندئذٍ عزم الرسول على أن يكتفِيَ بالتعرُّض للواردين على مكَّة في أيام المواسمِ. وقدِ اتفق أنّ الشاعر اليثربي سُويدَ بنَ الصامتِ الأوْسيَّ (وهو غير سويدِ بنِ الصامت بنِ حارثة بن عَديٍّ الخزرجي) قدم الى مكة فعرَضَ له الرسولُ ودعاه الى الإسلام فلم يُسْلِمْ ولكن لانَ قلبُه. وخاف الأوسُ مَيْلَ سويدٍ إلى الإسلامِ فقتلوه.

ثم وقعَ نزاعٌ بين الأوْسِ والخزرج، وهم قبيلتان في يثرب تتّصلان بالقُربى فانتصر الخزرجُ على الأوس. فجاء الأوسُ الى مكّة يطلُبُون

التحالف مع قريش على إخوانهم الخزرج فلم تجبهم قريش . وتعرض لهم الرسول بالدعوة فلم تنجح الدعوة فيهم . ولكن بعد أمد جاء نفر من الخزرج الى مكة فتصدى لهم الرسول بالدعوة فمالوا اليه وظنوا أنه قد يجمع بالإسلام بين الأوس والخزرج فدخلوا في الاسلام . وقد بايعت وفود من أهل يثرب الرسول مرتين عند العقبة : مرةً **على الإسلام ، ومرة على القتال** (٣ قبل الهجرة = ٦١٩ م) . وكذلك بايع الرسول وفد من نساء يثرب أيضاً . ثم فشا الإسلام في يثرب .

ولقد كان اليهود في يثرب مسيطرين على حياتها الاقتصادية فدفع اليثربيين ذلك الى ان يقووا بالاسلام لعلهم يتخلصون من هذا الاستعباد أيضاً.

(ب) الدور المدني :

الحرب والتشريع

الهجرة

وأخيراً أدرك المكيون أن أمر الإسلام يقوى قوة تهددهم في زعامتهم وتجارتهم ، وان رسول الله هو خصمهم الأول في ذلك فقرروا ان يقتلوه . فأخذ الرسول يوعز إلى أتباعه بأن يغادروا مكة سراً إلى المدينة ، ونفراً بعد نفر ، وأن يهاجر الضعاف أولاً . أما الهجرة سراً وتدريجاً فكانت الغاية منها ألا يكتشف المكيون أمرها وشيكاً فيفسدوا خطة الرسول فيها . وبما أن المكيين سيعلمون في آخر الأمر بالهجرة . حينما ينقص عدد المسلمين كثيراً ، فقد أمر الرسول بأن يهاجر الضعاف أولاً لأنهم أكثر تعرضاً للاضطهاد وأقل احتمالاً له .

ولما لم يبق في مكة من المسلمين سوى نفر قليلين هم محمد رسول الله وأسرته ، وعلي بن أبي طالب وأسرته ، وأبو بكر وأسرته ، عزم

الرسول نفسه على الخروج مع هؤلاء . الا أن المكيين عرفوا بسياسة الهجرة هذه وبيتوا أمرهم للإيقاع بالرسول ، فعزم الرسول على الخروج من مكة فوراً ومن غير أن يتبع الخطة التي كان قد اتفق عليها مع علي وابي بكر . وهكذا طلب الرسول من علي ان يبقى في بيته (بيت الرسول) — لكي تظل الحركة فيه فلايفطن المكيون إلى ان البيت قد خلا — ثم أرسل إلى أبي بكر يخبره بانه اتجه الى غار ثور (جنوب مكة) .

تبع ابو بكر الرسول الى غار ثور بعد ان عهد الى ابنه عبد الله بأن يأتيه في كل مساء بأخبار الناس وما يتكلمون فيه من شأن الرسول . وكذلك طلب أبو بكر من مولاه عامر بن فهيرة ان يرعى الغنم بين مكة وغار ثور حتى يمر بغنمه على آثار عبد الله فيعفيها لئلا يتبع المكيون آثاره إذا فطنوا الى ما يقوم به . وكان ابو بكر قد فاوض رجلاً من المشركين اسمه عبد الله بن ارقد ليكون دليلاً للقافلة الى يثرب من طريق تخفى على المكيين .

ولكن المكيين عرفوا بخروج الرسول من مكة ، فكان أول ما خطر لهم انه ذهب الى يثرب فاتجهوا شمالاً يبحثون عنه وقد وضعوا جعلاً قدره مائة جمل لمن يرجع به . ولما لم يجدوا الرسول على الطريق الشمالية الى يثرب وقع في نفوسهم ان يكون الرسول قد خالفهم إلى ضواحي مكة نفسها فرجعوا يطلبونه هنالك . وصل الى الرسول هذا الخبر فخرج من الغار مع ابي بكر برفقة عبد الله بن ابي بكر وبدلالة عبد الله بن ارقد متجهين كلهم غرباً نحو شاطىء البحر الأحمر . ثم سارت قافلتهم شمالاً في طريق غير مطروقة في العادة ، فلما حاذوا يثرب عكفوا إليها شرقاً ووصلوا إليها سالمين (في الثاني عشر من ربيع الأول = خريف عام ٦٢٢م).

أثر الهجرة

كان للهجرة قيمة خاصة في تاريخ الإسلام ، لقد كانت حداً

فاصلاً بين عهدٍ كان فيه الاسلامُ دعوةً دينية يحميها نفرٌ قليلون مُستضعَفون وبين عهدٍ أصبحَ الإسلام فيه دولةً قوية مَرهوبة . وفيما يلي بعض المشاكل التي بَرَزَتْ فذللها الرسول .

١ — مركزُ الرسولِ في يثربَ : كان كلُّ يثربيٍّ يَودّ ان يُنْزِلَ الرسولُ عنده تشرُّفاً ووجاهة . فخشي الرسول أن يؤديَ ذلك الى خلافٍ يستطير بين أهل يثربَ من جديد . لذلك قالَ لجميع من حوله لما دخل يثرب : « اتركوا الناقة فانها مأمورة تبركُ أمامَ المكانَ الذي اختاره الله » . وبركت الناقة أمام بيتِ ابي ايوبَ الانصاريّ ، وهو من بني النجّار ولكن ليس من الاغنياء الأقوياء .

٢ — اسم يثربَ : بدّل الرسولَ اسم يثربَ فجعلها مدينةَ الرسول ثم اختُصِرَ الاسمُ فأصبحَ « المدينة »[١] .

٣ — مشكلة السُكنى : كان المسلمون المهاجرون كثاراً ، وكانوا إما فقراء لا يملكون شيئاً أو أغنياء خلّفوا أموالَهم في مكة . من أجل ذلك « آخى الرسولُ بين المهاجرين والانصار[٢] » ، أي جعل كلَّ رجلٍ من المهاجرين أخاً لرجل من الأنصار يقاسمه سَكَنه وأموالَه ريثما يستطيع المهاجرون ان يجدوا عملاً وسكناً .

٤ — الهجرة رمز : وجعل الرسول الهجرة رمزاً للاسلام . لقد أوجب على كل من يدخُلُ في الاسلام ان « يهاجر » الى المدينة إما للسُكنى الدائمة (حتى يكثرَ المسلمون في مكان واحد) ، وإما للزيارة حتى يختبر بنفسه بعضَ المشاقَ التي عرفها المسلمون الأولون ، وحتى لا يُقيمَ على الظلم والاضطهاد إذا كان في بيئةٍ وثنية مثلِ مكة . ولما فُتحت مكةُ وقَوِيَ

(١) وقيل : كانت يثرب تعرف ، منذ الجاهلية ، باسم المدينة أيضاً .

(٢) المهاجرون : المسلمون من أهل مكة الذين انتقلوا إلى المدينة . الأنصار : المسلمون من أهل المدينة .

الإسلام وأمِنَ المسلمون على أنفسهم وأموالهم بَطَلَتْ قيمةُ هذا الرمزِ فقال الرسولُ : « لا هجرة بعد الفتح » . فبَطلتِ الهجرة .

٥ — الاسلام دولة : وفي المدينة أصبحَ الإسلام ديناً ودولةً معاً ، فبدأت قواعدُ الدولة الإسلامية بالرسوخ وأخذ الرسولُ يهتمّ بالأسسِ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقومَ عليها الدولة . وسيبرز في الوحي بعد ذلك ناحيتان : ناحيةُ الجهاد لتثبيتِ الإسلام وانشاء الدولة الجديدة ، وناحيةُ التشريع لإدارة هذه الدولة .

أعمام الرسول

يحسُنُ بنا هنا — وقد بلغ الإسلامُ حدّاً فاصلاً في التاريخ — ان نرى موقفَ أعمامِ الرسولِ من دعوته :

(ا) ابو طالب توفيَ قبل الهجرة . ومع أن هنالك خلافاً في اعتناق ابي طالب للإسلام وبقائه على الشرك فانه قد خَدَمَ الرسولَ خِدَماتٍ جليلةً بمالهِ وجاههِ وحنانه .

(ب) حمزةُ دخل في الإسلام قبل الهجرة في الأغلب .

(ج) العباسُ لم يدخلْ في الإسلام قبل الهجرة وان كان قد حَمى الرسولَ من الاضطهاد ورافقه في ذَهابه الى القبائل للدعوة . غيرَ انه كان في معركة بدر (٢هـ = ٦٢٤ م) مَع المشركين ، ولعله خرج معهم مستكرَهاً (برُغمه) .

(د) ابو لهبٍ لم يُسْلِم .

* * *

الدولة الاسلامية في المدينة

ما كاد الإسلام يستقرُّ في المدينة وينشيء دولةً حتى اعترضت سبيلَه

مشاكلُ لم يكن بدٌّ من تذليلها . من هذه المشاكل :

١ — يهودُ المدينة الذين خسِروا نفوذَهم بعد انتشار الإسلام ، فعمَدوا إلى مقاومة الإسلام جهراً .

٢ — اليهودُ في خارج المدينة (أهل خيبر وبنو النَّضير وبنو قَينُقاع وسواهم) ممن كانوا يؤلّبون المشركين على المسلمين .

٣ — المنافقون ، وهم الذين أسلموا ظاهراً أو جرّاً لمنافع دنيوية ثم ظلوا يتحيّنون الفرصَ للكيدِ للإسلام . وكان المنافقون أشدَّ ما يهدّدُ الاسلام في بيئته الجديدة .

٤ — المشركون من العربِ ومن أهلِ مكةَ خاصةً ، إذ كانوا خطراً جاثماً حول المدينة يُريدون الوثوبَ بالمسلمين حينما تسنحُ لهمُ الفرصةُ .

من أجل ذلك كله عمَدَ الرسولُ إلى اتخاذ موقفٍ صريحٍ من هؤلاء جميعهم ، فكان يَعْقِدُ المعاهداتِ مع اليهود خاصةً ومع بعضِ القبائل المُشركة من العرب انفسِهم . أما المنافقون في المدينة والضِعافُ من المسلمين فكان يتألّفهم بالأُعطيات ، اذ يَقسِم لهم جُزْءاً من الزكاة دفعاً لشر الأشرار منهم ، واستمالةً للنافرين ، وتشجيعاً لضعفاءِ القلوب على الثبات في الاسلام والوفاء للمسلمين . ثم ان الاسلام فَرَضَ الجهاد لمقاومةِ المشركين الذين كانوا يريدون بالمسلمين شراً .

٥ — أما المشكلة الكبرى فكانت تنظيمَ الدولة الجديدة فيما يتعلق بمرافقِ الحياة التالية :

الإدارة — القضاء — التعليم — الجباية — الدفاع والحرب — التنظيم الاجتماعي (الزواج ، الطلاق ، كفالة الأيتام ، الإرث ، الخ ..) — حلّ المشاكل المتبقية من الجاهلية (الثأر ، الرِبا ، الزواج الفاسد) — التهذيب الا جتماعي (مقاومة السُكر والقمار والفِسْق والخرافات) . لقد كانت السُوَرُ المدنية مملوءةً بوجوهِ التشريع لجميع مرافق الحياة ، مما يُعَدّ

اليوم — حتى بعدَ مرور الف وأربعمائة سنةٍ أو تَقِلُّ قليلاً — في أرقى أبواب التشريع . إن الإسلام لم يأتِ بالاَصلاحِ دُفعة واحدةً ، إذ أدركَ أن ذلك مستحيل ، بل جاء به على مراحلَ : كلما ألِفَ المسلمون مرحلةً ارتقى بهم إلى مرحلة أشقَّ قليلاً ، كما اتّفق في فرض الصلوات وفي تحريم الخمر مثلاً .

من الأحداث البارزة في الدور المدني

لما هاجر المسلمون من مكةَ الى المدينة أصبحَ الإسلامُ ديناً ودوله بعد أن كان ديناً فقط ، وأصبح اكثر إرهاباً للمكيين الذين جعلوا منذ ذلك الحين يُعدّون العُدّة لمقاومته بالقوة . من أجل ذلك جعل الرسول يُعِدُّ المسلمين للجهادِ بالتّربية الخُلُقية والنفسية ، فقد صلى بهم عامين كاملين — يركعون بركوعه ويسجُدون بسجوده ويقومون بقيامه — قبل ان يخوض بهم معركةَ بَدْرٍ[1] ، وفيما يلي عددٌ من تلك المعارك التي كان لها أثرٌ بالغٌ في تاريخ الدعوة الإسلامية (وقد كانت المعركة التي يحضُرها الرسولُ تسمى غزوةً ؛ أما المعركة التي لم يحضُرها فقد كانت تسمى سَرِيّة) :

— غزوة بدر (في رمضان من السنة الثانية للهجرة) :

بَدْرٌ بِئرٌ على نحو مائة وخمسين كيلومتراً من المدينةَ جَنوباً في غرب ، وعلى نحو عشرين كيلومتراً من ساحلِ البحر الأحمر . وكانت بدر على الطريق الممتدّة بين الشام واليمن ، كما كان حولها طُرُقٌ فرعية تربطُها بالمدينة وبطريق مكة .

كان المسلمون والمكيون في حالةِ حربٍ منذ الهجرة وقد كانت بينهم

(١) ليس معنى ذلك أن الصلاة كانت تمهيداً للمعركة ، بل معناه أن الصلاة كانت (بما فيها من التنظيم والطاعة والاقتداء والمغزى الروحي) عاملا من العوامل التي تساعد على الظفر في كل عمل .

معاركُ صغيرةٌ قبل غزوة بدر . ولذلك كانت هذه المعركة الكبرى منتظرةً يُعِدُّ لها الفريقان عُدَّتَهما . وبلغ الرسولَ أن قافلة للمكيين راجعةٌ من الشام فعزمَ على اعتراضِها عند بدر ، فخرج في ثلاثمائةٍ أو يزيدون قليلاً بعد أن احتاط لكتمان خروجه باتّباع طريقٍ فرعية وبنزع الجلاجل (الأجراس) من رقابِ الابل وبإرسال العيون لاستطلاع أخبارِ المكيين . ولم يكُنِ المكيون غافلين عن مقاصدِ الرسولِ ، ولذلك كان عددُهم في تلك القافلة نحوُ ألفِ رجلٍ مما يزيد على حاجة القافلة الى الرجال في الأحوال العادية زيادةً كبيرة .

وجاء في تاريخ الطبري ، في شأن ترتيب معركة بدرٍ ، أن الرسولَ لمّا وصل الى مكانِ المعركة نزل أدنى من الماء ونصب خيمتهُ في مقدّمة الجيش . فقام اليه الحُباب بن المنذر بن الجَموح وقال له : « يا رسولَ الله ، أهذا المنزِلُ الذي نزلتَه شيءٌ أوْحى به اللهُ إليك أم هو شيءٌ من عندك ومن رأيك » ؟ فقال الرسول : « هو شيءٌ من عندي » . فقال الحباب عندئذ : « الرأي أن ننزلَ أعلى من الماء فنأخُذَ منه كفايتَنا ثم نغوِّرَه ، فإذا جاء المشركون لم يجدوا ماء ، فنشربُ ولا يشربون . ثم يحسُنُ أن تؤخِّرَ خيمتك فتكونَ في مأمنٍ من العدوّ ونتعرَّضَ له نحن دونَك » . فقال الرسولُ للحباب بن المنذر : « لقد أشرتَ بالرأي » . ثم قال لأصحابه : « افعلوا ما قال أخوكم ! »

ويبدو أن الرسولَ قد أدرك أن اللقاء في معركةٍ مكشوفةٍ ، معَ قِلّة عدد المسلمين وكثْرة عدد المكيين ، غيرُ محمود العاقبة . فأمر الرسول جماعات من المسلمين بالهجوم على الإبل المحمّلةِ لكي يهتمّ كلُّ تاجرٍ بالدفاع عن تجارته فيقعَ الاضطرابُ في المكيين وتختلَّ صفوفهُم ويستحيلَ عليهم حينئذٍ ان ينتظموا في معركةٍ يستطيعون ان يتغلبوا فيها على المسلمين أو أن

يدافعوا فيها عن أنفسهم[١] . وهكذا روَتْ لنا المصادرُ أنه لم يُستَشهد من المسلمين سوى أربعةَ عشرَ رجلاً بينما قَتَل المسلمون من المكيين نحوَ سبعينَ وأسروا منهم نحو سبعين آخرين . قد يكون في عدد القتلى من المسلمين شيءٌ من التقليل وفي عدد القتلى والأسرى من المكيين شيء من المبالغة . ولكن هذه المعركة كانت نصراً حاسماً للمسلمين دلّتْ على أن الإسلام كان قد أصبح قوةً عسكرية عظيمة . ثم إنّ الرسولَ وضع قوانينَ دوليةً للحرب فعامل الأسرى معاملة رحيمة ووعد باطلاق سَراح كلِّ أسيرٍ يفتدي نفسه بالمال أو يعلّم عشْرَةً من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

اليهود ينقضون العهد

كان رسول الله قد وادَعَ يهود المدينة على ألاّ يُعينوا عليه أحداً ، وعلى أنه إذا دهَمه عدوّ نصروه عليه . ولقد وَفى اليهودُ في أوّل الأمر بذلك لاعتقادهم أن الاسلام حركة ضعيفة لن تثبُتَ أمامَ قريشٍ . ولكنْ لما انتصر المسلمون في غزوةِ بدرٍ تجلّتْ لهم الحقيقةُ فأظهروا البَغْيَ والحسد وجعلوا يمالئون قريشاً ، فكان ذلك نَقْضاً للعهد الذي كان بينَهم وبين الرسول . على أثرِ ذلك نزل قوله تعالى : « وإمّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبِذْ إليهم على سواءٍ (افعل كما فعلوا ، انقضِ عهدهم) ، إنّ الله لا يحبُّ الخائنين (٨ : ٥٨) » . وكان بنو قينُقاع أول من أظهر نَقْضَ العهد فسار إليهمُ الرسول في أواخرِ سنة ٢هـ ، بعد معركة بدرٍ ، فحاصرهم خمْسَ عشْرَةَ ليلةً ثم أجْلاهم عن المدينة وصادرَ أموالَهم وسلاحهم . ولم يكن لهم أرضون .

---

(١) في سورة الأنفال (٨ : ٦) : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون (بفتح الواو) أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... »
– تفسير الآية : إحدى الطائفتين : العير (البضائع المحملة على الابل ، أي الغنائم) أو النفير (الجيش المحارب ، أي الظفر العسكري) . كنتم أنتم تفضلون الغنائم المادية . ولقد كانت النتيجة ان الله أظفركم بالطائفتين : انتصرتم انتصاراً عسكرياً باهراً وغنمتم الغنائم المادية ايضاً .

— غزوة أُحُد

في شوّالِ من السنة الثالثة للهجرة (٦٢٥ م):

«أُحُدٌ» جبلٌ على أربع كيلومترات شَمالَ المدينة.

لم ينَمِ المكيون على هزيمتهم في بدر، بل نَشِطوا فجَمعوا نحوَ نِصْفِ مليونِ درهمٍ افتدَوا معظم أسْراهم بقسمٍ منها (بمعدل ٤٠٠٠ درهم لكل أسير) ثم وقفوا الباقيَ على الاستعداد لمعركة مقبلة. ولم يكتفِ المكيون بتجييش مُواطنيهم بلِ استنفروا القبائلَ أيضاً وجاءوا بَغْتَةً، فيما يبدو، بنحوِ ثلاثة آلافِ رجلٍ بقيادة ابي سفيان واختاروا جبلَ أُحُد معسكراً يُطِلّون منه على المدينة. وقد كان خالدُ بنُ الوليدِ يقودُ قسماً من خيل المكيين.

وبوغِتَ المسلمون بزحفِ المكيين ووصولهم إلى أُحُد فلم يستطيعوا ان يجمعوا اكثر من سَبْعِمائةِ رجلٍ لردِّهم. ورأى الرسول ان يستعيضَ عنِ العدد بترتيبٍ منظَّمٍ للمعركة. والظاهرُ أن المسلمين لم يستطيعوا أن يتّخذوا مراكزهم على جبلِ أُحُد نفسه فأقاموا صفوفهم عند سَفْحه الشرقي وسَفْحه الشَمالي الشرقي ثم أمرَ الرسولُ خمسينَ رجُلاً من الرُماة بأن يقفوا على عينَيْن[1] وجعل معَهم نفراً قليلين من الفرسان بقيادة الزُبير بن العوّام؛ ثم أمرَ الجميعَ بأنْ يلزَموا أماكنهم هذه وألاّ يغادروها مهما حدث، ما لم يتلقَّوْا أمراً منه بذلك.

وبدأتِ المعركة بهجومِ المكيين، إذِ انحدروا على المسلمين (متجهين من الغرب الى الشرق). غير أن المسلمين الذين كانوا يحتلّون مراكزَ أضعفَ من مراكز المكيين — ولكنهم كانوا أعْرَفَ بها مِنْهُمْ — استطاعوا ان يَهْزِموا طلائعَ المشركين في بِضْعِ ساعاتٍ. ثم إن خالدَ بنَ الوليد هجَمَ

(١) عينين (بفتح العين أو بكسرها ثم بفتح النون الاولى وكسر الثانية). جبل (او هو في الحقيقة تل) قرب جبل أحد.

على المسلمين بخيله من الجَنوب حتى يخفِّفَ الضَغْطَ الذي كان على المكيين. واستطاعَ الرُماةُ المسلمون الذين كانوا على تل عَيْنَيْنِ ان يَردوا خيلَ خالد في أولِ الأمر.

في هذه الأثناء كانَ مُعْظَمُ الجيش الإسلامي العاملِ في الميدان قد أخذَ بجمع الأسلاب. ورأى الرُماةُ الواقفون على تل عينين ذلك وظنوا أن المعركة قدِ انتهتْ، ثم خافوا على نصيبهم من الأسلاب فتركوا مراكزَهم وانحدروا إلى السهل. عندئذ انتهزَ خالدُ بن الوليد فيهِمُ الفُرصةَ وكَرَّ على المسلمين الذين أُخِذوا على حَيْنِ غِرَّة فتركوا كلُّهم جمعَ الأسلاب وانقلبوا يقاتلون خيلَ خالد. وأحسَّ المُشاةُ المكيون أن الضغط عليهم قد خفّ، ولمحوا المسلمين يدافعون جيشَ خالد عنهم، فكرّوا هُمْ أيضاً راجعين الى الميدان. وهكذا أطبقَ المكيون على المسلمين من الغرب ومن الجَنوب، وكانوا يزيدون على المسلمين أربعةَ أضعافٍ ونِصْفَ ضِعْفٍ، فأثخنوا فيهِمُ الجراحَ. وقد قُتِلَ في هذه المعركةِ من المسلمين سَبْعونَ رجُلاً فيهم حَمْزَةُ عمُّ الرسول، وجُرِحَ كثيرون فيهِمِ الرسولُ نفسُه. ولم يُقتَلْ من المكيين سوى ثلاثةٍ وعشرين رجلاً.

في هذهِ الأثناء كانَ الرسولُ قدْ أيقنَ بالدَوْرِ الخطر الذي كان اليهودُ يقومون به في المدينة لِحساب المكيين فغزا بني قَيْنُقاعٍ، في السَنة الثانية بعد بدرٍ؛ كما كان مقتَلُ كعبِ بنِ الأشرف وأبي رافعٍ اليهوديين، في السَنة الثالثة للهجرة، قبلَ غَزْوَةِ أُحُد. وفي السَنة الرابعة للهجرة أجلى الرسولُ بني النَضير عن المدينة. غير ان هذا كلّه لم يمنعْ من ان يكونَ للرسولِ عيونٌ في مكة يبلّغونه ما يَحيكُهُ المكيّون له من المكائد.

— غزوة الخندق

(شوّال من السنة الخامسة للهجرة = آذار ٦٢٦ م):

انسحب المكيون من أُحُدٍ وهم يُضْمِرون في أنفسهم أن يعودوا الى

المدينة بقوًى أكثرَ عدداً وعُدّة . ومَضى المكيون في المُـدُن والبوادي يُؤلّبون القبائل على المسلمين ، وقد ساعدهم اليهود في هذه المرة بأموالهم علانية . ولم يُباغَت المسلمون هذه المرة بهجوم المكيين فلقد علموا به في أثناء تهيئته . وأدرك الرسول أنْ لا قِبَلَ لأهل المدينة بمقاتلة المشركين هذه المرة في معركة مكشوفة لأنه علم بأن عددهم سيكون عظيماً جداً . لذلك قرّ الرأيُ على حفرِ خندقٍ حول النقاط الضيقة من المدينة لمقاتلة المشركين من ورائه . والمعروفُ من معظم المصادر أن سَلمانَ الفارسيَّ هو الذي أشارَ على الرسول بحفر الخندق .

وخطّ الرسولُ الخندقَ متعرجاً ، حتى يمر بعدد من التلال ومن الفَجَوات ، ثم جعلَ طولَه نحوَ عَشْرةِ كيلومترات . وكان الخندق يَحْمي المدينة من الشمال والشرق . وقد عَمِلَ في حفر هذا الخندق ثلاثةُ آلافِ رجلٍ ، كان كلُّ عَشْرةٍ منهم يَحْفِرون في نقطة . وقد بدأ الحفر في النقاط المختلفة في وقت واحد . واستغرق حفرُ الخندق نحوعشرينَ يوماً . ولَقَدْ أشرفَ الرسولُ على حفر الخندق إشرافاً تاماً ، وكان أحياناً يساعدُ في الحفر وفي نقل التراب .

وعسكَرَ المسلمون على جبل سَلْع ، وهو يُطِلُّ على ما وراء الخندق من الجهتين الشمالية والشرقية . أما المكيون فكانوا بعيدين عن مراكزِ تموينهم في مكة ، فسرعانَ ما أصبحوا يَشْكون نقصاً في المُؤَن . وحاولَ اليهودُ ان يُموّنوا المشركين من خَيْبَرَ فوقعتْ مقاديرُ من مؤنهم في أيدي المسلمين . وكان أحلافُ المكيين مرتزقةً جاءوا لحصار المدينة بعد أن وَعَدَهُم المكيونَ بمبالغَ معينة . فلما طال الحِصارُ سَئِموا المُقامَ . وفاوض المسلمون نفراً من رُؤساء القبائلِ للانسحاب لقاءَ مقاديرَ من غِلالِ المدينة ، ولكننا لا نعلم ما تمّ بهذا الشأن . ثم اتّفق انْ ثارتْ ريحٌ شديدة ، باردةٌ في الأغلب ، فقلبت خيام المحاصرين فجمعوا خيامهم وانصرفوا . وقد عُرِفَتْ هذه الغزوةُ باسمِ غزوة الأحزاب أيضاً لأنّ جميعَ الأحزاب في

الحِجاز ونجدٍ ، من الوثنيين واليَهود ، قد اشتركوا فيها .

كان لارتداد الأحزاب عن المدينة معنًى كبيرٌ هو أنّ الاسلامَ كان في ذلك الحين قد أصبحَ أقوى من جميعِ خصومه مُتَظاهرين[١] . من أجل ذلك صِرْنا نرى المكيين يتقرّبون مـن الرسولِ لإحلالِ السلام بينَ مكةَ والمدينةِ ما أمكن .

وبعد الخندق مُباشرةً غزا الرسولُ بني قُرَيظةَ اليهودَ . وكذلك أسلَمَ عمرُو بن العاصِ وخالدُ بنُ الوليدِ في هذه الفترة ، بعدَ الخندقِ وقبلَ الحُدَيْبِيَة .

— صلح الحُدَيْبِيَةِ[٢]

(آخر ٦ هـ = ربيع عام ٦٢٨ ، والحديبية بئر على مقربة من مكة)

خرج الرسول في سَبْعِمائَةِ رجلٍ (وقيل ١٤٠٠) يريدُ الحجَّ لا القتال ، ولكنّ المكيين عزَموا على أن يمنعوه من دخولِ مكةَ بكلِّ سبيل . ويبدو أن المكيين جمعوا لصَدّه عدداً كبيراً من المقاتلين . فآثرَ الرسولُ أن يترك دخول مكة في ذلك العام وأن يعقُدَ بينَه وبين المكيين هِدْنةً مداها عَشْرُ سنينَ . وقد احتج على عقد هذه الهدنة نفرٌ من المسلمين فيهم أبو بكرٍ وعُمَرُ . ولكنّ الرسولَ اقْنَعَهُم بصوابِ عقد الهدنة في ذلك الحين ، مَعَ أن بعضَ الشروط لم تكن في مصلحة المسلمين .

وقد بدأت وثيقةُ الهدنة بأنها اتفاقٌ بين « محمدِ بنِ عبدِ الله » وبين « سُهيلِ بن عمرٍو . (مُمَثِّلِ المكيين) » . وجاء فيها :

آ — يُتْرَكُ الخيارُ للناس ، في أثناء هذه الهِدنةِ ، في أن ينضموا الى المكيين أو الى المسلمين .

(١) مجتمعين يظاهر (يساعد) بعضهم بعضاً .

(٢) بالتصغير وبكسر الباء (بنقطة واحدة)وفتح الياء (بنقطتين من تحتها) . وقد تشدد الياء.

ب — من كان من المشركين قاصراً أو رقيقاً وأسلمَ ، في أثناء هذه الهدنة ، فانه يُرَدّ الى قُريشٍ . وأما من كان من قريشٍ مُسلماً وأراد أن يعودَ الى قريش فانه لا يُرَدّ الى المسلمين .

ج — للرسول أن يَرْجِعَ بعد عامٍ الى مكّة فيدخلَها حاجّاً في نفرٍ من أصحابه ويمكُثَ فيها ثلاثَ ليالٍ فقط ، ولا يكونُ حينئذٍ معَ المسلمين إلا سلاحُ المسافر ؛ واذا كان معَ أحدهم سَيْفٌ فيجب أن يَظلّ ذلك السيفُ مُغْمَداً .

ويبدو أن جماعة من المسلمين ظلّوا يرَوْنَ أن الفُرصةَ كانتْ سانحةً في المشركين من أهل مكة وأن هذه الهدنة سلَبَتْهم تلك الفرصة . من أجل ذلك نَزَلَتْ سورة الفتح (السورة ٤٨) عندَ الانصراف من الحُدَيْبِيَة ، وفيها تقريعٌ للظانّينَ بالله ظَنّ السَّوْءِ (٤٨ : ٥) وتبريرٌ لعمل الرسول ، لأنّ الرسولَ كان يأمَلُ — فيما يبدو — أن يخرُجَ معه في تلك الغزوة عددٌ كبيرٌ من المسلمين فتخلّفَ أكثرُهم : « قُلْ للمُخَلَّفينَ مِنَ الأعراب ستُدْعَوْنَ الى قوم أولي بأسٍ شديد تُقاتلونهم أو يُسْلمون . فان تُطيعوا يُؤْتكمُ اللهُ أجراً حَسَناً ، وإنْ تَتَوَلَّوْا كما تَوَلَّيْتُمْ من قبلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً » (٤٨ : ١٦) . ثم تذكر هذه السورةُ ما يُدْخِلُ الاطمئنانَ على قلوب المسلمين وتَعِدُ المسلمين بفتح مكة صُلحاً في وقتٍ قريب .

— سَريةُ مُؤتةَ

(جُمادَى الأُولى سَنة ٨ هـ = أيلول ٦٢٩) :

بعثَ الرسولُ هذه السَريّةَ الى الشام وجعلَ عليها ثلاثةً قادةً : زيدَ ابن حارثةَ ، فإن قُتِلَ فجعفرَ ابن أبي طالب ، فإنْ قُتل فعبدَ الله بن أبي رَواحةَ . وكان في هذه السَريّة ثلاثةُ آلاف رجلٍ من المسلمين . فلما وَصلوا الى مؤتة ، قُرْبَ مَعانَ ، لَقيَتْهُمْ جموعٌ غفيرةٌ من الروم ومن العرب الذين كانوا تحت سلطان الروم . وقد ذكر ابنُ هشامٍ في « السيرة »

ان جموعَ الروم وأشياعهم كانت يومذاك مائتَيْ ألفِ رجلٍ . وتردّدَ المسلمون في أول الأمر في مُلاقاة الروم ثمّ شَجُعوا وخاضوا المعركة ، فقُتِلَ زيدُ بنُ حارثة ثم جعفرُ ثم عبدُ الله بن ابي رواحة . ويبدو أن القتلَ استحرَ في المسلمين (معَ أن ابن هشام سَمى قتلى مؤتة فكانوا عنده اثْنَيْ عَشَرَ رجلاً) ، فأخذَ خالدُ بن الوليد القيادة ونجا بالمسلمين .

ولا ريبَ في أن معركةَ مؤتةَ كانتْ هزيمةً شديدةً للمسلمين ، ولكنها دلّتْ على أن الرسولَ كان يُفكِّرُ ، منذُ زمنٍ متقدمٍ ، بأن يفتحَ الشامَ وما وراءها لنَشْرِ الإسلام في خارج شبه جزيرة العرب أيضاً .

— فتح مكة

(رمضان سنة ٨ هـ = كانون الثاني ٦٣٠) :

لما عقدَ الرسولُ صُلْحَ الحُدَيبية معَ المكيين اختار بنو بكرٍ أن يُدخلوا في عهد قريش ، واختارتْ قبيلةُ خُزاعة أن تدخُل في عهد رسول الله . وقد اتفقَ نزاعٌ بين بني بكرٍ وبني خُزاعة اعتدى فيها بنو الديل من بني بكرٍ على بني خزاعة عند الوَتير (وهو ماء بأسفل مكةَ) . وقاتلَ مع بني الديل جماعةٌ من قريش . وبلغ الخبرُ الى رسول الله فغَضِبَ وعدَّ الهدنة التي بينَه وبين المكيين منقوضةً بما نَقَضوا هم من العهد وغَدَروا . وأدْرك أبو سفيان مَغَبّةَ ما صَنَعَ المكيون فجاء الى المدينة مُعْتَذِراً عمّا حدث ، فلم يقبَلْ رسولُ الله ان يستقبله ولا رَضِيَ أحدٌ من المسلمين أن يشفَعَ له عند رسول الله حتى ابنتُه أمُّ حَبيبةَ[1] ، وكانتْ قد أسْلَمَتْ وتزوّجها الرسولُ .

ثم ان الرسولَ أمر الناسَ في المدينة بالتهيؤ وأنفذَ الى القبائل النازلة بين المدينة ومكة أن تكونَ متأهبةً للانضمام إليه حينما يمرُّ بها ، كَسْباً

(١) أم حبيبة بنت أبي سفيان .

للوقت . وخرجَ الرسولُ من المدينة في العاشر من رَمَضانَ (الرابع من كانونَ الثاني) ، فما بلَغَ مكةَ إلا وقد أصبحَ جيش المسلمين عَشْرةَ آلاف مقاتلٍ . وكان الرسولُ قد أمر كلَّ مقاتلٍ ان يُشْعِلَ ناراً إذا نزل الليلُ حتى يُبْهَرَ المكيّون بذلك فيَظُنّوا أن عددَ المسلمين أكبرَ مما هو فعلاً فتنقطعَ قلوبُهم . ثم اتفق أيضاً ما بَلْبَلَ أمرَ المكيين ، وذلك أنّ أبا سفيان زعيمَ مكةَ كان يتجوّلُ حولَ مكةَ فعرَفه عَسَسُ المسلمين وأخذوه أسيراً ، ثم لم يُطْلِقوا سَراحه إلاّ في اليوم التالي . وهكذا قضى المكيون الليلَ من غير ان يُقرّوا أمراً لغياب أبي سفيان .

وأدرك المكيون ، كما أدركَ أبو سفيانَ نفسهُ أيضاً ، أنْ لا قِبَلَ لهم بمقاومة المسلمين ، ولكنهم لم يكونوا قد أجْمعوا على أمرٍ بَعْـدُ . وعرَف الرسولُ حالَ القوم فأرسلَ عمَّه العباسَ الى أبي سفيانَ وأوْصاه بأن يُفاوِضَ ابا سفيان وان يرفعَ من شأنه في ذلك بأن ينادى في مكةَ ، إذا بدأتْ جيوشُ المسلمين تدخلها : « من دَخلَ بيتَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمنٌ ، ومن دَخلَ المَسْجِدَ فهو آمن » . وجاء العباسُ إلى ابي سُفيانَ واقْنَعَه بالذّهاب الى رسولِ الله . فجاء أبو سفيان الى الرسولِ وأسلَمَ بين يَدَيْه . ثم إنّ الرسولَ وَقَفَ مَعَ ابي سفيانَ والعباسِ ونفرٍ من اصحابه على شَرَفٍ من الأرض وجَعَلَتْ جيوشُ المسلمين تمرُّ بهم قبيلةٌ قبيلة ؛ فهال أبا سفيانَ ما رأى واقنع المكيين بترك المقاومة ، على كُرْهٍ منهم . ولما دَخلَ الرسولُ الى مكة (في ٢٠ رمضان) جاء الى الكعبة فَطَمَسَ الصُوَرَ التي في داخلها ونَكَسَ الأصنامَ التي على ظَهْرِها . وبفَتْحِ مكةَ انتهتِ المقاومةُ المركزيةُ في شِبْهِ جزيرة العرب ، وتُركتِ القبائلُ التي لم تكن قد دَخلَت بعدُ في الاسلام تُدَبِّرُ أمرَها بنفسِها .

– غزوة حُنين

(٨ هـ = ٦٣٠ م) بعد فتح مكة :

اجتمع عددٌ من قبائل العرب ممّن لم يكونوا قد دخلوا في الاسلام ، من هَوازنَ وثَقيفٍ وجُشَمٍ ونَصْرٍ وسعدِ بنِ بكرٍ وبني هِـلال ، وعزَموا على أن يَسيروا لحرب المسلمين . وبلغ رسولَ الله ذلك — وكان لا يزال في مكة — فأحبّ ان يهاجمَهم قبلَ ان يهاجموه . فجمع ألفينِ من أهلِ مكة وضمّهم الى العشرة آلافاً الذين كانوا قد خرَجوا معه من المدينة لفتح مكة ، ثم اتّجهَ بِهِم جميعاً نحوَ مكان يدعى حُنيناً شرقَ مكةَ ، وهو يبعد عنها مسافة تتراوح — حسب تقدير الدارسين لموقع المعركة — بين ٢٥ و ٦٥ كيلومتراً . فلما وَصَلَ المسلمون الى وادي حُنينٍ (وهو من أودية تِهامةَ) خرَجَ عَلَيْهمُ المشركونُ من كَمينٍ هنالك فانهزم المسلمون لا يَلْوُون على شيء . ولم يثبُتْ مَعَ الرسولِ إلاّ جماعةٌ من المهاجرين والأنصارِ فيهم أبو بكرٍ وعُمَرُ وعليٌّ والعباسُ ، لم يزيدوا كلُّهم على مائة ، كما ذكَر ابنُ هشامٍ . ولكنّ المعركة انتهت ، على كل حال ، بانتصار المسلمين .

– غزوة الطائف (بعد حنين) :

كان بنو ثقيف قد آذوْا رسولَ الله كثيراً ، ثم إنّهُمُ انضموا كلُّهم الى المشركين يومَ حُنَينٍ . فأرادَ الرسولُ ان يَخْضُدَ شَوْكَتَهُمْ فهاجم الطائف بعد حنينٍ مباشرةً وحاصرَها نحو شهرٍ ونَصَبَ عليها المَنْجَنيق حتى هَدَمَ سُورَها ودخلها ظافراً .

– غزوة تَبوكَ :

وفي رَجَبَ من سنة ٩ للهجرة (تشرين الأول ٦٣٠ م) أرادَ الرسولُ ان يسيرَ بنفسِه الى حرب الروم . وبما ان ذلك العامَ كان عاماً مُجْدِباً لم

يستطعْ كلُّ مُسْلِمٍ ان يُجَهِّزَ نفسَه بما يحتاج اليه من الطعام والسلاح ، سُمِّيَتْ هذه الغزوةُ « غزوةَ العُسْرة » . من أجل ذلك قام بنَفَقاتِ هذه الغزوةِ نفرٌ من الصحابة : تبرَّعَ أبو بكرٍ بجميعِ ما يَمْلِكُ ؛ وتبرَّع عثمانُ ابنُ عفانَ الأمويّ بمالٍ عظيمٍ بلَغَ ثلاثمائةَ بعيرٍ والفَ دينارٍ . ولكنّ الروم لم يتعرّضوا للرسولِ ، فعَقَدَ الرسول مُعاهداتٍ مَعَ البلدان المتاخمة للحجاز كأيْلة (العقبة) وأذْرُح وجرْباء ومَقْنا ، وفرض على كل بلدةٍ جِزْيةً مُعَيَنةً ، مَعَ العلم بأن هذه البلاد كانتْ خاضعةً لنفوذ الروم .

عام الوفود

انتصرَ الإسلامُ في شِبهِ جزيرة العرب ، ولم يَبْقَ فيها سوى قبائلَ متفرقةٍ لم تدخُلْ في دينِ الله . فلما رأى رجالُ هذه القبائل ان مكةَ التي نَصَبَتِ الحربَ لرسولِ الله قد دَخَلَتْ في الاسلام ثم فتَحَتْ أبوابَهـــا للمسلمين ، أدْركوا أنْ لا طاقةَ لهم بحرب المسلمين وعداوتهم ، فأخذوا مُنْذْ السَنَة التاسعة للهِجرة (٦٣٠ — ٦٣١ م) يَفِدون على الرسولِ في المدينة إظهاراً لطاعَتِهِم ، ثم يدخُلون في الاسلام . وهكذا دَخَلَ العرب — الذين لم يكونوا قد دخلوا بعدُ في الاسلام — في دينِ الله افواجاً . فأسلم بنو ثقيفٍ (في الطائف) وبنو أسدٍ (في نجد) وبنو تميمٍ . ثم تتالتْ وفودُ اليمنِ وما حولَها بعد ذلك (سنة ١٠ ه) .

حجة الوَداع

اطمأنّ الرسولُ الآنَ على الإسلامِ بعد ان ثَبَتَتْ قواعدُه في شِبه جزيرةِ العرب وتنظمت أُسُسه ، ثم استغنى المسلمــون عن الحرب لنشر الإسلامِ في شبه جزيرة العرب نفسِها . ففي آخرِ ذي القَعدة من سنة ١٠ للهِجرة (آذار ٦٣٢ م) دعا الرسولُ الى حَجٍّ كبير الى مكة ، وخطب هناك بعد انتهاء موسم الحج خُطبتَه المشهورة :

« أيها الناسُ ، أسْمَعوا قَوْلي فإني ، لا أدْري ، لعلّي لا ألْقاكم بعدَ

عامي هذا بهذا الموقف . أيُّها الناسُ ، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حَرامٌ إلى أن تَلْقَوْا رَبَّكم كحُرْمةِ يومِكُمْ هذا وكحُرمة شَهْرِكُم هذا . وانكم ستَلْقَوْنَ رَبَّكُم فيسألُكم عن أعمالكم ، وقد بَلّغْتُ . فمن كانتْ عندَه أمانةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَنِ ائتمنَه عليها . وإنَّ كُلَّ رِباً مَوضوع (مُلْغىً) ؛ ولكنْ لكم رُؤوسُ أموالِكم لا تَظْلمون ولا تُظلَمون . قضى الله ان لا رِبَا ؛ وإنّ رِبا العباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ موضوعٌ كلُّه . وإنّ كُلَّ دمٍ (ثأر) كان في الجاهلية موضوعٌ ..

أما بعدُ ، أيُّها الناسُ ، فإنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ من أنْ يُعْبَــدَ بأرْضِكُم هذه أبداً ، ولكنه إنْ يُطَعْ فيما سوى ذلك ، فقد رَضِيَ ...

أما بعدُ ، أيُّها الناسُ ، فإنّ لكم على نسائِكم حقّاً ولهنّ عليكم حقاً... فاستَوْصوا بالنساء خيراً... فاعْقِلوا ، أيُّها الناسُ ، قولي فإني قد بَلّغتُ .

وقد تَرَكْتُ فيكم ما إنِ اعْتَصَمْتم به فلن تَضِلّوا ابداً : كتابَ اللهَ وسُنّةَ نَبِيِّه .

أيُّها الناسُ ، كُلُّ مُسلمٍ أخٌ للمسلم ، وإن المسلمين إخْوَةٌ فلا يَحِلُّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طِيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلُمنّ أنفسَكم ، اللّهم هل بَلّغتُ (فقالَ الناسُ : نَعَمْ ! فقال عِنْدَها رسولُ الله :) اللهم ، أشْهَدْ ! » .

* * *

وقد عُرِفَتْ هذه الحجة باسم « حِجة الوَداع » لأنها آخرُ حِجّةٍ حَجّها الرسولُ ، وسُمِّيَتْ هذه الخُطبة « خطبةَ الوداع » أيضاً .

وفي آخر صَفَرَ من سنة ١١ ه (آخرِ أيّار ٦٣٢ م) مَرِضَ الرسولُ وأخذته الحُمّى ، ثم تُوُفِّيَ يومَ الاثنينِ في الثاني عَشَرَ من ربيعٍ الأوّلِ من سَنَة ١١ للهِجرة . (٨/٦/٦٣٢ م) .

---

(١) العباس بن عبد المطلب : عم الرسول .

الإسلام

عقيدةٌ ونظامٌ اجتماعيّ

يختلفُ الإسلامُ مِنْ غيرِه مِنَ الأديانِ في أمرينِ :

(أ) أمّا الأمرُ الأوّل فهُوَ أنّه دينٌ تَقِلُّ فيه الجوانبُ الغَيْبيَّة الى أبعدِ حدٍّ ثمّ تَكثُرُ فيه الجوانبُ الاجتماعية الى أبعد حدٍّ أيضاً . في الاسلام إيمانَ بالله وبالملائكة وباليوم الآخِرِ ، ولكنّ الإسلامَ ترك هذه المدارك مُطْلَقَةً مُجَرَّدة ولم يُمَثِّلْهــا بصُوَرِ البشرِ ولا قَبِــلَ أن تُنْسَبَ إليها صفاتٌ بشريّةٌ ماديّة ، بل « حرّم » ذلك كلَّه . ويكفي في هذا المَقام أن نَسْتَشْهِدَ بما جاء في القُرآنِ الكريم عن الله سُبحانَه وتَعالى في هذا الشأن : « لَيْسَ كَمِثْلِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السمواتِ » .
وبما أنّ الأديانَ جاءتْ لخيرِ البشر ، فإنّ الإسلامَ قد حرَصَ علَى أن يكونَ لكلِّ ما جاء في الاسلامِ جانبٌ من النَفْع الاجتماعيّ ، حتى في فرائضِ العباداتِ كصلاةِ الجُمُعة والزكاةِ والحجّ مثلاً .

(ب) وأمّا الأمرُ الثاني فهوّ أنّ الانسانَ في الاسلامِ ليس نَجِساً ولا آثِماً مُنْذُ ولادته ، ولا هو يَحْمِلُ ذنوبَ غيرِه ولا يَحْمِلُ ذنوبَه أحدٌ غيرُه . ثمّ إنّ ما فُرِضَ عليه في الدين ليسَ أشكالاً خاويةً جازمة ، فالخمرُ ولحم الخِنْزير مُحَرّمانِ لأنّهما مُضرّانِ مُؤذِيانِ ؛ ولكنْ إذا حدثتْ

مَجاعةٌ خُشِيَ فيها من الهَلاكِ ولم يكن في مكانِ تلك المجاعةِ الا لحمُ خنزيرٍ فأكَلَ منه المُسلمُ « فلا إثْمَ عليه » (القرآن الكريم ٢ : ١٧٣ ، سورة البقرة) . إنّ الاسلام قد خاطبَ عَقْلَ المُسْلمِ في عددٍ من الأمورِ كما خاطبَ عاطفته في عددٍ آخرَ من الأمور ، ذلك لأنّ الناسَ طبقاتٌ مُتفاوتةٌ تَفاوُتاً لا بدّ منه : هنالك الأطفالُ والشُبّان والكُهول والشُيوخ طبقاتٍ طبيعيّةً في المجتمع تختلفُ حالاتُها ومَدارِكُها ، فلا بُدَّ من مُخاطبتُها بجميعِ طُرُقِ الخِطاب — كما قال الفيلسوفُ ابنُ رُشْدٍ — . من أجلِ ذلك كان في القرآنِ الكريمِ الأسلوبُ الخَطابي والأسلوبُ الجَدَلي والاسلوب البُرهاني .

الإسلام

الاسلام دين الله الذي جدّده لعباده للمرة الأخيرة في تاريخهم . ولقد جاء الاسلام على يدِ محمّدٍ رسولِ الله يُجَدِّدُ للناس الحقَّ والخيرَ والعدل التي جاء بها الرسل من قبلُ ثمّ غَفَلَ الناس عنها أو ضلّوا عنها او عاندوها لأنّها كانت مخالفة لأهوائهمَ الآنيّةِ ومصلحتهم المادّيّة. ثمّ جاء الاسلام بأمور جديدة اقْتَضَتْها الاحوالُ التي جَدّتْ للناس بعد بِعثْة عيسى عليه السلام . وعلى هذا جاء الاسلام ناسخاً لجميع الشرائع التي سبقته : يؤمن بأنها كانت حقاً ولكن يَنْسَخ (يُبْطِل) العملَ بها لأنّ شريعة الاسلام كانت أتَمّ جميع الشرائع .

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أوحاه الله الى محمّدٍ رسو ل الله في مدى ثلاثٍ وعشرينَ سَنَةً هي مدّة رسالته . وبانتقال محمّدٍ رسول الله الى الرفيق الاعلى انتهت رسالته وانقطعت النبوّة .

وفي القرآن الكريم أركانُ الإيمان والاسلام على وجه الامر والنهي ،

وفيه أشياءُ من أخبار الأوّلين على سبيل الذكرى والموعظة . ولقد جاء القرآن ليُعَلِّم البشر أمورَ دينهم وما فيه الخيرُ من أمور دنياهم وليزكّيَ (يطهّر) نفوسهم وليَضَعَ لهم نظاماً اجتماعياً يَصْلُح به مَعاشُهم ، وليبشّر الذين آمنوا منهم وعَمِلوا الصالحات بالخلود في حياة أُخْروية في نعيم مقيم .

الحديث الشريف

الحديث ماجرى على لسان محمّد رسول الله ممّا ليس قرآناً أو وَحْياً — وإن كان كلُّه بتأييد من الله . والحديث لا يَفْرِض شيئاً من الدين ليس موجوداً في القرآن ، ولكنه يفصّل ما جاء في القرآن مُجْمَلاً ويفسّر ما جاء مُوجَزاً وينقل سُنّة محمّد رسول الله (طريقةَ الحياة التي كان يسلُكُها رسول الله عامّة وخاصّة) حتى يَهتديَ الناس بهَدْيه ويقتدوا بأعماله .

أركان الدين

جَمَعَ القرآنُ والحديث أوجُهَ الحياة الروحيّة والماديّة ، فالإسلام قد جاء حركةً اجتماعية واسعة : ديناً ودولةً ومعاملاتٍ بين الناس ونظاماً للاجتماع الإنساني واساساً للاخلاق .

« أركان الايمان »

أركان الايمان التي جاء بها الاسلام خمسة :

١ — الايمانُ بالله ، بأنّه موجودٌ وهو مُوجد العالمِ بكلّ ما فيه مُهَيْمِناً على البشر في كلّ حال من أحوالهم .

٢ — الايمان بالملائكة ، بأن ثمّت مخلوقات روحانيّةً لا يدعوهم وجودُهم الى الحاجات التي يُضْطَرّ البشرُ إليها في حياتهم من الطعام واللباس وغيرِهما ، وبأنّهم يتصرّفون بأمر من الله في مظاهر هذا الوجود .

٣ — الايمان برسل الله وبالكتب المُنْزَلة عليهم .

(أ) بأن الله يُرْسِلُ إلى خَلْقِه رُسُلاً ليجدّدوا لهم ما نَسُوهُ أو تناسَوْهُ من الدين وليَهْدوهم الى العمل الصالح والحياة الكريمة . وجميع هؤلاء الرسل على مستوًى واحد من الحق ومن الاستحقاق للكرامة ، وان كان بعضُهم أكثرَ أثراً في قومه وأوسع أثراً بين الناس عامة وأخلدَ رسالةً على الارض من بَعْضِهِمُ الآخَرِ .

(ب) وبأن الله يُوحي الى هؤلاء الرسل كتباً فيها هدًى للناس وصلاحٌ لأمور دينهم وأمور دنياهم . إنّ هذه الكتب كلّها حقّ ، ولكنّها (ما عدا القرآن الكريم) قدِ ارتفعت (ضاعت ، نَسِيَ أهلُها العملَ بها أو تركوا العمل بها أو بدّلوها) .

٤ — الايمان باليوم الآخر ، بأن الله يبعث الناس من الموت ويجمعهم ليحاسبَهم على ما عَمِلَه كلّ واحد منهم في حياته الدنيا فيُثيبَهُ على ما كان قد أحسن ويعاقبَه على ما كان قد أساء .

٥ — الايمان بالقضاء والقدر ، بأن جميعَ ما يُصيب الناسَ في هذه الحياة الدنيا من خيرٍ أو من شر قد قضاه الله عليهم (كتبه عليهم ، أراد أن يصيبهم) منذ الأزل ، وأنه محتومٌ عليهم لا مَفَرَّ منه .

« أركان الاسلام »

لا يكونُ الأنسانُ مسلماً مقبولَ الدين إلاّ إذا أضاف الى اعتقاده بأركان الايمان اعتقاداً وعملاً بأركان الاسلام ، وهي أيضاً خمسة :

١ — **شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ** — أي أنّ الله واحدٌ بالعدد وأنه لا يُشبهه أحد من خلقه : « ليس كمثله شيء » ، ولا هو يتّصف بصفة من صفات خلقه : « سبحانه وتعالى عمّا يصفون » .

— وأن محمّداً رسولُ الله — وأنه خاتَمُ الأنبياء والمُرسَلين وأن الشرع الذي جاء به قد نَسَخَ جميع الشرائع التي جاءت قبله (أبطَلَ العملَ بها ،

وإن كانتْ هي صحيحةً في نفسِها قبلَ أن يُبَدِّلَها نفرٌ من أتباعها) .

٢ – **وإقامِ الصلاة** – على المسلم ان يُصلّيَ خمسَ مرّات في اليوم والليلة . هذه الصلاة تَعَبُّدٌ في الدرجة الاولى ؛ وعلى المسلم أن يُؤدِّيَها بخشوع في قلبه . هذه الصلاة على هذا الشكل يجب ان يكونَ لها أثــرٌ في سُلوك الانسان العَمَلي فتَنْهاهُ عن الفحشاء (العملِ القبيحِ والكلامِ القبيح) والمُنْكَرِ (العملِ السيء الذي ينفر منه المجتمع السليم) .

٣ – **وإيتاءِ الزكاة** – أي أن يدفعَ الاغنياءُ نِسبةً معيّنة من أموالهم الى الفقراء والمُحتاجين في كلِّ عام . والزكاةُ ليست صَدَقَةَ تطوّعٍ أو تبرّعاً ، وإنما هي حقٌ للمستحقّين من الفقراء في أموال الاغنياء .

٤ – **صوم رَمَضانَ** – أي الامساكُ عن الطعام والشَراب من طلوع الفجر إلى غياب الشمس في كل يومٍ من أيام شَهْرِ رَمَضان (الشهر التاسع من أشهر السَنة القمرية في الإسلام) . أما في الليل (من غياب الشمس إلى طلوع الفجر) فيجوزُ الطعامُ والشرابُ ومَسّ الأهل . على أن الصيام لا يكون صياماً كاملاً إلا إذا هَجَر الصائم كل ما لا يَحِلّ شَرْعاً وخُلُقاً معاً .

وفي رَمَضان يتفرغ المسلمونُ عادةً للعبادة ويُكْثِرون من الاجتماع والتزاوُرِ ومن التصدّق ، فيزيدون بذلك الى الجانبِ الشخصي في العبادة جانباً عامّاً من النفع الاجتماعي .

٥ – **وحِجَ البيتِ من استطاعَ اليه سبيلاً** – أي أن يذهَبَ المسلم القادرُ إلى زيارة مكّةَ والقيام فيها بمناسك الحجّ ، على الوَجْه الشرعي ، مرّةً واحدةً في حياته على الاقلّ . والمستطيعُ هو القادر من الناحية الصحيّة والعقلية والمالية مع الإيقان من أمْنِ الطريق .

والحَجّ يستمر شرعاً بِضْعَةَ أشْهُرٍ تكون العبــادة فيها (الطّواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف في عَرَفَةَ والتَضْحيةُ) في بضعة أيامٍ . أمّا الايّام الباقية فَلِلتّشاوُر بين المسلمين من الأقطار المختلفة في شؤون المسلمين عامّة .

العبادات

إنّ البحث في تفاصيل العبادات راجعٌ الى الفِقْه ، وليس هذا الفصل هنا مكانَ البحث فيه .

المعاملات

المعاملاتُ هي القواعدُ التي تَواضع عليها الناسُ (اتّفقوا على العمل بها) فيما بينَهم . لمّا جاء الاسلام وَجَدَ العربَ يسلُكون في معاملاتهم في البيع والشراء والزَواج والطَلاق والتبنّي والإرث سُبُلاً متعدّدة ، كما وجد أن جماعاتٍ وأفراداً منهم يسلُكون في ذلك سبلاً مغايرة للحق والعدل والاحسان . والاسلام جاء بنظامٍ اجتماعيٍّ شامل . ولقد أتّفق أن عدداً من القواعد التي كان العرب يسيرون عليها كانت موافقة للحق والعدل والإحسان فأجازها الاسلام ثمّ ردّ ما لم يكن منها موافقاً لذلك الى السبيل السويّ .

« المرأة »

وبما أن المعاملات كثيرةٌ متشعّبةُ الجوانب ، فاننّا سنكتفي هنا بكلام وجيزٍ على المرأةِ ندلّ فيه على اتّجاه الاسلام في معالجة القضايا الاجتماعية .

ردّ الاسلام إلى الانسان كَرامتَه ، فالانسان لم يَبْقَ قَذِراً آثماً منذ الولادة (كما قالت ديانات سابقة) ، بل أصبحَ طاهراً خالياً من الذنوب إلاّ الذنوبَ التي يرتكبها هو في حياته .

ورفع الاسلام مكانةَ المرأةِ وجعلَها شخصاً يَمْلِكُ حرّيته وحرّية التصرّف بما يَمْلِكُ ، ولكنّ الرجلَ ظلّ قوّاماً على المرأة في الاحوال التي يَفْضُلها فيها من الناحية الطبيعية والناحية الاجتماعية . فاذا فَقَدَ الرجلُ هذا الفضلَ فَقَدَ ذلك الحقّ . وكانتِ المرأة في الجاهلية لا تَرِثُ ففرض الاسلام للأم وللزوجة حقّاً وجعل للبنت نصيباً .

وكانَ الأبُ في الجاهلية يُزَوِّج ابنته من شاء ويأخُذُ هو مَهْرَها ،

فأوجب الإسلامُ أن يُؤخذَ رأيُ المرأة في الزواج وألاّ تُزوَّجَ كَرهاً مَن لا تريده ، ثم جعل المَهْرَ حقّاً لها .

وكان الرجل في الجاهلية يتزوّج من النساء ما شاء بلا حَصْرٍ لعددهن ثمّ يُطلّق من شاء منهنّ ولا يُسأل عن سبب ذلك ولا عن مصير التي يطلّقها . فجعل الاسلامُ للزَّواج وللطلاق شروطاً ساوى فيها بين الرجل والمرأة إلاّ في كلمة الطلاق : إنّ طلب الطلاق في الاسلام حق الرجل وحقّ المرأة ، ولكن الطلاق لا يقع إلاّ اذا لَفَظَ الرجلُ صيغةَ الطلاق لأنّ الرجلَ هو الذي يتحمّل الأعباء المالية التي تُنْتَجُ من وقوع الطلاق .

والغايةُ من الزَواج في الإسلام بناء أُسْرَةٍ صالحة سليمة ، فاذا لم يكن تحقيقُ هذه الغاية ممكناً وَوَقَعَ الشقاق بين الزوجين ثمّ طلب أحدهما الطلاق ورَفَضَ الرجلُ الاستجابة العادلةَ فإنّ القاضيَ يُفَرّق حينئذٍ بين الزوجين .

طبقات الناس

كان العرب في الجاهلية يتقسّمون قبائلَ وعشائرَ ، وكان لهم عصبيّة يتفاخرون بها وتثور بينهم المنازعات من أجلها . من أجل ذلك أراد الاسلام أن يَقْضِيَ على هذه العصبيّة المفرّقة ثم تبرّأ من كلّ من يدعو اليها ، فقال رسول الله : « ليس منّا من دعا الى عصبيّة » ! ثمّ إنّ الاسلام جعل التقوى مقياساً لقيمة الناس في الحياة ، قال الله تعالى في سورة الحُجُرات : « يا أيّها الناسُ ، إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا ؛ إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم . إنّ الله عليم خبير » (٤٩ : ١٣) . ولم تكن هذه التسوية في التقوى بين العرب وحدَهم ، بل بين العرب وغير العرب أيضاً ، ففي الحديث عن رسول الله : ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلاّ بالتقوى .

على هذا الاساس أوجد الاسلام تنظيماً جديداً للناس في المجتمع ، وقد **جعل السابقين الى الدخول في الاسلام أفضل من المتأخّرين في الدخول فيه .** ثمّ بَطَلَ هذا التفريق بين الداخلين في الاسلام بعد فتح مكّة ، سنة ٨ هـ (٦٢٩ م) ، لأنّ الاسلام كان قد عمّ بلادَ العرب إلا قليلاً ولأنّ الاسلام كان قد اكتسب قوّة وقَلّتْ بذلك حاجتُه الى أن يترضّى العربَ للدخول في دين الله . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الفتح : « وما لكم ألاّ تُنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراثُ السموات والأرض . لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل ، **أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ؛** وكُلاّ وعدَ اللهُ الحُسنى . والله بما تعملون خبير » (٥٧ : ١٠) .

وعلى ذلك كان المسلمون الأوّلون : خديجةُ وأبو بكر وعليّ وعثمانُ وعمرُ وعبد الرحمن بنُ عوفٍ وحمزة بن عبد المطّلب ومن هم في طبقتهم وسابقتهم في الاسلام أفضل من سواهم . ثمّ كان المهاجرون الأوّلون الذين أسلموا في مكّة قبل الهجرة (١ هـ = ٦٢٢ م) أفضلَ من الانصار الأولين الذين أسلموا من أهل المدينة قبل الهجرة . ثمّ يأتي بعد هؤلاء في الدرجة أولئك الذين أسلموا بعد ذلك ولكن قاتلوا في معركة بدر (٢ هـ)، ثمّ الذين أسلموا بعدهم وقاتلوا في معركة أُحُدٍ » (٣ هـ) .

والمسلمون كُلُّهم « أمّةٌ » جَماعةٌ لهم شِرعةٌ (بكسر الشين) واحدةٌ ومِنهاجٌ واحد وسنّة (بضمّ السين : طريقة في الحياة والسلوك) واحدةٌ . وفي القرآن الكريم في خِطاب المسلمين : إنّ هذه أُمّتُكُمْ أمّةً واحدةً (٢١ : ٩٢ ، سورة الانبياء و ٢٣ : ٥٣ ، سورة المؤمنون) — وكذلك جَعَلْناكم أُمّةً وَسَطاً لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكُمْ شَهيداً (٢ : ١٤٣ ، سورة البقرة) — كُنْتُمْ خيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس تأمُرونَ بالمعروف وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَر وتؤمنون بالله . ولو آمَنَ أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم : مِنهُمُ المؤمنون ، وأكثرُهُمُ الفاسقون (٣ : ١٠٩ ، سورة آل عِمرانَ) » .

والمُسلمون كُلُّهُمْ إخوةٌ في قوله تعالى « إنّما المؤمنون إخوة » (٤٩ : ١٠ ، سور الحُجُرات) . وفي القرآن الكريم أيضاً خطابٌ للمسلمين مُفصّلٌ في معنى الأُخُوّة : « يا أيّها الذين آمنوا ، اتّقوا اللهَ حقَّ تُقاته ؛ ولا تَموتُنَّ إلاّ وأنتم مُسلمونَ ، واعْتَصِموا بحبلِ الله جميعاً ولا تَفَرّقوا ، واذْكُروا نِعْمَةَ الله عليكم إذ كُنْتُمْ أعداءً فألّفَ بينَ قلوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بنِعْمته إخواناً ؛ وكُنتم على شَفا حُفْرةٍ من النار فأنْقَذَكُمْ منها . كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياته لعلّكم تَهْتَدون (٣:١٠١ – ١٠٢) » . ومَعَ العِلْم بأن الأُمّةَ تتألّفُ دائماً من طَبَقات اجتماعية مختلفةٍ ، فإنّ الإسلامَ قد أمَرَ بأن يكونَ الجميعُ إخواناً في الدين (راجع ٢ : ٢٢٠ ، سورة البقرة ، ثمّ ٩ : ١١ ، سورة التوبة ، ثمّ ٣٣ : ٤ ، ٥ ، سورة الاحزاب) .

الصحابة

الصّحابة هم أصحابُ رسول الله : إنّهم الرجال والنساء المسلمون الذين عاصروا الرسولَ وعرَفوه وعاشوا معه مُدّة[1] واهتَدَوْا بهَدْيِه واقتدَوْا بأعماله . والصحابة أعلى منزلة من غيرهم يُعْتَمَدُ عليهم في رواية حديث رسول الله وفي آرائهم في عدد من التفاصيل في أمور الدين والدنيا ، كما يُقَلَّدون في أعمالهم . أما فيما يتعلّق بالحقوق والحدود (بحقوقهم من بيت المال وبالعقاب الذي قد يستحقّونه على ذنب أو خطأ) فانّهم كانوا يُعاملون في ذلك معاملةَ سائرِ المسلمين . وعلى هذا يكون الصحابة أيضاً طبقاتٍ بعضها أعلى منزلة من بعض .

وكان في المسلمين طبقتان بعد ذلك :

(١) بين الفقهاء خلاف على تعريف « الصحابي » : منهم من يتشدد كالتشدد الملموح في هذا المكان ، ومنهم من يتساهل فيجعل الصحابي من اتفق له أن يرى الرسول مرة واحدة ولو من غير « صحبة » .

أ – طبقة المُؤلّفة قلوبُهم : أولئك الذين دخلوا في الاسلام بعد أن كانوا فقراء أو ضعفاء وأرادوا أن يغتنوا بالدخول في الاسلام فكان الرسول يعطيهم من المال فوق ماكان يعطي أقرانهم من أصحاب الحقوق من المسلمين . وكذلك كان هنالك نفرٌ أقوياء ورؤساء في قبائلهم قبل الاسلام ، فلمّا دخلوا في الاسلام وخَشُوا أن تكونَ منزلَتُهم في الاسلام أدنى مما كانت في الجاهلية أعطاهمُ الرسول من المال فوق ما كان يُعْطي أقرانَهم وقدّمهم في المشاهد فوق ما كانوا يستحقّون .

ب – طبقة المنافقين : أولئك الذين دخلوا في الاسلام من اليهود خاصّة « وقلوبُهم غير مطمئنّة بالاسلام » ، أو دخلوا في الاسلام وهم يريدون الإساءة الى الاسلام والمسلمين وهم متستّرون باسلامِهم الظاهر . ولقد سكت الاسلام عن هؤلاء إلاّ إذا ظهر نفاقُهم وأذاهم للمسلمين .

ثمّ يأتي أهل الذِمّة (النصارى واليهود الذين بَقُوا على دينهم) . وهؤلاء أيضاً كانوا طبقتين :

أ – المُؤلّفَة قلوبُهم : الذين كان يُرجى دخولهم في الاسلام فكانوا يُعْطَوْنَ شيئاً من أموال الصَدَقات ؛ أو كانوا أقوياءَ يُخشى من سطوتهم فكانوا يُعْطَون مبالغ من المال لدفع أذاهم ما أمكن .

ب – أهلُ الذِمّة على الحَصْر : الذين كانوا يعيشون في « الدولة الاسلامية » من غير نشاط مُعادٍ للاسلام ، وقد كان هؤلاء « ذِمّةً للمسلمين » تحميهم الدولة وتُعنى بهم (اذا احتاجوا) كما تحمي المسلمين سواءً بسواء . وكان الرسول يعاملهم في الحدود (العقاب) كما يعامل المسلمين ، فإذا زنى أحد منهم أقام عليه الحدّ (رجمه أو جلده بحسب الحال التي تقتضي ذلك في الشرع) .

ثمّ كان في بلاد العرب مشركون (على الوثنية) وهم الذين كانوا يحاربون رسول الله والمسلمين ويحاربهم رسول الله والمسلمون . في سنة ٩ هـ (٦٣٠ م)

نزلت سورة التوبة ، وتُسمّى أيضاً سورة بَراءة (لأن الله تعالى تبرّأ في مطلعها من المشركين وأذن لرسوله أن يقاتلهم قتال استئصال ، سواءٌ عليهم أبَدَأوا هم المسلمين بالقتال أم لم يبدأوا هم . — إلاّ أن يكون بين الرسول وبين قوم منهم معاهدة . فاذا كان بين الرسول وبين هؤلاء معاهدة ثمّ لم يَخْرُقوا هذه المعاهدة بعمل عدوانيّ ، فانّ هؤلاء لا يُقاتلون قتال استئصالٍ قبل انتهاء مدة المعاهدة الّتي كانت بينهم وبين الرسول . وأمّا الذين لم يكن بين الرسول وبينهم معاهدة فقد أُعطوا مهلة لا يُقبل منهم بعدَها الا الاسلام .

غيرَ أن هذا كان ينطبق على العرب وحدَهم ؛ فلا المشركون من غير العرب (من الفرس مثلاً) ولا اليهود والنصارى من الروم والآراميّين كانوا يَدْخلون في حُكْم هذه الآية . بَقِيَ هنالك جماعاتٌ من العرب كانوا قد اعتَنَقوا النَّصْرانية ، فهؤلاء أيضاً كان يجب عليهم الدخول في الاسلام . وسَنشير الى قضيّة بني تغلب في الكلام على طبقات الناس في عصر الخلفاء الراشدين (ص ١٠٤) .

العصبية القومية

ولقد أرادَ الإسلامُ أن يجمَعَ المسلمين كلَّهم بالدين — بذلك الجامعِ الرّوحيّ الذي يَخْرِقُ العَصَبيّاتِ — لِسَبَبَيْن :

(أ) إنّ العربَ أنفسَهم كانــوا يَنْتمونَ الى عَصَبيّاتٍ قَبَليّةٍ متعادية ، فلم يكن بالإمكان تَغْليبُ عصبيّةٍ واحدةٍ على سائر العصبيّات ولا جَمْعُ العصبيّاتِ كلِّها على هدَفٍ واحدٍ .

(ب) إنّ الشعوبَ التي دَخلَتْ في الإسلامِ كانت أيضاً تنتمي إلى قَوْميّات مختلفة : كانوا رُوماً وفُرْساً وحَبَشاً وهُنوداً وتُرْكاً وسوى ذلك ، فلم يكنْ بالإمكانِ أيضاً حَمْلُهُمْ على تَرْكِ قَوْميّاتِهِمْ ليَتَبدّلوا بها قوميّةً جديدةً .

من أجلِ ذلك كلّه تبَرأ الإسلامُ من العَصبيّات ومن الدَعْوة اليها ،

فقال رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلّم : « لَيْسَ مِنّا من دَعا الى عَصَبيّة » . ثم دعا الاسلامُ جميعَ المؤمنين الى التآخي باسمِ الدين .

نظام الحــكم

كان المسلمون في مكّة جماعةً دينية قليلة في العدد مستضعَفَة في الحياة ، وان كانت قوية في الايمان شديدة في الكفاح . فلمّا هاجر المسلمون الى المدينة وكثروا احتاجوا الى تنظيم تفرضه سلطةٌ تقيمُ العدلَ بين الناس .

الدولة والحكومة

أصبح للمسلمين في المدينة دولة تفرض سلطانها على الناس وتجمع الزكاة (تجبي الضرائب) وتقوم بالجهـــاد (تعلن الحرب) وتقضي بين الناس في خلافاتهم وتقوم — بكلّ ما تقوم به الدولة الحديثة — في نطاق الجماعة الاسلامية التي كانت تعيش في المدينة في أول الأمر ثمّ في نطاق الجماعة الاسلامية بعد أنِ انتشر الاسلام في معظم شبه جزيرة العرب .

على أنه **لم يكن في عهد الرسول حكومة بالمعنى الحديث** ، ذلك لأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان ينفّذ في حُكْمِ الناس شريعةً إلهيّة ويطبّق في المجتمع مبادىء دينيّة ترجــع في حقيقتها الى الوحي الالهي . والرسول في ذلك كان المَرْجِــعَ الوحيد في جميع الامور : في اعلان الحرب وعقد الصلح وفي القضاء وفي تقسيم الغَنائم وفي جمع الصدقات وتوزيعها بــين أصحاب الحقوق وفي التشريع الاجتماعيّ : **لقد كان المرجع في تنفيذ هذه الشريعة أوتطبيق هذه المبادىء** ، ولم يكن واضعاً لها من عنده .

مدرك الحكومة والوزارة : الشورى

غيرَ أن الرسول كان في بعض الأمور الدنيوية الجزئية (وفي غير العبادات

والمعاملات الاساسية) يحكم برأيه كما اتّفق في ترتيب معركة بدر[1] وفي تأبير النخل[2] .

وكذلك كان الرسول صلىّ الله عليه وسلّم يستشير أصحابه في كثير من أمور الدولة والمجتمع والحرب وما سوى ذلك . ولقد كثرت مشاورته لأبي بكر وعمر حتى قيل فيهما إنّهما كانا وزيرين لرسول الله .

القضاء

وكذلك كان رسول الله هو القاضيَ . ولكن لمّا اتّسع الاسلام في شبه الجزيرة احتاج الرسول الى من يستنيبه عنه في الحكم بين الناس في الاقطار المختلفة . لمّا أراد رسول الله أن يرسل مُعاذ بن جبل قاضياً الى اليمن قال له : يا مُعاذُ ، بِمَ تحكم بين الناس ؟ فقال معاذ : بكتاب الله . فقال له الرسول : « فان لم تجده في كتاب الله ؟ » فقال معاذ : « أحكم حينئذ بسنّة رسول الله » . فسأله الرسول ثانية : « فان لم تجد ذلك في سنّة رسول الله ؟ » فقال معاذ : « اجتهد برأيي » .

فالقضاء في الاصل كان تطبيقاً للأحكام التي جاءت في القرآن الكريم ؛ وكان الرأي لا يصلُح للحكم الا اذا غابت تفاصيل القضيّة من القرآن ومن سنّة رسول الله .

الجهاد

الجهاد واجب على المسلمين القادرين ، وهو فريضة عليهم وان لم يُذْكَرْ في أركان الاسلام ، ففي القرآن الكريم في سورة البقرة : «كُتِبَ عليكم

(١) راجع الكلام على الجهاد ، آخر الفصل التالي .

(٢) اتفق أن جماعة استشاروا الرسول في شأن تأبير النخل (تذكيره) فقال لهم : « لا تؤبروه » . فلم يؤبروا النخل فكان النتاج في ذلك العام ضعيفاً جداً . فقالوا له ذلك فقال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . (راجع ايضاً ص ١٣٨ – ١٣٩) .

القتال وهو كُرْهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم (٢ : ٢١٦) » . وفي سورة التوبة : « انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا **بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكُم** خير لكم (٩ : ٤١) » . وفي سورة التوبة أيضاً : « الذين آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عند الله ، وأولئك هم الفائزون (٩ : ٢٠) » . وفي القرآن الكريم آياتٌ كثارٌ للحضّ على الجهاد لإقامة الدين . ان الجهاد (الحرب) ركن من أركان الدولة في كل زمان ومكان .

والجيش الاسلامي في أيام الرسول كان **مجموع الرجال القادرين على حمل السلاح** . والاسلام لم يفرض بذلك على المسلمين أمراً جديداً ، فان الغزو في الجاهلية كان عَمَلَ الرجال القادرين على ركوب الخيل وعلى القتال ، فنقل الاسلام القتال من تَقاتُلٍ بين القبائل العربية الى جِهاد في سبيل الله . ان الجهاد قد وحّد المسلمين في وجه الذين كانوا يستعبدونهم (من الفرس والروم) قبل الاسلام .

وكان الرسول يتّبع في خوض الحرب وفي ترتيب المعارك القواعد التي تبدو له موافقة بحسب اجتهاده الشخصي . على ان الرسول كان بلا ريب مؤيّداً بالأسباب المادّيّة والاسباب الروحيّة ، ولكن كان « لفنّه الحربيّ الاصيل ومواهبهِ العسكرية النادرة الأثرُ العظيم في ظفره ونصره »[1] .

(١) راجع « الرسول القائد » لمؤلفه اللواء الركن محمود شيث خطاب (الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٦٤) ، ص ٨ . – هذا كتاب قيم جمع فيه مؤلفه الكلام على غزوات الرسول من مصادرها الأولى ثم عالجها معالجة فنية صحيحة . ويتوفر المؤلف على الكلام على العبقرية الحربية للرسول ويترك كل ما كان غطاء ساتراً على تلك العبقرية الفذة . وهذا قوله في المقدمة (ص ٧) :

« ولكني أغفلت بعض الظواهر الخارقة التي لا يمكن أن تحدث في الحروب العادية بين المتطاحنين من البشر ، والتي يرجع بعض الغلاة إليها وحدها السر الأكبر في انتصار الرسول على خصومه وأعدائه » .

أما أن المعركة الأولى في الاسلام – معركةَ بدر – فلم ترتّب ، في أول الأمر ، ترتيباً مألوفاً . فلمّا لُفِتَ نظرُ الرسول الى ذلك رأى وجه الحقّ والصواب وعَمِلَ بالشورى التي دعا اليها الاسلام فأمر بتبديل ترتيب تلك المعركة [1].

مصادر المال في الدولة الإسلامية الأولى

لم يكن للمسلمين في عهد الرسول « بيت مال » ، بل كانت الاموال تدفع الى الرسول ، وكان الرسول يفرّق هذه الاموال في وجوهها ولا يسأله أحد عن ذلك لأنّه رسول الله .

أما مصادر الأموال التي كانت تأتي الى الرسول فقد كانت أربعة :

١ – الصدقة (المفروضة ، وتسمّى أيضاً الصدقات أو الزكاة) : مقدار معيّن على المال المجموع وعلى الأنعام من الغنم والإبل وغيرها وعلى نتاج الاشجار وبعض نتاج الارض ، مرةً في كل عام .

٢ – الغنائم من الحرب . وهي نوعان :

(أ) الغنائم التي يستولي عليها الجيش المنتصر بعد معركة ، وهذه بدورها تقسم قسمين : خُمسُها لله ورسوله يأخذها الرسول للإنفاق على نفسه وعلى أهله وأقاربه من بني هاشم وعلى من يحتاج من سائر الناس ؛ ثم أربعة أخماس تقسم بين الأحياء بعد المعركة .

(ب) الفيء ، وهو ما استولى عليه المسلمون من مال ومتاع وأرض بلا قتال ولا هجوم لقتال كأن يستسلم قوم معادون للاسلام طوعاً أو كَرهاً بعد نيّة قتال أو بعد حصار . والفيء كالخمس يأخذه الرسول (راجع الغنائم ٢ أ) .

(١) راجع ابن الأثير ٢ : ٤٩ – ٥٠ . ثم راجع ، فوق ، ص ٦٢ ، عند الكلام على معركة بدر .

وحكم الفيء وارد في سورة الحشر : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القُرى [1] فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الاغنياء منكم [2] . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه . واتّقوا الله ، إنّ الله شديد العقاب (٥٩ : ٧) » .

٣ – صدقة التطوّع ، وكان يدفعها الصحابة القادرون تطوّعاً من عند أنفسهم : فقد يجيء الرجل منهم مرّة بنصف ماله أو بكلّ ماله ؛ وقد يجهّز جيشاً ذاهباً الى الغزو من ماله هو .

وللجهاد قوانينُ تتعلّق بالفرق – فيما يخصّ العدو – بين المحاربين (الرجال القادرين على الحرب والذين يَنصِبون الحرب للمسلمين) وبين غير المحاربين كالنساء والاطفال والشيوخ والمرضى والرهبان ، الخ . كما تتعلّق بالأسرى وسوى ذلك ممّا هو من باب التفاصيل .

٤ – الجِزْية ، وكانت تُؤخَذ من أهلِ الكتاب (أهل الأديان السماوية الذين لهم كتاب مُنْزَل) . وكانت الجِزْيةُ مبلغاً مقطوعاً في السنة : أربعةَ دنانيرَ من الغنيّ وديناريِن من مُتَوسّطي الحال في الغنى وديناراً واحداً من الذين هم دونَ ذلك . وكان النساء والصغار والعاجزونَ ورجالُ الدين مُعْفَوْنَ من الجزْية . وكان دافعُ الجِزْية يتمتّع بذمّةِ المُسلمينَ (باحترامِ رأيهِ الديني وعباداتهِ ثمّ بالدفاعِ عنه وبإتاحة الفرص المختلفة في الحياة ، كما كان يُعفَى من الجِهاد) .

التجارة والربا

التجارةُ في الإسلامِ من المُعاملات (تبادُلِ المنافع بين البشر) ، والمعاملاتُ من الدين . أقام الاسلامُ التجارةَ على أُسُسٍ أخلاقيةٍ من الصِدْق والأمانة والقناعة . وبما أنّ التجارةَ تتعلّقُ بمعَاشِ الناس ،

(١) مثل وادي القرى وينبع .
(٢) كيلا يعطي هذا الفيء لعدد من الأغنياء منكم .

فقدْ أخضعَ الإسلامُ عدداً من الحاجيّات في عددٍ من الأحوال لحُكْمِ الدين ثمّ جَعَلَ مخالفةَ حكمِ الدين فيها كمخالفةِ حكم الدين في العبادات من الصلاة والصيام وغيرهما . انّ الاحتكارَ والغشَّ ورَفْعَ الأسعارِ رفعاً لا يُبَرِّرُه الجُهْدُ المُنْفَقُ على اعدادِ البضائعِ للبيع ، كلٌّ ذلك حَرامٌ .

والاسلام قد حرّم الربا .

والربا مبادلةُ مِقْدارينِ مختلفين من مال عَيْنٍ أو من بِضاعةٍ واحدةٍ بفضلٍ (بزيادة) مشروط : لا يجوزُ لمُسْلِمٍ أن يبيعَ قِنطارَ قَمْحٍ على شَرْطِ أن يَسْتَوْفِيَه قِنطاراً من قمحٍ ومقـداراً مُعَيَّناً فوق القِنطار . وقِيسَ المالُ (الذهب والفِضّة) على البِضاعة فحَرَّمَ الإسلامُ استدانةَ مالٍ ثمّ وفاءه مَعَ فضل (زيادة) على أصلِ الدين .

الأخلاق

الخُلُقُ الحَسَنُ في الإسلامِ ما أمرَ اللهُ به ، والخلق السيّء ما نهى الله عنه . والاسلام لم يفرّق بين الإخلاق وبين الدين . والإسلام قد مَدَحَ الاخلاق الحسنة ومَدَحَ بالأخلاقِ الحَسَنة . ولمّا أراد الله تعالى أن يمدَحَ رسولَه محمّداً قال له في سورة ن : « وإنّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم » (٦٨ : ٤) . وكذلك قال رَسولُ الله : بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق .

والغايةُ الاولى من الاخلاق حُسْنُ معاملةِ الناس حتى جاء في الاثر : « الدينُ المعاملةُ » . وجاء أيضاً : « الدينُ النصيحة » . وفلسفةُ الأخلاق في الاسلام سامية جدّاً : إن الاسلام يدعو الى حُسْنِ الاخلاق مَعَ الناس كلِّهم ، سواءٌ منهم مَن كان مُسْلماً أو من كان غير مسلم . ان مَدْرَكَ الأخلاقِ في الإسلام هو المثلُ الأعلى نفسُه وليس المُلابساتِ الاجتماعيةَ التي تُجيز في بعضِ الفلسفات حُسْنَ المعاملة مَعَ القبيل[1] دون سائرِ الناس .

(١) القبيل : قوم الرجل نفسه .

والغاية في الاسلام لا تبرّر الواسطة ؛ وغيرُ المسلم لا يجوز الإضرار به ابتداءً لأنّه غيرُ مسلم . أما الذي يَقْصِدُ الأضرارَ بالمسلمين فتَجِبُ مُحاربتُه ، سواءٌ أكانَ غيرَ مسلم أو كان مسلماً . والإيمانُ باللهِ والعملُ الصالحُ هما مِقياسُ الدين ومقياسُ الخلق الكريم .

عصر الخلفاء الراشدين

(١) الفتوح وتنظيم الإدارة

توفي رسول الله من غير أن يسمي أحداً يخلفه في إدارة شؤون المسلمين . غير أن الشيعة (أنصار علي بن أبي طالب) ذكروا أن الرسول أوصى بالأمر بعده إلى علي بنصوص وأدلة منها ما هو جلي ومنها ما هو خفي . والذي نعرفه من التاريخ السياسي والأدبي يدلنا على أن علياً كان يطمح الى الخلافة ويعتقد أنه أحق الناس بها ، لقرابته من رسول الله : فهو ابن عمه لحاً ، ثم لسابقته في الإسلام فقد كان من أوائل الذين آمنوا برسول الله مع أنه كان يومذاك ابن عشر سنوات . ثم انه كان من الذين أبلوا في سبيل الإسلام البلاء الحسن . أضف الى ذلك كله علمه وعدله وتقواه ثم زواجه بفاطمة بنت محمد . ولكن علياً كان يوم توفي الرسول صغير السن ، في الثالثة والثلاثين من عمره ، بينما العرف العربي القديم كان لا يبايع رئيساً إلا إذا علت سنه في الغالب .

غير أن الأمر كان أخطر من ذلك كله ، فقد بدا لعمر بن الخطاب ، وهو من رؤساء المهاجرين ، أن النظر في استحقاق الأفراد وتفضيل بعضهم على بعض (من جهة القرابة خاصة) سيقود الى خلافات قد تقضي على الدعوة الاسلامية — وجميع الحوادث التي وقعت في مدى ثلاثين سنة ، طوال عصر

الخلفاء الراشدين ، كانت تدل على أن رأي عمر بن الخطاب كان في محله — . من أجل ذلك عزم عمر بن الخطاب على أن يأخذ الأمر بالحزم والسرعة ويضع المسلمين أمام الأمر الذي لا مفر منه ولا خيرة فيه . ونحن نعلم أن البشر في مثل هذه الأحوال ثلاثة نفر : منهم من يجيب كل أمر يدعى إليه بلا مقاومة ولا تردد ؛ ومنهم من يتريث متربصاً ، فإذا رأى جماعة دخلوا في أمر دخل هو فيه ؛ ومنهم من دأبهم المخالفة والمقاومة مهما كان الأمر الذي يدعى اليه .

ابو بكر (عبد الله بن ابي قحافة)

— ١٣ ربيع الاول سنة ١١ = ٨ / ١ / ٦٣٦ م .

بدا لعمر بن الخطاب أن أليق الصحابة بالخلافة أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة ، صديق الرسول من قبل الاسلام ، ومن أوائل الذين دخلوا في الاسلام ، ومن الذين علت سنهم وسمت مكانتهم في قومهم مع لين العريكة وحسن الأحدوثة والتقوى . فرافقه الى المسجد ، قبل أن يدفن رسول الله ، وبايعه . فانثال الناس على أبي بكر يبايعونه : وغضب نفر فلم يبايعوا ، وقد كان من هؤلاء علي بن أبي طالب .

وأدرك عمر بن الخطاب أن امتناع علي عن مبايعة أبي بكر ليس امتناع رجل واحد من سائر الناس ، وانما هو امتناع فئة كبيرة نافذة الأمر ، فقد كان علي يمثل بني هاشم أسرة الرسول نفسه . فظل عمر يسعى حتى حمل علياً على المبايعة في حديث طويل . وكان من نفاذ بصر عمر بن الخطاب أنه لم يطلب الأمر لنفسه ، مع أنه كان في خلافة أبي بكر نافذ الكلمة مطاع الرأي .

جيش الفتح

كان أول ما فعله أبو بكر أن وجه جيش أسامة بن زيد الى حرب الروم في الشام (سورية) ، لأن الرسول نفسه كان قد عقد لواء هذا الجيش قبل

موته ، فلم يشأ أبو بكر أن يبطل ذلك ، مع اختلاف الأمر بعد وفاة الرسول واضطراب الحال . ومع أن جيش أسامة هذا كان قليـــل الخطر من حيث الإعدادُ والنتائج ، فانه كان يدل على أمور منها :

(آ) أن الرسول نفسه كان يرغب في التوسع بالفتح لنشر الاسلام .

(ب) ان الخطر على الدولة الاسلامية كان محتملاً من جهة الروم في الشام .

(ج) ان البدء بالفتح بالشام كان أهون من الناحية العسكرية والسياسية .

الردّة

تذكر المصادر أن العرب « ارتدوا » بعد وفاة الرسول . ويفهم عامة الناس من ذلك أن العرب رجعوا عن الاسلام الى الوثنية . فاذا نحن تتبعنا تلك المصادر رأينا أن تلك الردة كانت في الدرجة الاولى ثورة على السلطة المركزية في الحكم وفي النظام الاقتصادي . وليس بين أيدينا نص واحد على أن قبيلة من قبائل العرب « كفرت » بالله أو تركت صلاة أو زكاة . وقد تبدى النزاع في الردة حول الأمور التالية :

(آ) لم يشأ سكان البادية (الأعراب) أن يستمروا في الخضوع لسكان المدن (الحضر) . لقد احتجوا بأن خضوعهم الاول كان لرسول الله ، طوعاً أو كَرْهاً . أما وقد توفي رسول الله فليس لأحد غيره أن يقتضيَهم تلك الطاعة ، وذلك قول الحُطيئة :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننـــا ؛ فيا لَعِباد الله ، ما لأبي بكـــر !
أيورثها بكراً ، اذا مات ، بعده ؟ وتلك ، لَعَمْرُ الله ، قاصمة الظهر .

(ب) وكذلك كانت الردة نزاعـــاً بين شرقي شبه جزيرة العرب وبين غربيّها ، فقد كان مَسلمة بن حبيب (مُسيلِمة الكذاب) سائداً في اليمامة من قبل مبعث رسول الله ، ثم حارب بعد موت الرسول وقُتل في المعركة .

(ج) كانت الزكاة في أيام الرسول تحمل من أطراف بلاد العرب الى

المدينة ، وكان الرسول يتولى توزيعها على مستحقيها وفي وجوهها في كل مكان . فلما توفي الرسول رأى الولاة في أطراف بلاد العرب أن يجمعوا الزكاة ثم ينفقوا منها أولاً على الأقطار التي جمعت فيها . فاذا زاد منها شيء بعثوا به إلى المدينة . ولم يمنع أحد الزكاة . وهذا واضح في قول أبي بكر : « والله لو منعوني عقال بعير **كانوا يؤدّونه الى رسول الله** لحاربتهم عليه »[1].

(د) كان مدّعو النبوة يحتجون بأمور ليست من صلب الايمان او الاسلام . اذ كان معظمهم يرمون الى تولّي الحكم على المناطق التي ثاروا فيها . والرواة الذين أرادوا التهكم على مدّعي النبوة زعموا أن مسليمة لما خطب سَجاح جعل صَداقها إسقاط صلاة العصر عن بني حنيفة . ان هذه « الفكاهة » تنطوي على حقيقة بالغة هي أن الصلوات الاسلامية كانت قائمة في القبائل المرتدة ، وكان لها قيمة كما كان لها رهبة في النفوس .

جمع القرآن

بعد معركة اليمامة ، في أثناء حروب الردة ، مات نفر كثيرون من حَفَظة القرآن ، فرغب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر أن « يجمع » القرآن في مصحف واحد كيلا يتعرضَ شيء منه للضياع . كان الوحي يُدَوَّن في أيام الرسول بعد نزوله مباشرة على أشياء مختلفة : على الخشب ، والجريد ، واللِخاف (صفائح رقيقة) من الصخر وعلى الجلد ، ولكن لم يكن مجموعاً بين دفَّتَيْ مصحف (كتاب) واحد ؛ فجمعه أبو بكر .

استئناف الفتح — في العراق

كان معظم الذين ساروا لقتال المرتدين من أقدر القواد الذين اشتهروا

---

(١) في القاموس (٤ : ١٩) : العقال (بكسر العين) زكاة عام من الابل والغنم ، ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه : لو منعوني عقالا ... راجع في القاموس أيضاً (٣ : ٢٦٩) : العناق (بفتح العين) زكاة عامين ، ومنه قول أبي بكر : لو منعوني عناقاً ؛ ويروى عقالا وهو زكاة عام .

فيما بعد، مثل خالد بن الوليد والمُثَنَّى بن حارثة ويزيد بن أبي سُفيان وعمرو ابن العاص وشُرَحْبيل بن حسنة . فلما عاد المرتدون الى طاعة السلطة المركزية في المدينة ، كانت حمية هؤلاء القواد وحمية جنودهم لا تزال شديدة . ففكر المثنّى بن حارثة الشيباني ، بعد أن انتهى من قتال أهل البحرين (شرقيّ بلاد العرب) ، أن يسير بمن معه لقتال القبائل العربية التي كانت تعيش على تخوم شبه جزيرة العرب (في العراق خاصة) ، والتي لم تكن قد دخلت في الاسلام بعد . ولم يكن مع المثنى سوى أربعة آلاف رجل ، فأشفق أبو بكر أن تصيبهم هلَكة اذا لقُوا جيوش الفرس في عَدَدهم وعُدَدهم . من أجل ذلك أسرع أبو بكر بإنجاد المثنى بن حارثة بعشرة آلاف رجل بقيادة خالد بن الوليد.

وكان من أسباب استئناف الفتح :

(آ) تنفيذ رغبة الرسول في نشر الدعوة في العالم .

(ب) صرف حمية العرب من قتال بعضهم بعضاً في قلب شبه جزيرة العرب الى قتال أعدائهم المحيطين بهم .

(ج) دعمٌ للحدود العربية في وجه الفرس والروم الذين بدأوا يَضيِقون صدراً بالدعوة الاسلامية .

وتصدى الفرس والروم مجتمعين لقتال العرب ورَفَدَهم في ذلك عدد من القبائل العربية . ولكن خالد بن الوليد انتصر في معارك كثيرة منها ذات السلاسل (المحرم ١٢ هـ = آذار ٦٣٣ م) والوَلَجة وأُلَيّس (صفر من سنة ١٢) وعين التمر ودومة الجندل وسواها .

الفتح في الشام : اليرموك

ولما ثبتت الجبهة العربية في العراق أمر أبو بكر خالداً بالتوجه الى الشام ، فوصل خالد الى الشام في أواخر ربيعٍ الثاني من سنة ١٣ (أواخر حزيران ٦٣٤) .

فلما كان الجيش العربي على اليَرْموك توفي أبو بكر (مساء الاثنين في ٢١ جُمادَى الآخرة من سنة ١٣ هـ = ١٢ آب ٦٣٤) .

عمر بن الخطّاب

من ١٣ — ٢٣ هـ (٦٣٤ — ٦٤٤ م) :

لما حَضَرَتْ أبا بكرٍ الوفاةُ خشي أن يختلف المسلمون بعده فأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب . ومع أن هذا العمل قد وفر على المسلمين مشاكل آنيّة كثاراً ، فانه قد زاد في الوحشة التي كانت قد وقعت بين المهاجرين والانصار ، وبين بني هاشم وسائر المسلمين على الاخص . وأعلن علي بن أبي طالب أنه قد حِيل بينه وبين الخلافة مرة ثانية .

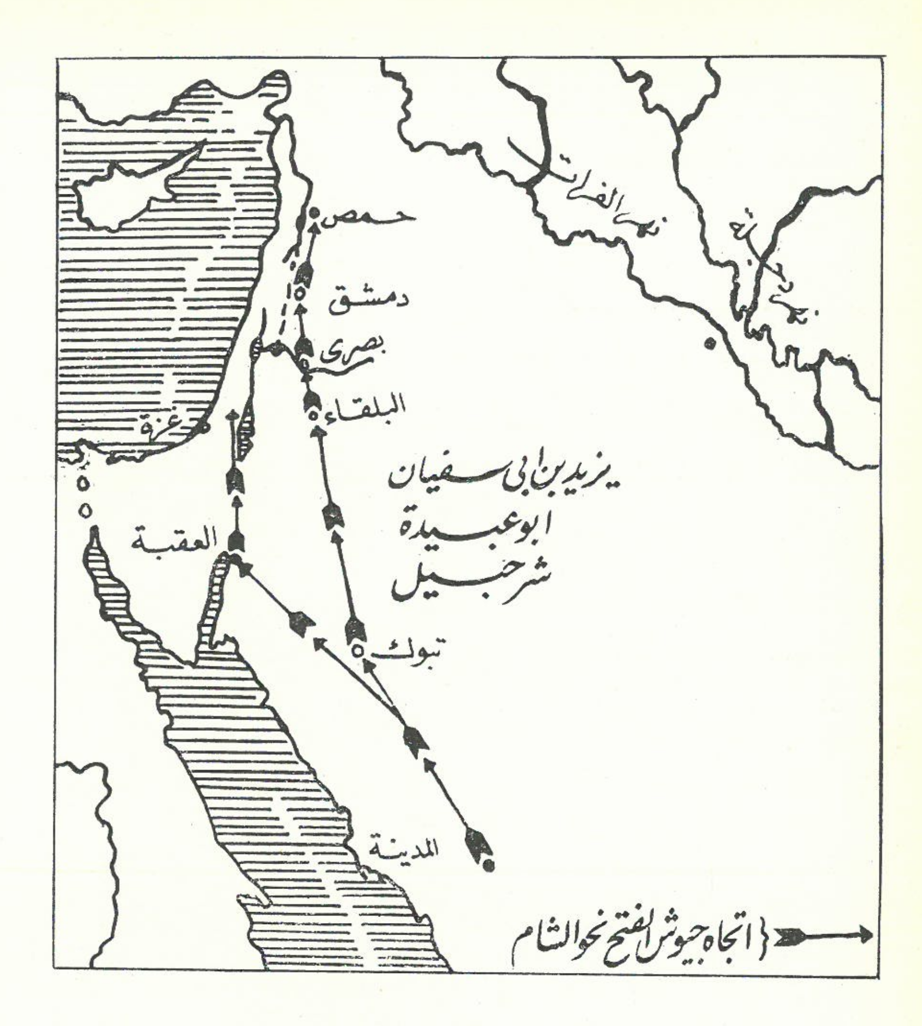
عمر يعزل خالداً

وكان أولَ ما فعله عمرُ أن عزل خالدَ بن الوليد عن جيوش الفتح وولّى عليها أبا عبيدة عامرَ بن الجَرّاح . واختلفت الآراء في سبب ذلك ثم استقرت على ما يلي :

(آ) كان بين عمر وخالد وحشة منذ أيام حروب الردة : ان خالداً كان قد قتل مالك بن نُويرة وأحرقه بالنار ثم تزوج امرأته . ولما سأله أبو بكر عن ذلك قال إن مالكاً سقط قتيلاً في المعركة . ولما سئل الجند في ذلك ذكروا أنهم سمعوا في ديار بني نويرة الأذان . وأراد عمر يومذاك أن يعاقب خالداً فلم يقبل ابو بكر . فلما وَلِيَ عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش وولّى أبا عبيدة .

(ب) وقال آخرون ان خالداً كان شديداً على الجند في الحرب وكان أبو عُبيدة أرفق منه .

(ج) ومما لا ريب فيه أن عمر كان صديقاً لأبي عبيدة ، ومن عادة الحكام أن يتعاونوا مع الأشخاص الذين يستطيعون التفاهم معهم . فاذا أضفنا هذا إلى



ما تقدم لم نستغرب ما فعل عمر ، بل وجدناه طبيعياً .

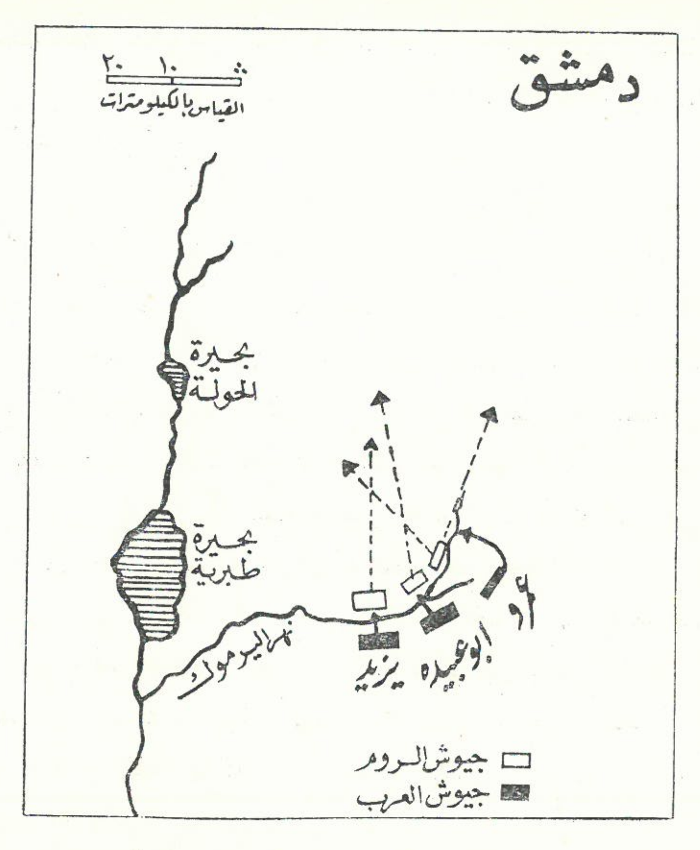
ومع ذلك فان خالداً وأبا عبيدة ، لم يتقيدا بأمرعمر ، مع العلم بأن عمر أنفذ أمره بعزل خالد وتولية أبي عبيدة مرتين . أما ابو عبيدة فرأى أن خالداً كان قد رتب المعركة ، وتغيير القيادة يقتضي تبديل ذلك الترتيب بسرعة . وهذا يُدخِل شيئاً من الوَهَن على قلوب الجنود ثم يُفضي الى اختلاف القلوب . أما خالد فمع أنه قد سلّم القيادة العامة إلى أبي عبيدة كيلا يجرح وجاهة الخليفة

عند عامة الجند ، لأن أمر العزل كان قد شاع ، فانه استمر في قيادة المعركة على الترتيب الذي كان قد وضعه . وفي هذه المناسبة قال خالد قوله المشهور : أنا لا أحارب من أجل عمر !

مجرى المعركة

أقام خالدٌ الجيش على مرتفَع جَنوبَ نهر اليرموك ، أحَد روافد نهر الأردُنّ ، وجعل ظهره الى الصحراء حتى يستطيع النجاة اذا اضطر الى التراجع أمام البيزنطيين . بعدئذ أطمع الجيش البيزنطي بأن يقطع النهر الى حيث يقف العرب . فلما قطع الروم النهر وتوغلوا قليلاً ، أمر خالدُ بن الوليد عمروَ بن العاص بأن يقطع بالجيش الذي تحت امرته النهر من الضفة الجَنوبية الى الضفة الشَمالية محاولاً أن يقطع خط الرجعة على الروم . وخاف الروم مغبّة ذلك ، فحاولوا العودة من الضِفة الجنوبية الى الضفة الشمالية . عندئذ أمر خالد الجيشين الباقيين (وكانا بقيادة أبي عبيدة وقيادة يزيد بن أبي سفيان) بأن يتبعا الجيش الرومي المنسحب . وهكذا تقطع الجيش الرومي غرقاً في النهر أو قتلاً على أحدى الضِفتين (رجب ١١ سنة ١٥ = ٢٠ آب ٦٣٦) .

وكان من العوامل التي انتصر بها العرب على الروم في معركة اليرموك وَحدة كلمة العرب واختلاف كلمة الروم : لقد كان عدد جيش العرب قريباً من عدد جيش الروم ، وان كان الشائع أن جيش الروم كان أكبر من جيش العرب أضعافاً مضاعفة . غير أن العرب (وكانوا نحو خمسة وعشرين ألفاً) كانوا مُوحَّدي الكلمة ، وطيدي الايمان بالنصر ، يحاربون ايماناً واحتساباً ويطلبون الشهادة في سبيل الله . أما الروم فكانون ثلاثين ألفاً أو يزيدون ، ولكنهم كانوا أجناساً مختلفة من الروم والعرب والأرمن . وكان قسم كبير من الجنود مقيداً بالسلاسل خوف الفرار . ولما لاح النصر في جانب العرب انحاز أهل الشام (من العرب) من الجانب الرومي الى جانب اخوانهم



العرب على اختلاف بينهم في الدين أحياناً . أما الآراميون من أهل الشام (سورية) فقد استقبلوا العرب بالتّرحيب هرباً من ظلم الروم لهم ومن الاضطهاد الديني الذي كان سائداً في الامبراطورية البيزنطية كلها .

وكان لمعركة اليرموك أهميتان أساسيتان : أولاهما أنها فتحت – بالقضاء على الجيش الرومي – طريق سورية أمام العرب فلم يبقَ ثمت خطُّ دفاعٍ شماليّ آخرُ قبل الدّرب (مضيق بيلان في جبال طوروس ، على تخوم بلادَ الروم – آسية الصغرى) . وأما الأهمية الثانية فهي أن تلك المعركة دلت على مقدرة العرب في الحروب الخارجية كما كانت معركة بدر قد دلت على مقدرتهم في الحرب المحلية .

مشكلة فتح دمشق

في المصادر والمراجع التاريخية إشاراتٌ الى أن دمشق فتحت مرتين ، وفيها نزاع حول فتح دِمَشْقَ عَنوة أو سِلماً . والواقع أن العرب فتحوا دمشق وحمص وسواهما ، قبل أن يخوضوا معركة اليرموك ، عنوة . فلما وجد خالد أنْ لابدّ من معركة كبيرة يقضي فيهاعلى الجيش الرومي (البيزنطي) ، وأن اليرموك كان أفضل مكان لها ، سحب الجيوش من كل مكان وأخلى المدن التي كان العرب قد فتحوها قبل ذلك . فلما انتصر العرب على اليرموك وقضَوْا على الجيش الرومي وانسحب هِرَقْل امبرطور الروم بفلول جيشه الى آسية الصغرى عاد العرب فدخلوا المدن التي كانوا قد أخْلَوها ثم دخلوا سائر مدن الشام من غير أن يلقَوْا مقاومة .

عودة الفتح الى العراق

في هذه الأثناء كان الجيش العربي في العراق بقيادة المثنى بن حارثة يقف في وجه الفرس وينازلهم بقدر . وقد انهزم العرب في معركة الجسر (شعبان ١٣ هـ = تشرين الأول ٦٣٤) وجرح المثنى فيها . ثم انتصروا في الشهر التالي في معركة البُويب . وبعد بضعة أشهر توفي المثنى (صفر من سنة ١٤ هـ = نيسان ٦٣٥) من الجراح التي كانت قد أصابته يوم الجسر .

ويتولى قيادةَ الجيش العربي في العراق سعدُ بن أبي وَقّاص ، وتدور معركة القادسية بين العرب والفرس ثم تنجلي (في آخر ربيع الاول من سنة ١٦ = آخر أيار ٦٣٧) عن انتصار عظيم للعرب بعد خسائرَ جسيمةٍ من العرب والفرس معاً . وكما فتحت معركة اليرموك أبواب الشام أمام العربَ ، فان معركة القادسية فتحت أمامهم أبواب العراق .

فتح القدس

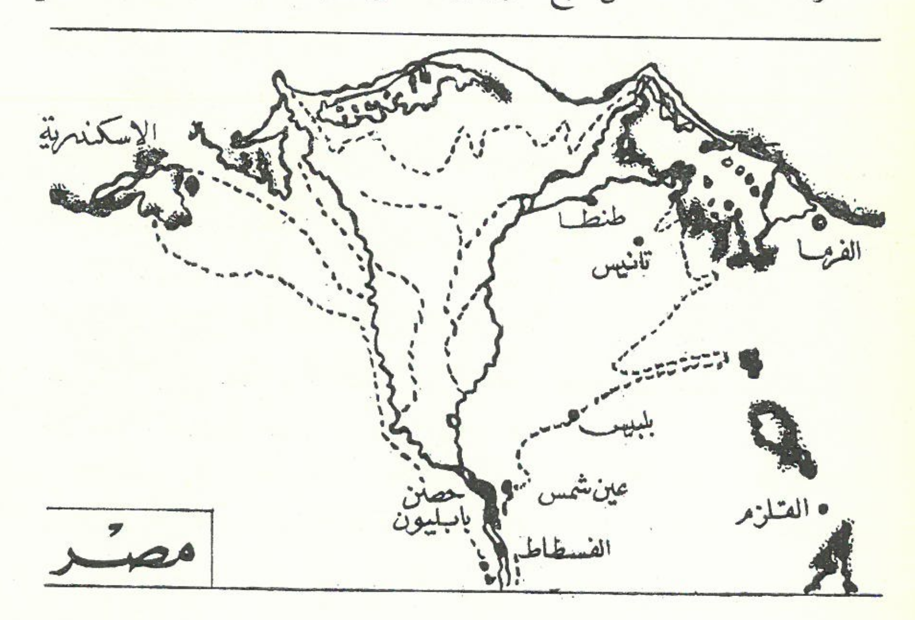
بعد اليرموك اتّجه عمرو بن العاص جَنوباً يفتح البلدان حتّى وقف عند

أسوار القدس . وأدرك بطريرك القدس صفرونيوس أن العرب سيفتحون المدينة لا مَحالَة ، وأن دفاع الروم عنها لا يَعْني الا الخرابَ والدمار وبقاء الظلم والعسف . ويبدو أن صفرونيوس كان من القائلين بالطبيعتين بخلاف الامبرطور هرقل الذي كان يريد جمع البيزنطيين على القول بأن الطبيعتين الالهية والبشرية في المسيح قد اتحدتا وأصبحتا طبيعة واحدة . ثم ان انتصار المذهب الملكي في فلسطين ، مذهب هرَقْل الملك ، يشد أزر اليعاقبة القائلين في الأصل بالطبيعة الواحدة ويضعف طائفة النساطرة التي ينتمي اليها صفرونيوس .

كل هذه العوامل دفعت صفرونيوس الى تسليم القدس الى العرب سلماً ، على أن يأتِيَ الخليفة عمر بن الخطاب شخصياً لتسلّمها . وأدرك الخليفة أن ذلك يحقن دماء العرب أيضاً ، فجاء هو نفسه الى القدس وتسلّمها صلحاً .

الفتح في مصر

ولما استسلمت القدس تابع عمرو بن العاص مسيره نحو مصر فاستولى على



الفَرَما في أوائل سنة ١٩ للهجرة (أوائل عام ٦٤٠ م) ، ثم انحدر جَنوباً في في غرب الى بُلْبَيْس . ومنها الى عين شمس (شمال شرق القاهرة اليوم) حيث تقطع الجيش الرومي .

بعدئذ اندفع عمرو بن العاص بعشرين ألفاً نحو الاسكندرية عاصمة مصر ، وكان يحميها خمسون ألفاً من الروم وأسطول وفير العدد من السفن . من أجل ذلك طال وقوف العرب على الاسكندرية ، من غير أن يتوقفوا عن الفتح في سائر أرض مصر . ولقد فتح العرب الاسكندرية صلحاً سنة ٢١ للهجرة (عام ٦٤٢ م) ثم عاد الروم فاستردوها . وبعد أربع سنوات فتح العرب الاسكندرية نهائياً واطمأنت مصر كلها في حكمهم العادل .

معركة نهاوند

في سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وقعت معركة نَهاوَنْد بين العرب والفرس ، في فارس نفسها ، فانتصر فيها العرب . وكانت معركة نهاوندَ بالاضافة الى فارس كاليرموك بالاضافة الى الشام ، والقادسية بالاضافة الى العراق .

مدى الفتوح

في هذه الاثناء كان العرب قد فتحوا الشام كلها والعراق ومعظم بلاد فارس ، وكانت الاسكندرية قدِ استسلمت لهم .

اعمال عمر بن الخطاب

أقام عمر بن الخطاب الدولة الاسلامية بكل ما يتصل بها . ولعلنا اذا ذكرنا اليوم الدولة الاسلامية لم نجد لها مثالاً في التاريخ كله ، مثالاً صحيحاً واضحاً ، الا في خلافة عمر بن الخطاب . ان عمر بن الخطاب كان منظم الدولة في الاسلام . فمن أعمال عمر المتعلقة بالدولة مباشرة أو غير مباشرة ، من قرب أو من بعد ، ما يلي :

(آ) أجلى عمر أهل الكتاب عن بلاد العرب : أجلى النصارى عن نجران التي في أواسط بلاد العرب ، وأجلى اليهود عن خيبر (قرب المدينة) ، وأخرجهم من شبه جزيرة العرب الى الشام بعد أن دفع لهم ثمن أملاكهم تامة . ويعزى عمل عمر هذا الى أنه أراد أن يجعل بلاد العرب ، وهي مهد الاسلام ، خالصة للمسلمين .

(ب) رفع الجزية عن بني تغلب — الاسلام دين دعوة : أما العرب فلم يُقبل منهم الا الاسلام ، كما يظهر من سورة براءة . وأما أهل الكتاب ، من غير العرب ، فهم أهل ذمة يتمتعون في الدولة الاسلامية بجميع الحقوق والامتيازات ما عدا الخلافة والقضاء والجندية (لأن الحرب في الاسلام جهاد لنشر الدعوة في الدرجة الأولى) ؛ وذلك في مقابل جزية مقطوعة تتراوح بين دينار واحد وأربعة دنانير في العام عن كل قادر على أدائها ، مهما بلغت ثروته .

ولقد كان لبني تَغْلِبَ حال خاصة بهم ، فقد كان كثير من بني تَغْلِبَ في العراق على النصرانية ، ولكنهم ساعدوا العرب على الفرس في معركة القادسية. من أجل ذلك سمح عمر لمعاصريه من بني تغلب بالبقاء على النصرانية ، أما أولادهم فكان يجب أن ينشأوا على الاسلام . ثم ان عمر رفع عن أولئك المعاصرين له من نصارى تغلب الجزية وأوجب عليهم الزكاة (اثنين ونصفاً بالمائة من المال المجموع في العام) ولكن جعلها عليهم مضاعفة (خمسة بالمائة) .

(ج) تمصير البصرة والكوفة (١٧ هـ = ٦٤٨ م) : لما تولى عمر الخلافة وجد أن النزاع على الخلافة لم يهدأ فأراد أن يعيد الهدوء الى المدينة . فبعد أن بنى البصرة والكوفة لتكونا معسكرين أخرج شيعة بني هاشم من المدينة وأسكنهم الكوفة ، وأخرج خصومهم وأسكنهم البصرة . هذا العمل جعل الكوفة والبصرة جبهتين متعاديتين في خلافة عثمان وعلي ، ثم مركزين للفتن والقلاقل في أيام بني أمية خاصة .

(د) تنظيم الفتوح والدولة : كانت سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) سنة قحط حتى سمي عامها عام الرَّمادة (تحولت فيه الأرض الى لون الرماد من شدة القحط) . وفي خريف تلك السنة نفسها وقع الطاعون في قرية عمواس (قرب القدس) فذهب فيه عدد كبير من الناس والجند فيهم أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان . فزار عمر بن الخطاب منازل المسلمين في الشام وعقد مؤتمراً في الجابية (قرب دمشق) لإعادة تنظيم الجيش والبلاد . ثم إنّ عمر جعل معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام مكان أخيه يزيد . ولكن معاوية سلك سبيلاً جديداً وأخذ يُعِدُّ الشام ويتألّف أهلَها ليستقل بها في المستقبل . ومع أن هذه الغاية لم تتّضح منذ أول الأمر ، فان بني هاشم عدّوا تولية معاوية على الشام انتصاراً صريحاً من عمر للأُمويين وتحدّياً لهم . ومنذ مؤتمر الجابية أصبح غربيّ الدولة (أي الشام) تابعاً في الأدارة لمعاوية ، وأخذ معاوية يُهَيِّىء الشام لتكون مركزاً له ولأهله .

(هـ) الإدارة خاصة : ترك عمر الادارة في الشام على ما كانت عليه في أيام الروم (البيزنطيين) . وكانت الشام مقسومة مناطق عسكرية تسمى «أجناداً» على الصورة التالية (من الجنوب الى الشّمال) .

— جُند فِلَسطين (من رفح الى جنوب الناقورة) ، وعاصمته القدس .

— جند الأُرْدُنّ (مِنطقة بحيرة طبرية وحوض نهر اليرموك) ، عاصمته طبرية .

— جند دمشق وهو اكبر الأجناد مِساحةً وأهمية (من جنوب صور الى شمال طرابلس) ، عاصمته دمشق .

— جند حمص (يضم مناطق حمص وحماة واللاذقية) ، عاصمته حمص.

— جند قِنّسرين (يضم مناطق قنسرين وحلب وانطاكية) ، عاصمته قنسرين ، (وهو متأخر النشأة) .

وكان قائد الجيش يتولى عادة الحكم السياسي والأداري فيكون الأمير (الإمام في الصلاة والحاكم والقاضي) . أما الادارة المالية فكان يقوم بهـا شخص مستقل يدعى « العامل » . ولقد استقرت الادارة الاسلامية في أيام أبي بكر وعمر وعمّ الأمن لسببين : أما في البادية فلرغبة البدو في العطاء الذي كانوا ينالونه من الدولة ثم لاشتغالهم بالفتوح عن النزاع الداخلي . وأما في القرى (المدن والارياف) فلأن أهل الكتاب خضعوا للدولة الإسلاميـة برضاهم ، إذ كانوا فرحين بتخلصهم من ظلم الروم واستبدادهم . لقد أصبح النصارى (من الآراميّين أهـلِ الشام والعراق ومن الروم أنفسِهم من أولئك الذين آثروا البقاء في الشام والعراق) واليهودُ يتمتّعون بالاطمئنانِ على أنفسهم وعلى أموالهم ثمّ يقومون بعباداتهم بحرّيّةٍ لم يتمتّعوا بمثلها في أيام الحُكم البيزنطيّ .

(و) الجيش والغنائم : كان الجيش الاسلامي يتألف من مجموع الأمة الاسلامية، وكان الجهاد فريضة على كل مستطيع . أما تنظيمُ الجيش فكان التنظيمَ الروماني ، وكان يدعى « الخميس » لأنه يتألف من خمسة أقسام هي : القلب (أي الجزء الأوفر من الجيش) ثم المقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة . ثم تأتي وراء المؤخرة « الساقة » ، أي الوَحَدات التابعة للجيش (لاعداد الطعام وإصلاح الأسلحة ولوسائل النقل وما إلى ذلك) .

وأمر عمر بأن تبنى معسكرات خاصة للجيش كيلا ينزلَ الجنود في المدن بين أهل البلاد المفتوحة فتفترَ حميّتُهم . وكذلك منع عمر الجنود من الزَواج بأهل تلك البلاد وسمح لهم بأن يعودوا في كل أربعة أشهر مرة الى أهلهم أو أن يحملوا أهلَهم معهم .

وأما غنائم الحرب فالأراضي والعقارات تكون ملكاً للدولة أو للجماعة الاسلامية وتسمى الفيء . وأما الأشياء المنقولة (كالأموال والأشياء والأشخاص الأسرى) فالخمس منها كان يذهب الى بيت المال ، والاخماس الأربعة الباقية كانت توزع على المحاربين الأحياء بعد كل معركة .

(ز) بيت المال (وهو يشبه وزارة المالية اليوم) وكان يتغذى بالمصادر التالية .

— الخمس (خمس الغنائم الحربية) .
— الفيء (الاراضي التي يحتلها الجيش) .
— الخراج (الضريبة على الاراضي التي يملكها الأفراد) .
— الجزية (التي يدفعها أهل الكتاب عن أنفسهم شخصياً) .
— الزكاة (التي يدفعها المسلمون على أموالهم المجموعة وبيوعاتهم) .

ويجب ان نلاحظ ان الأنواع الأربعـة الاولى تنفق في ادارة الدولة ومصالحها ؛ أما النوع الخامس (الزكاة) فينفق على الأشخاص المحتاجين فقط ، ولا يجوز ان تبنى منه أبنية (ولو كانت مدارسَ أو مساجد) ولا ان يدفع منه رواتبُ للموظفين (الا الموظفين الذين يتولّوْن جمع الزكاة وتوزيعها) .

(ح) الديوان (سجلات الحكومة) : أوجد عمر الديوان في الاسلام (نقلاً عن الفرس) لإثبات دخل الدولة الاسلامية ووجوه انفاق ما في بيت المال في مرافق الدولة المختلفة . وكان في الديوان أسماء مستحقي العطاء من الجنود المحاربين وابناء الجنود الذين قتلوا في سبيل الله وأهل بدر خاصة . ثم فيه أسماء المستحقين للعطايا من ورثة أهل بيت الرسول ومن المهاجـريـن والأنصار وورثتهم أيضاً .

(ط) اللغة الرسمية : اصبحت اللغة العربية هي اللغةَ الرسمية للبـلاد الإسلامية مع أن الفهلوية (الفارسية القديمة) والرومية والقبطية ظلت لغاتِ دواوينَ بعد ذلك مدة غير يسيرة .

(ي) انتشار العرب في الارض : خرج العرب الى الشام والعراق ومصر وفارس واستقروا هنالك فأدى ذلك الى نشوء حياة اجتماعية جديدة . أخذ العرب من البلاد المفتوحة أسباب العيش المادي كالسكنى والطعام واللباس

وآداب السلوك ، وتزوجوا من بنات الامم الأخرى . أما البلاد المفتوحة فأخذت من العرب الدين واللغة والثقافة العربية .

(ك) مكتبة الاسكندرية : يزعم بعضهم ان عمر بن الخطاب أمر باحراق مكتبة الاسكندرية اليونانية محتجاً بأنه إذا كان فيها ما يوافق القرآن ففي القرآن غنى عنه ، واذا كان فيها ما يخالف القرآن فلا حاجة اليه . والذي ثبت اليوم ان هذه المكتبة كانت قد تلفت بعوامل مختلفة قبل أن يفتح العرب مصر .

(ل) أمر عمر بن الخطاب أن تُتخذ هجرة الرسول الى المدينة (٦٢٢ م) مبدأ التقويم الهجري (٦٢٢ م = ١ هـ) .

مقتل عمر والشورى

نقم الروم والفرس على عمر بن الخطاب لأنه قوّض أركان امبراطوريتَيْهم فدبروا مقتله . أما الروم فلم ينجحوا . وأما الفرس فنجحوا ، اذ طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر بن الخطاب في صلاة الصبح في ٢٦ من ذي الحجة من سنة ٢٣ (٣ تشرين الثاني ٦٤٤) . ولم يصدق عبد الله بن عمر بن الخطاب أن أبا لؤلؤة مولى المغيرة قد قتل والده عمر من عند نفسه ، بل اعتقد أن الدافع إلى ذلك انما كان الهرمزان فقتله . وقد قال الحطيئة الشاعر ، وكان معاصراً لهذا الحدث العظيم :

أتحصر قوماً أن يجودوا بمالهم؟ فهلاّ قتيلُ الهُرْمُزان تحاصرهْ !

ولم يشأ عمر أن يعين خليفة بعده ، ولا أراد أن يترك المسلمين يختلفون فيما بينهم . من أجل ذلك اختار ستة نفر من كبار الصحابة (من رؤساء الأحزاب ومن المتطلعين الى الخلافة) هم عثمان بن عفّان الأموي ، وعلي ابن أبي طالب الهاشمي ، والزُبير بن العوّام ابن عمة الرسول ، وطَلحة بن عُبيد الله أحد سَراة المدينة ووجوهها ، وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق ، وعبد الرحمن بن عَوْف أحد أغنياء المهاجرين . وقد ضم عمر الى رجال الشورى هؤلاء ابنه عبد الله على ألا يَنتخبَ ولا يُنتخب ، ولكن يُستطلع رأيه اذا

اختلفت الآراء ، ويكون رقيباً على أهل الشورى ومنفّذاً لما يُجمعون عليه .

وقد أوصى عمر رجال الشورى أن يختاروا واحداً منهم للخلافة في مدى ثلاثة أيام . واذا انقسمت الآراء (ثلاثة ضد ثلاثة) فالخليفة هو الذي يسميه الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . أما اذا لم يستطع رجال الشورى أن يختاروا واحداً منهم في المدة المسماة ، فان عبد الله بن عمر يَضرب حينئذ أعناقهم ثم يترك الأمر شورى بين المسلمين .

وتعقدت الأمور كثيراً ، فان الزبير وطلحة وعثمان وعلياً كانوا يتطلعون الى الخلافة تطلّعاً شديداً . وأخيراً اقترح عبد الرحمن بن عوف أنه يُحقّ للذي يتخلى عن حقه في الخلافة أن يسمي الخليفة المقبل ، فلم يشأ أحد أن يفعل ذلك . عندئذ أعلن هو أنه يتخلى عن حقه في الخلافة ثم تقدم الى اختيار الخليفة . وقد رأى عبد الرحمن أن أقوى العصبيات في المدينة عصبية المهاجرين : بني هاشم وزعيمهم علي ، ثم عصبية بني أمية وممثلهم عثمان . وعرض عبد الرحمن الخلافة على علي على أن يسير بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ، فلم يقبل علي لأنه كان يعتقد أن هذين قد حالا بينه وبين الخلافة منذ وفاة الرسول . حينئذ عرضها على عثمان بعد أن اشترط عليه ما كان قد اشترط على علي فقبل عثمان . وهكذا بُويِعَ عثمان بالخلافة وخرج عليٌّ و الزبير وطلحة غاضبين .

عصر الخلفاء الراشدين

(٢) الأزمة السياسيّة في الإسلام

كانت الأزْمة السياسية في الإسلام « نزاعاً على الخلافة » بين بني هاشم وبين بني أمية . هذا النزاع بدأ منذ الجاهلية وبلغ ذروته في أيام عثمان وأيام علي ثم انتهى باستيلاء معاوية بن أبي سفيان على الخلافة .

بدأ العداء الداخلي في قريش قبل الاسلام ، وكان عداء اقتصادياً :

كان لعبد مَناف بن قُصَيّ ولدان : عبد شمس وهاشم . ولقد اتفق انّ حالَ هاشمٍ رقّتْ فاستبد عبد شمس بالتجارة، ثم استبد ابنه أمية بالحرب أيضاً . وهكذا أصبحت السيادة العسكرية والمالية في بني عبد شمس . ومن أجل ذلك اضطر هاشم ثم ابنه عبد المطلب الى ان يكتفيا بالتكسب من التجارة المحلية في أيام المواسم (بالسقاية والرفادة : أي اسقاء الناس وأطعامهم في مواسم الحج) .

هذا التفاوت بين الأخوين هاشمٍ وعبدِ شمس أدّى الى ما يلي :

(١) قَوِيَ فرع عبد شمس (والد أمية) اقتصادياً وعصبياً ، بينما هاشمٌ وآله من بعده أخذوا يضعُفون من هذه الناحية .

(٢) ان انصراف آل هاشم الى السقاية والرفادة (وهما متعلقتان بالكعبة ، وبالتالي بالناحية الدينية من حياة قريش)، جعل آل هاشم يتجهون اتجاهاً دينياً فيه كثير من الوفاء والمُثُل العليا ، بينما اتجه بنو عبد شمس (بحكم اتصالهم بالتجارة والحرب) اتجاهاً دنيوياً مادياً .

(٣) ان هذا التفاوت هو الذي خلق النزاع بين الفرعين القُرَشيين : فرعِ بني هاشم وفرع بني عبد شمس . ولقد كان هذا النزاع ينشَب (فيما بعد) كلما سنحت له فرصة عند انتقال الخلافة من شخص إلى شخص ، أو كلما حدث خلاف حزبي أو شخصي (كالنقمة على عثمان بن عفان وحرب الجمل) .

المظهر الاساسي للنزاع الهاشمي – الأموي

لما ظهر الاسلام كان بنو هاشم ضعفاء اقتصادياً وعصبياً أيضاً، بالإضافة الى بني أمية الذين كانوا اقوياء جداً . من أجل ذلك كان كل تبديل في حياة قريش السائدة يومذاك يضر بني أمية حتماً، وقد ينفع بني هاشم . فلم يكن من المستغرب اذن ان يسرع بنو هاشم الى اعتناق الاسلام وأن يقاوم بنو أميّة الاسلام ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وأخيراً عمّ الاسلام شبه جزيرة العرب ولم يجد بنو أمية مندوحة لهم من الدخول فيه . ولكنّهم دخلوا وهم أقوياء يحاولون الاحتفاظ بجميع الامتيازات الّتي كانت لهم قبل اسلامهم . ولقد استطاعوا ذلك لمكان ثروتهم وعصبيتهم واتجاههم الدنيوي المادي الذي تعوّدوه منذ جاهليتهم .

الا ان هذا أغاظ بني هاشم : كان بنو هاشم يَرَوْن (وهم الذين نصروا الاسلام وجاهدوا في سبيله) أنهم يُقْصَوْنَ عن الحكم شيئاً فشيئاً ليَحلّ مكانهم بنو امية (الذين لم يدخلوا في الاسلام الامتأخرين، وبعد ان اضطُروا الى ذلك) :

١ – توفي الرسول فلم يكن خليفته هاشمياً .

٢ – وتُوُفّيَ ابو بكر بعد أن أوصى لعمر بن الخطاب ؛ وهو غير هاشمي

٣ — ولما توفي عمر لم يظفر بنو هاشم بالخلافة وظفر بها خصومهم بنو اميـــة .

نشوب الأزمة السياسية

ومعَ مجيء عثمان بن عفان الى الخلافة عاد النزاع صريحاً بين بني أمية وبني هاشم ، ذلك لأن عثمان بن عفان نفسَه كان ضعيفاً ؛ وكان فوق ضعفه سيء التصرف في تعيين الولاة وإنفاق الأموال كثير الاستنامة لمشيئة بني أمية . ثم ان بني هاشم قَوُوا وكثر اتباعهم : إما اقتناعاً بحقهم في الخلافة ، أو التفافاً حولهم كرهاً بسياسة عثمان . ولكن اولئك الذين التفوا حول بني هاشم كانوا يطلبون الخلافة لأنفسهم ، وكانوا يـَرَوْنَ ان وجود بني أمية على سدّة الخلافة مانعاً لهم من الوصول اليها . لذلك اتفقوا كلهم على محاربة بني أمية وخلع عثمان ، ولكن لم يتفقوا على الذي يجب ان يخلُفَه .

في خلافة عثمان

(منذ المحرم ٢٤ هـ = تشرين الثاني ٦٤٤ م) .

تلك كانت الحالة النفسية القلقة التي سادت بلادَ الدولةِ الإسلامية لما جاء عثمان بن عفان الى الخلافة .

استمرار الفتوح في البر

(شرقاً) : أخضع العرب بلاد فارس من جديد ثم اخذوا يتوغلون في بلاد التّرك ، شـَمال فارس . ولكن سـَرعانَ ما توقف الفتح للنفور الذي نشأ بين أهل العراق (الكوفة) وبين أهل الشام . كان خط الفتح الشرقي يمرّ من الشام الى العراق (الكوفة) الى المشرق ، فلم يكن بـُدّ من أن يكون الجيش مختلطاً من أهل الشام وأهل العراق . وقد كان الجنود الشاميون (وهم أتباع معاوية وعصبية بني أمية) يرفضون أن يعملوا تحت إمرة أهل الكوفة ، كما كان أهل الكوفة (وهم شيعة آل هاشم) لا يُذعنون لإمرة الشاميين .

(غرباً) : كان سير الفتح في الغرب أسرع ، لأن الفتح في الغرب كان يتجه من الشام رأساً ، وكانت الجيوش التي تَفْصُل من الشام شامية (سورية) خالصة ، أو مؤلفة من شاميين ومن أنصار لبني أمية . ثم كان هذا الخط الغربي نفسُه فرعين : فرعاً شـَمالياً يتجه الى بلاد الروم (آسية الصغرى) ، وفرعاً جَنوبياً يسير مع الساحل الافريقي على البحر الأبيض المتوسط نحو طرابلس الغرب وتونس وما وراءهما .

ومما يـَلفت النظرَ أن العرب لم يحاولوا أن يستقرّوا في بلاد الروم ، بل كانت غـَزَوَاتهم اليها لتحطيم قوى العدو كيلا يستطيع هو أن يغزوَ البلاد العربية بنجاح . ان تاريخ الغزو بين العرب والروم عبر الدّرب (مضيق بيلان في جبال طوروس) كان معاركَ متفرقةً واحتلالاً عارضاً لعدد من القلاع في المناطق القريبة من التخوم على الجانبين ، تسقط مرة في أيدي العرب ومرة في أيدي الروم . فقد وصل العرب في سنة ٢٥ هـ (٦٤٦ م) الى البحر الأسود ، ثم وصلوا بعد ذلك مراراً الى أطراف القسطنطينية من غير أن يستطيعوا احتلالاً أو استقراراً في مكانٍ ما وراء الدرب . أما على الساحل الافريقي فالأمر كان مختلفاً : لقد ثبت العرب في كل مكان نزلوا فيه ثم حالوا بين الروم وبين الرجوع اليه .

سياسة عثمان الادارية

كان عثمان ، من الناحية العملية ، يمثل قومه بني أمية في الخلافة . وكان زعيمَ بني أمية الحقيقي معاويةُ بن أبي سفيان ، والي الشام منذ أيام عمر . أما مروان بن الحكم شيخُ بني أمية فكان كاتباً لعثمان ولكنه كان لا يخرج عن رأي معاوية . ومع مجيء عثمان الى الخلافة كثر بنو أمية في مناصب الدولة . ففي أوائل سنة ٢٤ هـ (أواخر ٦٤٤ م) عزل عثمان المُغيرة بن شـُعبة عن الكوفة وولّى مكانه سعد بن أبي وقّاص . ثم عزل سعداً وولّى مكانه الوليد ابن عـُقْبة أخاه من أمه . وصلى الوليد مرة صلاة الصبح وهو سكران فاضطُرّ

عثمان إلى عزله ، وقد ولّى مكانه أحد أقاربه سعيد بن العاص، وكان شاباً لا تجاربَ له . وكان على البصرة أبو موسى الأشعري منذ أيام عمر ، فعزله عثمان وولّى مكانه (سنة ٢٩ هـ = ٦٥٥ م) ابن خاله عبد الله بن عامر ، وله من العمر خمس وعشرون سنة . واستبد عبد الله بن عامر بالعراق وفارس وعين فيهما رجاله . وقد اشترك ابن عامر ، فيما بعد ، في الفتنة التي قتل في أعقابها عثمان . وفي أثناء ذلك كان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن مصر وولّى مكانه عبد الله بن أبي سَرْح ، أخاه من الرَّضاعة .

الفتح في البحر : معركة السواري

كان عمرُو بنُ العاصِ قد استشار عمرَ بنَ الخطاب في ركوب البحر فلم يأذنْ عُمَرُ له . فلما تولّى عثمانُ خاطبه مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ في ذلك فأذِنَ له . وفي عام ٢٨ هـ (٦٤٩ م) أنزل مُعاوية أولَ عِمارة (أسطول) إلى البحر وجعل عبدَالله بن قيسٍ الجاسي عليها «أميرَ الماء» (ومنها اللفظة الإفرنجية : أميرال) . وفتح معاويةُ في تلك السَّنَة جزيرةَ قُبْرُسَ ثم صالح أهلَها على ٧٢٠٠ دينار في العام ، وعلى أن يَقِفوا على الحياد بينه وبينَ الروم . وقد أعادَ مُعاويةُ الكَرّةَ على قبرسَ (٣٣ هـ = ٦٥٣ م) وفتحها عَنْوة .

وأراد الرومُ الانتقام لقبرسَ فهاجموا الاسكندرية ؛ ثم هاجموها مرة أخرى (٣٤ هـ = ٦٥٥ م) بخَمْسمائة مركب أو تزيد . ولكن عبدَ الله بن ابي سَرْح جمعَ لقتالهم أسطولاً فيه خَمْسُمائة مركبٍ أيضاً وهزمهم في عُرْض الاسكندرية في معركة عرفت باسم معركة السواري (أو الصواري) لكثْرة سواري السفن التي اشتركت فيها .

الفتوح في المغرب :

في هذا الزمن الذي نَدْرُسُ أحداثَه كان المشرقُ كلُّ ما وقع وراء العِراق شرقاً إلى الهند والصين ؛ وكان المَغْربُ كلُّ ما وقعَ غربَ مِصْرَ

(ليبيا وتونس والمغرب الأدنى أو الجزائر والمغرب الاقصى وما وراءه في قارّة إفريقية وفي قارّة أوروبّة) . وكنّا نخصّ باسم « الغرب » بلاد الروم (آسية الصغرى) . واذا نحن قرأنا اسم « إفْريقِيَةَ » في المصادر العربية فيَجِبُ أن نَفْهَمَ به ما يسمّى بالقُطْر التونسي . وقَسَمَ جغرافيّو العرب المغربَ الذي نتكلّم عليه في هذا الكتاب ثلاثةَ أقسامٍ : المغربَ الأدنى (القطر التونسيّ) والمغرب الاوسط (القطر الجزائري) والمغرب الاقصى (ما نَعْرِفُه اليوم باسم المغرب وما وراءه) . وكذلك كانت البلادُ الواقعةُ على الشواطيء الجنوبية الغربية من أوروبة (إيطالية وفرنسة واسبانية) داخلة في المغرب.

— جزيرة الأندلس خاصّة :

أطلقَ العربُ اسمَ « جزيرة الاندلس » على شبه جَزيرة إبارية أو إيبرية (إسبانية والبُرتغال اليومَ) . تقع هذه الشِبْهُ الجزيرة في الطَرَف الجَنوبيّ الغربي من قارّة أوروبّة ومِساحتُها نحوُ سِتّمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) كيلو متر مربّع .

والقسم الأوفر من قَلْب جزيرة الاندلس نَجْدٌ (مرتفع) يتألّفُ من هَضْبتين : الهَضْبة الشَمالية (بلاد ألبَة وقَشْطالة القُصْوى) شَمالَ مجريط (مدريد) ثمّ الهَضْبة الجَنوبية (قشطالة الدُنيا) جَنوبَ مجريط . والجبالُ في جزيرة الاندلس كثيرةٌ متفرّقة في جميع أنحاء البلاد . وكذلك تكثُرُ فيها الأنهار .

ومُناخُ شِبْه جزيرة الأندلس متفاوتٌ بتفاوت سَطْحها ومختلفٌ باختلاف مناطقها . فالمُناخُ في الشَمال باردٌ قارسٌ ، وفي الوَسَط قاريّ (شديدُ الحرّ في الصيف شديد البرد في الشتاء) . أمّا في الجَنوب فالمُناخ معتدل .

وقد قسم العرب سطح جزيرة الاندلس ثلاثةَ أقسامٍ (من الشَمال الى الجَنوب) : المَشْرقَ أو الشرق ، الجَوْفَ أو الوَسَط ، والغَرْب .

الروم في المغرب

إنّ الرومَ (اليونان البيزنطيّين) الذين كانوا يحكُمون الشامَ ومِصْرَ قبلَ الفتح العربي كانوا أيضاً يحتلّون المغربَ كلّه، حتى إنّ البحرَ الأبيضَ المتوسّطَ كان في الواقع بُحيرةً روميّةً؛ إذ كان الرومُ يُسَيْطرون على جميع شواطئه في آسيةَ وإفْريقيةَ وأوروبّة. غيرَ أنّ الرومَ كانوا في ذلك الحين ضعافاً بالمُنازعات الدّاخلية على العَرْش وبالخلافات الدينية التي كانت تَحولُ قِتالاً في الشوارع. وقد كان ضَعْفُ الروم في أوروبّة وإفريقية مثلَ ضعفهم في آسيةَ. فبعدَ أن نَهَكَ الرومَ قُواهم بقتال الفُرْس ظَهَرَ العرب على مسرح التاريخ أمّةً مُوحَّدةً موحِّدةً فأزالوا سَيْطَرَةَ الروم عن الشام ومصر. وهاهم الرومُ الآنَ أيضاً بعدَ نزاعِهِمُ الطويل المُرْهِق معَ البرابرة (القوط الشرقيّين والقوط الغربيّين خاصّةً) يُضْطَرّون الى لِقاءِ العرب في ميادين المَغْرب. وكذلك كان للقوط الغربيّين والفاندال (من البرابرة) شيءٌ من الحكم في جزيرة الأندلس (اسبانية) وفي المغرب (شَماليّ إفريقية) وكان حكمُهُم متفسِّخاً بالخلافات الدينية والسياسية وبظُلْم أهالي البلاد الاصليّين وبالفِسْق المتفشّي في طبَقات الأُسَر الحاكمة.

الفتح العربيّ في المغرب

كان عثمانُ بنُ عفّانَ قد ولّى عبدَ الله بن أبي سَرْحٍ على مِصْرَ (سنة ٢٦ هـ = ٦٤٦ م)، مكانَ عمرو بنِ العاص، وأذِنَ له بغزْوِ إفريقيةَ. سارَ عبدُ الله بنُ أبي سَرْحٍ بجيشٍ فيه نَفَرٌ من مَشاهيرِ الصَّحابة منهم مروانُ ابنُ الحَكَمِ وعبدُ الرحمن بن أبي بكرٍ وعبدُ الله بن الزُّبيرِ وعبد الله بن عُمَرَ وأبو ذؤيبٍ الهُذَليُّ الشاعرُ.

اجْتازَ المُسلمونَ بَرْقَةَ وطَرابُلُسَ (ليبيا اليوم) بلا مقاومةٍ تُذْكَرُ حتى وَصَلوا إلى تُخومِ إفريقيةَ (القُطْر التونسي) فالْتَقَوْا بالملك جَرْجيرَ

وهَزَموه وقَتَلوه — قَتَلَهُ عبدُ الله بن الزُبير — على مَقْرُبَةٍ من عاصمته سُبَيْطِلة (قُرْبَ القَيْروان) ثمّ تابع المُسلمون سيرَهم حتى وَصَلوا الى قَرْطاجةَ (شَمال مدينةِ تُونُسَ).

جمع القرآن للمرة الثانية

أراد عثمانُ بنُ عفانَ أن يعمَلَ نُسَخاً من القرآن الكريم فعَهِدَ إلى زيدِ بن ثابت بأنْ يجمَعَ له القرآن، وكان زيدٌ هو الذي تولّى جمعَ القرآن للمرّة الأولى في أيام أبي بكر. غيرَ أن زيداً رتّبَ السُوَرَ في الجمع الثاني بحَسْبِ طولها، على ما هو في المصاحف إلى يومنا هذا. وأثارَ عبدُ اللهِ بن مسعود القُرّاءَ (حَفَظَة القرآن)، فقدِ اتهم ابنُ مسعودٍ عثمانَ بنَ عفان بتبديلِ ألفاظ القرآن، لأن زيدَ بنَ ثابت لم يقبَلْ عدداً من القراءات الشاذّة التي يَرْويها ابنُ مسعود؛ ولكنْ من المستحسن أن نعلَمَ أنّ ابنَ مسعودٍ كان والياً على الكوفة منذُ أيامِ عُمَرَ بنِ الخطاب وكان عثمانُ قد عَزَلَه عنها.

نفي ابي ذر الغفاري

كان أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ صَحابيّاً تقياً متقشفاً، وقد هالَه انغماسُ شُبّانِ بني أُميّةَ في التَرَفِ فجعَلَ يَحْمِلُ عليهم. وكان أبو ذرٍ يُمَثِّلُ في حَمْلته على شبان بني أميّة رأيَ الصحابة كلِّهم. ولكنّ عثمانَ ضاق صَدْراً بحملة أبي ذر، بتحريضٍ من شبان بني أمية، فنفاه عثمان الى الرَّبَذة (في بادية نجد) فمات هنالك وَشيكاً؛ فكان ذلك سبباً في ازديادِ نقمةِ الناس على عثمان. ولم يَغِبْ وجهُ الحق عن عثمان فحَظَرَ عدداً من الملاهي التي كان شُبّانُ بني أميةَ مُغْرَمين بها كالقِمار. فأغضبَ عثمانُ هؤلاء من غير أنْ يستطيعَ دفعَ نقمةِ الناقمين عليه.

واستغلَّ هذه النقمةَ على عثمانَ رجلٌ يهوديٌّ من اليمن اسمُه عبد الله ابن سَبَأ ، ويُعْرَفُ أيضاً بابن السوداء ، وجعلَ يؤلِّبُ الناسَ عليه منذ سَنة ٣٢ هـ (٦٥٣ م) . ثم انه انتقلَ إلى مِصْرَ وأخذ يُراسِلُ منها الناسَ في سائر الأمصار ؛ وكان يزعُمُ لهم أن محمداً صلىّ الله عليه وسلم سيَرْجِعُ . وكذلك كان يقولُ إنّ علياً وَلِيُّ محمد ، وان عثمانَ مُغْتَصِبٌ ، وإن بني أمية مستبدون يعتقدون أن العراقَ بستانُ قريشٍ (أي أنه طُعمة لهم) .

وأطلّت الفتنةُ برؤوسها في الأمصار . أما عبدُ الله بن عامرٍ فقضى على الفتنة في البصرة . وأما سعيدُ بن العاص فلم يستطعِ القضاء على الفتنة في الكوفة لأن النقمة في الكوفة كانت أشدَّ ، ولأن الكوفيين كانوا في الأصل خصوماً ألدّاءَ للأمويين ، ثم لأنّ سعيدُ بن العاص نفسَه كان مُسْتَضْعَفاً . وهكذا نَجِدُ أن العدلَ الذي جاء به الاسلام في حركته الاجتماعية ذهبتْ به السياسةُ الأموية في سبيلِ السيطرة والحُكْم ، ذلك لأن الأمويين كانوا منذُ الجاهلية تُجاراً ينظُرون أولاً إلى مَصالِحِهِمُ الشخصيةِ المادية .

أما موقفُ الناسِ من عثمانَ فكان كما يلي : جميعُ المهاجرينَ كانوا خصوماً لعُثمانَ (ما عدا حاشيتَه) . وكذلك جميعُ الأنصار كانوا له أعداءً (ما عدا بضعةَ نَفَرٍ ، منهم زيدُ بنُ ثابت وحَسّانُ بنُ ثابت وكَعْبُ بن مالكٍ وأبو أُسيدٍ الأنصاريُّ) ، ثم إنّ مُعْظَمَ أهلِ الأمصارِ كانوا في خصوم عثمان ، وخصوصاً في مِصْرَ والكوفة والبصرة . وبرّر هؤلاء سُخْطَهم على عثمان بأنهم لم ينتخبوه هم ، وانما انتخبه نَفَرٌ من المهاجرين (رجال الشورى الذي عيّنَهم عُمَرُ بنُ الخطاب) استبدوا بالأمر دونَ جميعِ الناس . ونقم على عثمان نفرٌ من رؤوس أهل المدينة : نقم عليه عليٌّ وطلحةُ والزُبيرُ ، لأنهم كانوا يطمَحون إلى الخلافة ففاز عثمانُ بها دونَهم . ونقمت عليه عائشةُ لأنها كانتْ تريدُ الخِلافة لأخيها محمدٍ . وكان من

المنتظر أن يَخِفَّ معاويةُ لنُصْرَةِ عثمانَ ، وهو نسيبُه ووَليّهُ ، فلم يفعلْ . كان معاويةُ يطمَعُ في الخِلافة ، ولم يكن يرجو أن يَصِلَ اليها إلاّ إذا زُحْزِحَ عثمانُ عنها .

وفي شَوّالٍ من سَنة ٣٥ (نيسان ٦٥٦) جاءتْ وفودُ الأقطار الى المدينة تتظاهر بطلب الإصلاح . وكان أشدَّ الوفود نقمةً وفدُ مِصْرَ . ويقال إن عثمان أرضى وفدَ مِصْر بأن كتبَ لهم كتاباً بعزل عبدِ الله بن أبي سرح وتولية محمدِ بن أبي بكرٍ على مصر . غير أن مروانَ بنَ الحَكَم ، كاتبَ عثمانَ ، كتب كتاباً إلى عبد الله بن أبي سرح وختمه بخاتَم عثمان يُوعز فيه إلى عبد الله ابن أبي سَرْح بقتلِ محمد بن أبي بكر إذا وصل الى مصر . ولكنّ ابنَ خَلْدون يرى أن الكِتابَ الذي نَسبوه الى مروانَ كان مُزوّراً على مروانَ ، وأن مروانَ لا يُظَنّ به شيءٌ مما قالوه فيه (المقدمة ، بيروت ٣٨٦ — ٣٨٧) .

ولا ريبَ في أن القومَ كانوا يُريدون قتلَ عُثمانَ كيف دارت الحالُ . وطالَ حِصارُ وُفودِ الأمصار لعثمان وجدالهم إياه . ولقد خَذَلَ الناسُ عثمان : فعمرُو بن العاص كان يُحَرِّضُ عليه علياً وطلحةَ والزبيرَ في المدينة (ابن الأثير ٣ : ٦١ — ٦٣) . وعائشةُ كانت تطوفُ بالناس وتقول : « أقتُلوا نَعْثَلاً[1] فقد كفر » . وأما عليٌّ فذُكِرَ أنه وَقَفَ على الحِياد (لا أقولُ لكمْ اقتلوه ولا أقول لكُمْ لا تقتلوه) . ولما استنجدَ عُثمانُ بعليٍّ وطلحةَ والزبيرِ أرسلوا لحمايته أبناءهم ولم يأتوا هم .

وفي ١٨ من ذي الحِجة من سَنة ٣٥ هـ (١٨ حزيران ٦٥٦ م) تسوّر القومُ الجدارَ على عثمانَ وتولى قتلَه محمدُ بن أبي بكر . ومعَ أن المسعودي يحبّ أن ينفيَ التهمةَ عن محمدِ بن أبي بكر ، فانه يَرْوِي لحسانَ بنِ ثابتٍ أبياتاً في ذلك هي (مروج الذهب ١ : ٣٠٧) :

---

(١) النعثل : الذكر من الضباع ، الشيخ الاحمق ، ويهودي كان بالمدينة ، ورجل لحياني كان يشبه به عثمان (القاموس) .

خذلتْهُ الأنصارُ إذ حضَرَ المو   تُ ؛ وكانت وُلاتَه الأنصارُ .
مَنْ عَذيري من الزبير ومن طل   حة إذ جاءهُ له مقدار ،
فتولّى محمد بن أبي بك   رٍ عِياناً وخلفَه عمّار !

ولحسان في ذلك أيضاً :

يا ليتَ شعْري ، وليتَ الطيرَ تُخبرني   ما كان شأنُ عليّ وابنَ عفانا .
لتَسْمعُنَّ وشيكاً في ديارِهمُ :   الله أكبرُ ، يا ثاراتِ عُثمانا !

علي بن أبي طالب

لم يكنْ في المسلمين يومذاكَ أليقُ بالخلافةِ من عليّ ؛ فأرادتِ الوفودُ التي كانت قد أمّتِ المدينةَ ناقمةً على عثمان أنَ تُبايع عليّاً . وحاولَ عليّ جُهْدَه أن يَظَلَ في مَعْزِلٍ عن الخلافة ، بعد أنِ اضطربتْ أحوالُها . ولكنّ الوفودَ حملته على قَبولِ الخلافة حَمْلاً . من أجل ذلك جاء إلى الخلافة ويَداه مغلولتانِ بالمشاكل . وكانَ أولَ ما جَبَهَه من حرج الموقف أن أمسك عن مبايعته ، في أول الأمر ، نفر من الصحابة كطلحةَ والزبير .

وبدا لعليّ ، بعدَ أن قَبِلَ بتحمل أعباءِ الخلافة ، أن يسيرَ بالحـزم ويؤدِّيَ للخلافة حقّها . ورأى علي أن يَعْزِلَ الوُلاةَ الذين لم يُقِرّوا له بالطاعة وبدأ بالكتابة إلى مُعاويةَ بعزله . ولكنّ معاويةَ كان قد وَطّد حُكمَه في الشام وبسط نفوذه . ولذلك لم يقبَلْ بأن يعتزلَ عملَه ثم كتب الى الإمام عليٍّ يطالبه بالاقتصاص من قَتَلَةِ عُثمانَ . ولم يكن معاويةُ حريصاً على دَمِ عُثمانَ ، بل كانَ يريدُ أن يزيدَ في المشاكل التي تملأ يَدَيْ عليّ بن أبي طالب . ان الذين اشتركوا في مقتل عثمان كانوا كِثاراً ، كما كانوا ذَوِي وَجاهةٍ ونفوذ . ولما دخل قوم على عليّ يطالبونه بمعاقبة الذين قتلوا عثمان قال لهم معتذراً (نهج البلاغة ٣٤٧) : « يا إخوتاه ، لستُ أجهَلَ ما تعلمون ، ولكنْ كيف لي قوةٌ والقومُ المُجْلبون (الضاجّون ، الثائرون) على حدّ شَوْكَتِهم ، يَمْلِكوننا ولا نملكهم .. فهل تَرَوْنَ مَوْضعاً لقدرة على شيء

تريدونه ؟ فَاصْبِروا حتى يهدَأَ الناس .. »

وأخيراً عزَمَ معاويةُ على مِحاربةِ عليّ ، ولكنه أرادَ أن يُضْعفه قبل ذاك ، على ما نَعْرِفُ في تاريخ الحرب والسياسة ، فقدِ استطاع أنْ يُثيرَ بينه وبين طلحة والزبيرِ وعائشةَ امِّ المؤمنين وزوجِ رسولِ الله حربَ الجمل. ثم قال : إنْ ظَفِرَتْ عائشةُ وأصحابُها بعليّ فقد كُفيتُ منافستَه ، وان ظفر عليّ بها وبأصحابها فإنه سيظفَرُ بهم بعد ان يَخْسَرَ كثيراً من قُوّته وجُنْده .
وهكذا كان ، فإنّ المعركة انجلتْ يومَ الخميس في العاشرِ من جُمادى الآخرةِ من سَنَة ٣٦ (كانون الاول ٦٥٦) عن عشرةِ آلافِ قتيلٍ من الفريقين او يزيدون .

ولم يُمْهِلْ معاويةُ الإمامَ علياً طويلاً بعد معركة الجمل فبدأ بخلق المشاكل له في مِصْرَ ثم استولى عليها ؛ وكذلك استبدّ بالشام . ولم يَخْفَ على الإمامِ علي أن الحرب واقعةٌ بينَه وبين معاوية لا مَحالة . ولكنه تعجَّل تلك الحربَ ونقل عاصمته من المدينة المُنَوَّرة – مدينةِ الرسول – في الحِجاز الى الكوفة في العراق ليكون أقربَ إلى الشام إذا نَشِبَت الحرب .

التقى جيشُ مُعاويةَ بجيشِ الإمام عليٍّ في صِفينَ قُرْبَ الرَقّة[1] (في ذي الحجة ٣٦ = حزيران ٦٥٧) . وتذكر اكثر المصادر ان جيش معاوية كادَ ينهزمُ ، فأشارَ عمرُو بنُ العاص – وزيرُ معاويةَ وأحدُ دُهاةِ العرب – على معاويةَ بأن يرفَعَ المصاحفَ على الرماح (قيل كما فَعَلَتْ عائشةُ من قبلُ في معركة الجمل) ويدعو إلى تحكيم كتابِ الله في ما شَجَرَ بين المسلمين من الخلاف .

أدركَ الامامُ عليّ أن تلك خِدْعة ؛ ولكنّ جنده ، الذين كانوا قد سَئِموا الحربَ بعد قتالٍ دامَ ثلاثةَ أشهر ، اضطَرّوه إلى أن يقبَلَ بوَقْفِ القِتال وبالتحكيم ، فوقفَ القتال . وأرادَ كُلُّ فريقٍ ان يختارَ حَكماً :

---

(١) الرقة على الفرات في الجزيرة (شمالي الشام والعراق) .

فاختار معاويةُ عمروَ بن العاص ؛ وأرادَ الامامُ عليٌّ ان يختارَ عبد الله بن عباس لأنه كفؤ لعمرو بن العاص ، ولكن أصحابه أبَوْا ذلك لأنهم كانوا يُريدون رجلاً ألْيَنَ من ابن عبّاس ليشتريَ لهم السِلمَ بكلِ ثمن ممكن . ولذلك وقَع اختيارهم على عبدِ الله بن قيسٍ المعروفِ بأبي موسى الأشعريّ ، وهو رجل طيب القلب ، يَصِفه ابن الطِقطقى[١] بأنه «كان شيخاً مغفلاً» .

وفي ١٣ صَفَرَ سنة ٣٧ اتفق ابو موسى وعمرُو بن العاص على ان يحكّما القرآنَ في الخِلاف الناشب بين المسلمين وكتبا بذلك «صحيفة» . وبعد ستةِ أشهرٍ (رمضان ٣٧ = شباط ٦٥٨) اجتمعا في اذرُح في شرقي الشام (سورية) ونظرا في أمر الخلاف واتفقا فيما بينهما على ان يخلعا علياً ومعاويةَ من الخلافة ويتركا الأمرَ شورى بين المسلمين يُوَلّون على أنفسِهم مَنْ يشاءون . فقال حينئذ أبو موسى لعمرِو بن العاص : تقدَّمْ فقُلْ ذلكَ للناس . فقال له عمرٌو ؛ بل تقدّمْ أنت . فصَعِدَ ابو موسى المنبرَ وقال : «لقد بحثنا فلم نجدْ أجدرَ للمِّ شَعْثِ هذه الامةِ من أن نَخلَعَ علياً ومعاويةَ ونجعلَ الأمرَ شورى بين المسلمين . وإني قد خلعتهما ، فاستقبلوا أمركم وولّوا من شئتم» .

عندها صَعِد عمرٌو المنبرَ وقال : «إن أبا موسى قد خلَعَ صاحبه وانا أخلَعُ من خلع وأُثبت صاحبي – معاوية – فإنه ولي ابن عفان والمطالب بدمه واحق الناس بمقامه» . فأنكرَ ابو موسى على عمرٍو ذلك وعدّه خديعة . ثم انصرفَ اتباعُ الإمامِ عليٍّ ناقمين على ابي موسى ، وانصرف أهلُ الشام فَرِحين . وكانَ اولَ ما فعله معاوية بعد ذلك أن نادى بنفسه خليفة . وهكذا انقسم العالم الاسلامي بين خليفتين : الإمامِ عليٍّ في الشرق ، في جزيرة العرب والعراق وفارسَ ، ثم معاوية في الغرب ، في الشام (سورية) ومصر .

كان جميعُ أهلِ الحجاز وأهل العراق وفارسَ يعتقدون ان الحق بجانب

(١) الفخري، المطبعة الرحمانية بمصر، ص ٦٧ .

الإمام علي وان معاوية أخذ الأمر خدعة ، ولكنهم كانوا – فيما يتعلق بالسياسة التي يجب ان ينهجها الامام علي تِجاهَ معاويةَ – حزبين كبيرين .

أ) حزب سئِم الحربَ واكتفى بما أُصيب به من القتل والبلاء فانطوى أصحابه على كُرْهٍ لمعاويةَ وأهلِ الشام ، ومضَوْا يجادلون عن حق عليٍّ مِنَ الناحية الدينية والشرعية . هؤلاء هم سكان المدن في الأغلب والذين أصبحوا فيما بعد «الشيعة» .

ب) حزب لم يشأ أن ينامَ على ضَيْم ، ولم يرَ في خديعة عمرو لابي موسى مُبرّراً لأن يقبَلَ الإمامُ عليٌّ بما حدث ، فخاطبَ الامامَ علياً بكثيرٍ من الجرأة والتصلّب وقال له : إما ان يكونَ معاويةُ أحقَّ منك بالخلافة فاخلَعْ نفسَك منها واترُكْ له الأمرَ كلَّه ، وإما أن تكون أنتَ صاحبَ الحق وهو المغتصبَ الظالم فسِرْ بنا إليه نقاتله لنُعيدَ الحقَّ الى نِصابه . هؤلاء هم سُكّان البادية في الأغلب ، وهم الذين «خرجوا» فيما بعد من جيش الامامِ عليّ فسمّاهم اعداؤهم «الخوارج» .

ولما لم يستطع الإمامُ عليّ ان يأخذَ برأي الخوارج ، لأن الشيعة يومذاك لم يكونوا يَرَوْنَ القتالَ «بعد ان قُتل في صِفّينَ من كل بيت في الكوفة قتيل او اثنان أو أكثر» ، عدّه الخوارج «كافراً» وجعلوه هو ومعاويةَ – فيما يتعلق بالخلافة – في منزلةٍ واحدة ، ثم أخذوا يحاربونه .

مقتله

اجتمع[١] نَفَرٌ من الخوارجِ بعدَ موسمِ الحج فتذاكروا أمرَ المسلمين فعابوهم وعابوا أعمالهم . ثم ذكروا إخوانهم من الخوارج الذين سقطوا قتلى في معركة النَهْروانِ بالبصرة في حربِ الإمامِ عليٍّ فترحموا عليهم وقالوا : لو شَرَيْنا (بِعْنا) أنفسَنا في سبيل الله فقتَلنا أئمةَ الضلال وأرَحْنا منهم البلادَ والعبادَ وأخذنا بثأرِ إخواننا ! ثم تعاقدوا على ذلك .

(١) مقاتل الطالبين للاصفهاني (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٥٣ هـ) ص ١٧ – ٢٥ .

فقال عبدُ الرحمن بن مُلْجَمٍ المُراديّ : أنا أكفيكم علياً . وقال البُرَك بن عبد الله التميمي : أنا أكفيكم معاوية . وقال عمرُو بنُ بكر التميميُّ : أنا أكفيكم عمرَو بن العاص . ثم أنهم تواثقوا على الوفاء بذلك ، وعلى ان يقوموا بعملهم هذا في ليلة واحدة : في ١٧ رمضان (سنة ٤٠ ﻫ) .

ثم جاء عبدُ الرحمن بن مُلْجَمٍ الى الكوفة واتصل بنفر من الخوارج واتفقوا على ان يكمُنوا في الليلة المعينة في المسجد الجامع ، فاذا خرج الإمامُ عليّ الى صلاة الصبح ثاروا به فقتلوه . وقد نفذ هؤلاء مؤامرتهم هذه ، فقتل الامام عليّ كرم الله وجهه (٢٤ كانون الثاني ٦٦١) . ولكن الاضطراب الذي أراد الخوارج ان يسكن بقتل الامام علي لم يسكن .

أما معاويةُ فإنه جُرح ولم يقتل . وأما عمرو بن العاص فلم يخرج في ذلك اليوم إلى صلاة الصبح ، بل أناب عنه خارجة بن أبي حبيبة ، صاحب شرطته . وقد قُتل خارجة خطأً .

خلفاء بني أميّة

(أ) الفرع السفياني

١ – معاوية : والي سورية (١٥ ﻫ = ٦٣٧ م)
نادى بنفسه خليفة في الشام .
أخذ الأمر من الحسن بن علي (٤١ ﻫ = ٦٦١ م)
خليفة على العالم الا سلامي كله (٤١ ﻫ = ٦٦١)

٢ – يزيد بن معاوية : تولى الخلافة في رجب ٦٠ = نيسان ٦٨٠ .
كربلاء ١٠ المحرم ٦١ = ١٠ تشرين الاول ٦٨١ .

٣ – معاوية بن يزيد : ربيع الاول ٦٤ = منتصف تشرين الثاني ٦٨٣ .

(ب) الفرع المرواني

٤ – مروان بن الحكم	تولى الخلافة :	في ذي القعدة ٦٤ = حزيران ٦٨٤
٥ عبد الملك بن مروان	= =	رمضان ٦٥=نيسان ٦٨٥
٦ – الوليد بن عبد الملك	= =	شوال ٨٦ = تشرين الاول ٧٠٥
٧ – سليمان بن عبد الملك	= =	جمادى الثانية ٩٩ = آخر شباط ٧١٥
٨ – عمر بن عبد العزيز بن مروان	= =	صفر ٩٩ = تشرين الاول ٧١٧
٩ – يزيد بن عبد الملك	تولى الخلافة	رجب ١٠١ = شباط ٧٢٠
١٠ – هشام بن عبد الملك	= =	شعبان ١٠٥ = كانون الثاني ٧٢٤
١١ – الوليد بن يزيد بن عبد الملك	= =	ربيع الثاني ١٢٥ = شباط ٧٤٣
١٢ – يزيد بن الوليد بن عبد الملك	= =	رجب ١٢٦ = نيسان ٧٤٤
١٣ – ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك	= =	ذي الحجة ١٢٦ = تشرين الاول ٧٤٤
١٤ – مروان محمد بن مروان	= =	٢٦ صفر ١٢٧ = ٧ كانون الاول ٧٤٤

– انتهت خلافته بسقوط الدولة الأموية ومبايعة ابي العباس السفاح في ١٢ ربيع الثاني ١٣٢ = ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ م .
– قتل آخر ١٣٢ ﻫ = آب ٧٥٠ م .

دولة بني أمية في الشام

الفرع السفياني وتأسيس الملك في بني أمية

معاوية بن أبي سفيان

إنّ مقتلَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ أزاحَ مُنافساً قوياً من وجهِ مُعاويةَ ولكنْ لم يُنْهِ النزاعَ بين بني أميةَ وبني هاشمٍ ، فإنّ الهاشميين سرعانَ ما نصبوا الحسَنَ بنَ عليٍّ خليفةً مكان أبيه . ولكنّ الحسنَ لم يكنْ مثلَ أبيهِ ولم يكنْ كُفْؤاً لمعاويةَ . ولم يجِدْ معاويةُ صعوبةً في إزاحة الحسن من طريقه ، ذلك لأنّ الحسن لم يطلُبْ للتنازل عن الخلافة اكثرَ مما كان في بيتِ مالِ الكوفةِ (قيل : نحو خمسة ملايين درهم) .

عام الجماعة

بعد هذا الاتفاق بينَ معاويةَ والحسنِ بن عليٍّ عادتِ الأقطارُ الإسلاميةُ تحتَ حكمِ خليفةٍ واحد ، تحت حكم معاويةَ بن أبي سُفيانَ ، سنَةَ ٤١ هـ (٦٦١ م) ، فسُمّيَ هذا العامُ عامَ الجماعة ، ذلك لأنّ الحُكمَ في الإسلامِ كان قدِ انشقّ بينَ عليٍّ ومعاويةَ بعدَ التحكيم في أعقاب معركةِ صِفّينَ فعاد الآن إلى الالتئام والاجتماع .

المصاعب التي ذللها معاوية

أن الصعوبةَ الحقيقيةَ التي واجَهها معاويةُ كانت تتناولُ ما يلي :

(أ) استمالةَ الأقطارِ المختلفة ، ذلك لأنّ الشامَ وحدَها كانت مواليةً لمعاويةَ ؛ أما الحجازُ والعِراقُ وما وراءهما فكانتْ شيعةً لآلِ البيت . وأما مِصْرُ فكانتْ مَعَ عمرو بن العاص . ومَعَ ان عمرَو بنَ العاص كان مُوالياً لمعاويةَ ، فإنه كان يطمَعُ في الأمرِ لنفسِه ، أو يرى نفسَه حليفاً لمعاويةَ على الأقلِّ ، لا تابعاً .

(ب) ايجادَ وُلاةٍ يُديرونَ هذه المقاطعاتِ ويقبَلونَ أن يقِفوا الى جانبِ مُعاويةَ في نِزاعهِ المُقبلِ مَعَ الأحزاب المختلفة .

ورأى معاويةُ ان يبدأ بالعراقِ فولّى على الكوفةِ المُغيرةَ بنَ شُعبةَ ، وهو داهيةٌ (سياسي) مستعدٌ أن يَخدُمَ كلَّ إنسان اذا اتفقتْ هذه الخدمةُ مَعَ مَصْلحته الشخصية . ولقد كان المُغيرةُ يَعْرِفُ حالَ أهلِ العراق ، فقد كان تولّى في أيامِ عُمَرَ ولايةَ البحرين وولاية البَصرة ثم لَعِبَ في الفتنةِ بين عليٍّ وبين عثمانَ ومعاويةَ دوراً خطيراً . وانضم المغيرةُ الآنَ الى معاويةَ وأخذَ يُوقِدُ ناراً بين الخوارجِ وبينَ الشيعةِ فيَشْغَل بعضَهُمْ ببعضٍ ليُتيحَ لمعاويةَ هُدنةً يُثبِّتُ في أثنائها ملكه في دمَشْقَ . وخدَمَ المغيرةُ معاويةَ خدمةً جليلةً لما وَصَلَ بينَه وبينَ زيادِ بن أبيهِ (وكان زيادٌ يتولّى فارسَ من قِبَلِ الإمامِ عليٍّ) ، وذلك سنَةَ ٤٢ هـ (٦٦٢ م) .

كان زيادٌ من الأشخاص الذين لا يُستمالون بالمالِ أو بالجاه (لأنه كان والياً على فارس كلِّها) . ولم يكنْ يُرضيهِ الكلامُ المعسولِ وحدَه ، ولكنه مدخولُ النسبِ (اذ يُقال إن أمَّه سُميَّةَ كانت تتزيّنُ للرجالِ ، وانه هو وُلِدَ سِفاحاً) . ورأى مُعاويةَ أن يستميلَ زياداً اليه بأنْ يَمْحُوَ عنه هذا العارَ فاستدعاه اليه ثم « ألْحقه بنَسَبه » (اعترف به أخاً له) بعد أن أعلنَ أن سُميّةَ قد حَمَلَتْ بابنها هذا من أبي سُفيانَ بنِ حربٍ (والدِ

مُعاوية). ولقد أعدَّ معاويةُ شهوداً شَهِدوا بأن أبا سُفيان كانَ يزورُ سُمية قبلَ الاسلام .

وفي سَنَةِ ٤٥ هـ (٦٦٥ م) جاء زيادٌ والياً على البصرة من قِبَلِ معاوية وألقى خطبته البتراء . ولما تُوُفّي المغيرةُ سَنَةَ ٥٠ هـ (٦٧٠ م) أُضيفَتِ الكوفةُ إلى ولايةِ زيادٍ . ثم ازدادتْ ثقةُ مُعاويةَ بزياد ، فأضافَ معاوية اليه حكم فارسَ أيضاً . وهكذا أصبحَ زيادُ بن أبيه يحكُمُ القِسمَ الشَرقيَّ من البلاد الاسلامية كما كان عَمْرُو بن العاص يحكمُ مِصْرَ وما وراءها . ولم يكن معاويةُ يتمرّس إلا بحكم الشام (سورية) وحدَها . وقام زيادٌ بإصلاحات مختلفة منها إعادة بناء مسجد الكوفة وتبليطُ أرضه حتى لا تعفَرَ جباهَ المُصلّين (أو كيلا يستطيعَ الناقمون ان يلتقطوا الحِجارةَ من أرضه إذا سجدوا ثم يرموا بها الإمام اذا قاموا من سُجودهم) . ثم إن زياداً قضى على العصبية القَبَلية لما أبطلَ العادةَ البدوية القديمة بأن تؤلّفَ كلُّ قبيلةٍ وَحْدةً عسكرية خاصة بها . وجعلَ زيادٌ جُنْدَ البصرةِ أربعةَ أقسام يتألّفُ كلُّ قسمٍ منها من ابناء القبائل المختلفة ، ثم جعل على كل قسمٍ من هذه الاقسام قائداً مُوالياً لبني أمية .

الفتح في الشرق

بدأ العرب غَزْوَ السِنْدِ منذُ أوائلِ الدولة الأموية ، ثم غزاها في سَنَةِ ٤٤ هـ (٦٦٤ م) المُهَلَّبُ بنُ ابي صُفْرَةَ . ولكنَّ الغزوَ المنظم هنالك بدأ في ولاية زيادِ بن أبيه على العراقين (البصرة والكوفة) . ففي سنة ٥١ هـ (أول ٦٧١ م) وليَّ زيادُ بنُ أبيهِ الربيعَ بنَ زيادٍ الحارثيَّ على مقاطعة خُراسانَ وأمره ان يُسيِّرَ خمسين ألفاً من أهلِ البَصرة والكوفة بعيالهم فيُسْكِنَهم خراسان ففعل . ومنذ ذلك الحين جعل العربُ المتوطنون على تخومِ السِند يَغْزُونَ تلك البلاد .

على ان لسياسةِ توطينِ العربِ في خُراسانَ سيئةً كبيرة : إن هؤلاء

الذين أرْسلوا إلى خُراسانَ كانوا يَمَنيةً وقَيْسيةً ، وكان أكثرُهم شيعةً لآلِ البيت . وظنَّ زيادٌ يومئذاك أنه إذا أبْعَدَ هؤلاء عن مركزِ السياسة الأموية في العراق فقد أمِنَ خَطَرَهم على السياسة العامة (كما كان عمرُ بن الخطاب قد ظنَّ من قبلُ لما أخرج حزبَ آل البيت وخصومهم عن المدينة الى الكوفة والبصرة) والواقعُ أن زيادَ بنَ أبيهِ قد أتاح بعمله هذا لخمسينَ ألفاً من الناقمين على بني أمية أن ينظّموا جُهودَهم ويُوسِعوا دائرةَ نفوذِهم في مكان بعيد عن مراقبة بني أمية .

وتوفي زياد بن أبيه يوم الثلاثاء في الرابع من رمضان ٥٣ (٢٣ آب ٦٧٣) وله من العمر ثلاث وخمسون سنة ، فخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسِيد سنة ٥٣ هـ ، ثم الضحاك بن قيس الفِهري سنة ٥٥ هـ ، ثم عبد الرحمن الثَقَفي سنة ٥٨ هـ ، ثم النعمان بن بشيرٍ الانصاري سنة ٥٩ هـ . وأما البصرة فقد تولاها بعد موت زياد بن أبيه سَمُرة (بضمتين) ابن جُندب الفَزاري سنة ٥٣ هـ ، ثم عبدالله بن عمر بن غَيلان سنة ٥٤ هـ ، ثم أُعطيت لعُبيد الله بن زياد بن أبيه سنة ٥٥ هـ . وكانت فارس مقسمة بين أبناء زياد بن أبيه . وقد بقي عبيد الله بن زياد على البصرة الى وفاته ، كما أنه تولى خراسان مدة . هذه التبديل الكثير للولاة على البصرة والكوفة يدل على أمرين : على اضطراب الأحوال في العراق وعلى اهتمام الامويين بالعراق .

ولا ريب في أن عبيد الله بن زياد كان والياً مقتدراً وكان من أنصار بني أمية الأوفياء ، ولكنه لم يكن مقتدراً كقدرة أبيه في الادارة ولا كانت له حِكمة أبيه في تصريف الأمور وفي الوفاء لبني سفيان . على أن أثر هذين النقصين في عبيد الله لم يظهر في أيام معاوية ، بل في أيام يزيد .

الصوائف والشواتي

كان للعرب منذ العصر الاموي غزوتان في كل عام الى بلاد الروم ، في العادة : احداهما في الصيف تسمّى « الصائفة » ، والثانية منهما في الشتاء

وتسمى « الشاتية » . ولقد كانت الصوائف أحب الى العرب لأنهم كانوا أكثر احتمالاً للحرّ من عدوّهم وأقلّ صبراً على البرد . ويبدو أن العرب لم يستقروا في شَمال الشام وراء أنطاكية . ولما عَجز العرب عن الاستقرار وراء ذلك ، كما عجز الروم عن استرداد شيء من الأرض جَنوب أنطاكية ، تحولت حروب العرب والروم غزَوات كاسحةً للتخريب والتدمير . ولقد أتفق للعرب أن اخترقوا بلاد الروم (آسية الصغرى) ووصلوا الى القسطنطينية وحاصروها من غير أن يستطيعوا استيلاءً عليها . وكذلك ساروا اليها بحراً فلم يقدروا أيضاً عليها .

كان مُعاويةُ في مطلع خلافتــه مشغولاً بتوطيد المُلك لنفسه ولآله وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيدَ بولاية العهد فآثرَ مهادنة كونستانس الثاني (٦٤٢ — ٦٦٨ م) لكي يَتفرّغَ لمعالجة الموقف الداخلي . غير أن الحرب عادت بينَ العرب والروم وشيكاً .

الفتح في المغرب : افريقية

توقّفت الفتوحُ في أثناء الفتنة في أيامِ عثمانَ وفي أيامِ الإمامِ عليٍّ ثمّ تراجعتْ في المغربِ لأنّ الرومَ والفرنجة والبربرَ الذين كانوا لا يزالون على الوثنية كانوا كلّهم يقاومون الفتح الاسلاميّ .

وفي سنة ٤٥ ه (٦٦٥ م) بعثَ مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ جيشاً بقيادة مُعاويةَ بنِ حُديجٍ فيه نفرٌ من مشاهير العرب منهم عبدُ الله بنِ عُمَرَ وعبدُ الله بن الزُبير وعبدُ الملك بن مَروانَ وحَنَشُ بن عبدِ الله الصَنْعانيّ (من صنعاءَ التي عند دِمَشْقَ) لإعادة الكَرّةِ على إفريقية . واستطاعَ معاويةُ بنُ حدُيجٍ أنْ يفتحَ جلولاءَ وثَغرَ بَنْزَرْتَ (وهما في القطر التونسي) . ومنذُ ذلك الحين بدأ انتشارُ الإسلام بين البربرِ .

ثمّ أرسلَ مُعاويةُ بنُ حُديجٍ أسطولاً بقيادة عبدِ الله بن قيسٍ لغزْوِ سِقِلّيّةَ (صقلّية) فلم يستقرّ عبدُ الله بنُ قيسٍ فيها بل عادَ منها بغنائمَ وفيرةٍ .

— بناء القيروان :

وفي سَنَةِ ٤٦ ه سارَ عُقْبَة بن نافعٍ الفِهْريُّ — من قِبَلِ معاويةَ بنِ حُدَيجٍ — بجيشٍ كبيرٍ وفتَحَ فزّانَ وما وراءهــا حتى وصل الى زَويلةَ وغُدامسَ من تُخوم السودان الغَرْبي . فدَخَلَتْ جميع لوبيةَ (ليبيا) في طاعة العرب . بعدئذٍ تقدّمَ عُقبةُ إلى إفريقية (القطر التونسي) وفتح قَفْصَةَ وقَسْطيلية .

وأرادَ عُقبةُ أن يتّخذَ قَيْرواناً (مُعَسكراً ومركزاً عسكرياً دائماً) ، ذلك لأنّ الفُتوح الأولى لم تثبُتْ : فقد كانَ أهلُ إفريقيةَ يُطيعون إذا غزا العَرَبُ البلادَ ، فاذا عادوا عنها عادَ أهلُها الى المعصية ونَقَضوا الصُلْحَ . ويحسُنُ أن نُلاحظَ هنا أن الرومَ والفِرَنْجةَ كانوا قد أجْلَوُا البربرَ عن الشواطىء وسكنوها هم ؛ فالذين كانوا يُقاومون العربَ لم يكونوا البربرَ أهلَ البلاد الأصليّين بَلِ الرومُ والفِرنجةُ وجماعةٌ قليلةٌ من البربر يُشايعونهم .

بنى عُقْبَةُ بنُ نافعٍ « مُعَسْكَرَ » القَيْروان — وهو مدينةُ القيروان اليومَ في القطر التونسي — وكانت القيروانُ مِنْطَقةً على شيءٍ من الخِصْب تَصْلُحُ مرعىً للإبلِ ، كما كان موضعُها باديةً يُشبه ما كان العَرَبُ قد ألِفوهُ في شبهِ جزيرتهم . وكذلك كانت بعيدةً عن البحر لا يَصِلُ إليها الرومُ والفِرَنْجَةُ الذين كانوا يعتمدون في حربِ العرب على أساطيلهم . ثمّ إنّ ذلكَ الموضعَ كان على طريقِ القواقل .

وخَطّ عُقبةُ مُعَسْكَرَه (القيروانَ) سَنَةَ ٥٠ ه (٦٧٠ م) وخطّ فيه مَسْجداً . ومَعَ الأيامِ نزَلَ الناسُ في هذا القيروان الذي أصبحَ وشيكاً مدينةً عظيمةً وعاصمةً شهيرةً ومركزاً من مراكزِ العلمِ والحضارةِ في العالمِ الاسلاميّ .

ـ ولاية عقبة الاولى على افريقية :

في سنة ٥٠ هـ فصَلَ مُعاويةُ بنُ أبي سفيان ولايةَ إفريقيةَ عن ولايةِ مِصْرَ فأقرّ ابنَ حُديجٍ على مِصْرَ وولّى على إفريقية عُقْبةَ بنَ نافعٍ .

ثمّ انّ مُعاويةَ بنَ أبي سُفيانَ عزَلَ ابنَ حُديجٍ عن مصر وولّى مَسْلَمَةَ بنَ مَخْلَدٍ على المغربِ كلّه من التخوم الغربية لِمِصْرَ الى طَنْجَةَ ؛ وهو أوّلُ والٍ جُمِعَ له المغربُ .

وأسْرَعَ مَسْلَمَةُ في عزلِ عُقبةَ عن إفريقيةَ وولّى مكانَه أبا المُهاجرِ ديناراً مَوْلَى بني مخزومٍ . وفي أيامِ أبي المهاجر كانتْ ثورةُ كُسَيْلَةَ : كانَ كسيلةُ من عُظماء البربر ومن المُـوالين للرومِ والذين دخلوا في النصرانية . وقد جَمَعَ كُسيلة جموعاً من الروم والفرنْجَةِ ومن قَوْمه البرانسِ (1) وحاربَ بهم أبا المهاجرِ ، ولكنّه انهزَمَ وتفرّقَ أتباعُه ، فاضطرّ عندئذٍ الى الخُضوعِ لأبي المُهاجرِ وتظاهر بالاسلام .

المبايعة ليزيد بولاية العهد

كانت فكرةُ « الوراثة في المُلْك » غريبةٌ عن العرب . فجَهِدَ معاويةُ بِضْعَ سنوات حتّى استطاعَ أن يمهّدَ لها . ولقـد أشار معاوية سنة ٥١ هـ (٦٧١ م) على المغيرة بنِ شُعبةَ والي الكوفة وعلى زيادِ بن أبيه والي البصرة بأن يبعثا إليه في دِمَشْقَ بوفدينِ من ذوي المَيْلِ الى وراثة الملك وأخْذ البَيْعة ليزيدَ ، ففعلا . أما وفدُ الكوفة فقد زيّن لمعاويةَ المبايعة ليزيدَ بولايةِ العهد . وأما وفدُ البصرة فقد نصَح بالتروّي والتريُّث ، كما كان زيادُ بن أبيه قد أوصاه أن يفعل . ورأى معاويةُ أن نصيحةَ زياد على لسان وفد البصرة في مَحلّها ، وأن مخالفةَ زياد — في هذا الشأن خاصةً — ذاتُ عَقابيلَ فأجّل المبايعةَ حتى تُوُفّي زياد (٥٣ هـ) . ثم خاف معاويةُ أن يُدْرِكَه

(1) كان في البربر فرقان عظيمان : البتر (بضم الباء) والبرانس .

الأجلُ قبلَ تنفيذِ رَغْبته فأخذ البَيْعة ليزيدَ بولايةِ العهد على أهلِ الشام ثم على أهل الكوفة والبصرة ، سَنَةَ ٥٦ هـ . ولكنّ أهلَ الحجاز لم يرضَوْا فسار معاويةُ بنفسهِ على رأس جيشٍ الى مكةَ والمدينةِ وأخذَ على أهلهما البَيْعة ليزيدَ بالقوّة . ولكنْ ظل هنالك نفرٌ لم يقبلوا أنْ يبايعوا طَوعاً ، ولا هم استطاعوا أن يقاوموا ، فسكتوا ثم أخذوا يُعدّون العُدّةَ للانتقاض على بني أميةَ حينما تسنَحُ الفرصةُ . من هؤلاء الحسينُ بنُ عليٍّ وعبدُ الله بن الزُبير .

خلافة يزيد

ماتَ معاويةُ سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) فخلَفَه ابنه يزيدُ . ومعَ أن يزيدَ لم يكنْ له دهاءُ أبيه ولا مقدرته السياسية والإدارية ، فإن الوُلاةَ الذين تركهم معاويةُ بعدَه كانوا ذوي مقدرةٍ وكانوا حراصاً على حفظ الخلافة في بيت معاوية ، فأخلصوا في خدمة يزيدَ كما كانوا قد أخلصوا في خدمة أبيه من قبلُ .

مأساة كربلاء

لم يَنْسَ الكوفيون عداءهم لأهلِ الشام ، ثم ظنّوا أنهم يستطيعونُ أن ينتقموا لأمْسِهِمْ معَ معاويةَ بقتالِ يزيدَ اليومَ . فكاتبوا الحُسينَ بنَ عليٍّ حتى يَقْدُمَ عليهم إلى الكوفة فيحاربوا بني أميةَ تحت لوائه . وكان الحسين عاقلاً فنظر في التاريخ القريبِ فوجد أن الكوفيين قد خذَلوا أباه علياً ثم أخاه الحسنَ من بَعْدُ ، فما يمنعُهم من ان يَخْذلوه هو ؟ فأبى السيرَ إليهم . حينئذ جاء أربعونَ ألفاً من الكوفيين إليه في مكةَ بسلاحهم يُعْلِنون استعدادَهم لخَوْضِ المعركَةِ الى جانبه . فحَسُنَ ظنُّ الحُسينِ بهم ووعَدَهم بالمسير معَهم . وفي أثناء الطريق رأى الحسينُ الشاعرَ الفَرَزْدَقَ ناجياً من عُبيدِ الله بنِ زياد ، فسأله عن موقفِ أهـلِ الكوفة فقال له الفرزدقُ : « قلوبُهم معَكَ وسيوفُهم معَ بني أمية » . ولكنّ الحسينَ تابعَ سيرَه .

ولما علِمَ عبيدُ الله بنُ زياد بقُدوم الحُسينِ أرسلَ اليه الحُرَّ بنَ يزيدَ ليَرُدَّه عن دخولِ الكوفة (أول المُحَرَّم ٦١ = أول تشرينَ الأوّلِ ٦٨٠) فأبى الحسينُ. حينئذ أرسلَ عبيدُ الله الى الحسين جيشاً بقيادة شَمِرِ ابن ذي الجوْشَن، فلقيه شمرٌ في كربلاءَ وقاتله بعد أن خذَلَه جميعُ أصحابه وجميعُ الذين دَعَوه الى الكوفة ثم انضموا الى جيش شَمِر. فأخذ الحسينُ يقول: «اللّهُمّ، احكُمْ بينَنا وبين قومٍ دَعَوْنا لينصُرونا ثم هم يقتُلوننا». ولم يقاتل، مَعَ الحسينِ في كربلاءَ سوى أربعينَ شخصاً من أهل بيته. وتولّى مقاتلةَ الحسين اهلُ الكوفة ولم يشهَدْ قتلَه أحدٌ من أهلِ الشام. واستُشهِد الحسينُ في كربلاء يومَ عاشوراءَ (١٠ من المُحَرَّم) سنة ٦١.

وقد اختلفَ رأيُ الناسِ في الحسين ويزيدَ، في شأنِ كربلاءَ، كما اختلفوا في شأنِ أصحابِ الحسينِ وأصحابِ يزيدَ. وأَحسَبُ أنّ ابنَ خلْدونِ قد بَسَطَ ذلك في مقدمته أحسنَ بَسْطٍ وفَصلَ فيه أحسنَ الفَصْلِ (المقدمة، بيروت ١٩٠٠ م، ص ٣٨٧ — ٣٩٠):

«لما ظَهَرَ فِسْقُ يزيدَ عند الكافّة من أهلِ عَصْرِه بعثتْ شيعةُ أهلِ البيت للحسين أن يأتِيَهُمْ فيقوموا بأمره. فرأى الحسينُ أن الخروجَ على يزيد متعيّنٌ من أجلِ فِسْقه ولا سيّما ممّن له القدرةُ على ذلك، وظنّها من نفسه بأهليته وشوكته[1]. فأمّا الأهليةُ فكانتْ كما ظنّ وزِيادةً، وأمّا الشوكة فَغَلِطَ يَرْحَمُه اللهُ فيها، لأن عصبيةَ مُضَرَ كانت في قريشٍ؛ وعصبيةُ قريشٍ في عبد مَنَاف، وعصبيةُ عبدِ منافٍ إنما كانت في بني أُميةَ تَعْرِفُ ذلك لهم[2] قريشٌ ولا يُنْكِرونه. و[قد] نُسيَ ذلك أوّلَ الاسلام من الذّهول بالخوارق وأمْرِ الوَحْيِ فأغفَلَ (العرب) أمورَ عوائدهم وذَهَبَتْ عصبيةُ الجاهلية ونُسِيَتْ. ولم يَبْقَ الا العصبيةُ الطبيعيةُ في

(١) ظن الحسين ان له شوكة (قدرة) على قتال يزيد لأنه هو أهل للخلافة.
(٢) تقر قريش لبني أمية بذلك (بالعصبية).

الحماية والدفاع يُنْتَفَعُ بها في إقامة الدين وجِهادِ المشركين، والدينُ فيها مُحَكَّمٌ والعادةُ معزولةٌ. حتى إذا انقشعَ أمرُ النبوّةِ والخوارقِ المَهوّلةِ تراجعَ الحُكْمُ بعضَ الشيء للعوائد. فعادتِ العصبيةُ كما كانت ولمن كانت، وأصبحتْ مُضَرُ أطوعَ لبني أميةَ من سواهم بما كان لهم قبلَ الاسلام.

فقد تَبَيَّنَ لك غَلَطُ الحسين، إلا أنه في أمرٍ دُنْيَويّ لا يَضُرُّه الغلطُ فيه. وأما الحكم الشرعي فلم يَغْلَطْ فيه لأنه مَنُوطٌ بظنهِ، وكان ظنّه القدرةَ على ذلك ..... وأما غيرُ الحسين من الصحابةِ الذين كانوا بالحِجاز، ومَعَ يزيدَ بالشام والعراق، ومِنَ التابعين لهم فرأوا أنّ الخروج على يزيدَ — وان كان فاسِقاً — لا يجوزُ لما ينشأ عنه من الهَرْجِ[1] والدماء. فأقْصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحُسين ولا أنكروا عليه ولا أثّموه لأنه مجتهدٌ ..... ولا يذهَبْ بك الغلطُ الى أن تقول بتأثيمِ هؤلاء بمخالفةِ الحسينِ وقُعودِهم عن نصرته ... لأنّ قُعودَهم (عن نصره) كان عنِ اجتهادٍ منهم كما كان فعلُه (حرب الحسين ليزيدَ) عنِ اجتهادٍ منه .... فلا يجوزُ قِتالُ الحُسينِ ليزيدَ (لأنّ الحسينَ كان أضعفَ من يزيدَ عَصَبِيّةً، فالدولةُ كانتْ يومَذاك ليزيدَ ولقومه بني أُمَيّةَ)، ولا يجوزُ ليزيدَ (أن يُقاتِلَ الحسين) بل هُوْ من فِعْلاتهِ المُؤكِّدَةِ لفِسْقِه. والحُسينُ فيها شهيدٌ مثابٌ، وهُوَ على حقٍّ واجتهادٍ؛ والصَحابةُ الذين كانوا مَعَ يزيدَ على حقٍّ واجتهادٍ أيضاً».

وقعة الحرّة

لم يَرْضَ أهلُ الحجازِ عنْ خِلافةِ يزيدَ فبايَعوا عبدَ اللهِ بنَ الزُبيرِ وعزموا على قِتالِ يزيدَ. أَرْسَلَ يزيدُ جيشاً بقيادةِ مُسْلِمِ بنِ عُقْبةَ المُرّيّ فقاتل أهلَ الحِجاز في مكانٍ يُدعى الحَرّةَ (الأرض البركانية)، شرقَ المدينةِ، في ذي الحِجّة من سَنَةَ ٦٣ (آب — أغسطس ٦٨٣ م)

(١) الفتنة والقتال.

ودَخَلَ المدينةَ . ثمّ إنّه سار الى مَكّة يُريدُ قتالَ عبد الله بن الزُبير ، ولكنّه ماتَ في الطريق فتولىّ قيادةَ الجيشِ الأمويِّ بعدَهُ الحُصَينُ بن النُمَيْرِ . وصل الحصينُ الى مكّةَ في الرابعِ من المحرّمِ سَنَةَ ٦٤ (٢ / ٩ / ٦٨٣ م) وأقام حولَها مُحاصراً لها ، ثمّ طالَ حِصارُه إيّاها .

المغرب : ولاية عقبة الثانية

ردّ يزيدُ بنُ معاويةَ ، سَنَةَ ٦٢ هـ (٦٨١ – ٦٨٢ م) ، عُقْبةَ بنَ نافعٍ والياً على المغرب فأعادَ عقبةُ فتحَ ليبيا وإفريقية وأخرجَ منهما الرومَ والفرَنْجَةَ وثَبّتَ الحكمَ العربي على السواحلِ وفي الداخلِ ثمّ تقدّمَ حتى وَصَلَ الى بلادِ السُوس جَنوباً والى شاطىء المحيط الاطلانطيكي غرباً . ثم رَجَعَ عقبةُ من فتوحهِ الجديدة مُطْمَئِنّاً ولكنْ غافلاً عنِ الخَطر المُحيط به : إذ أذِنَ للجيشِ أن يَتَقَدّمه راجعاً الى القَيْرَوانِ وبَقِيَ هو في نَحْوِ ثلاثمائةَ من الجُنْد . انتهزَ كُسيلةُ هـذه الغِرّةَ من عُقْبَةَ – وكان مَعَهُ – فاحتال في مُراسلة الروم والفرَنْجة لانتهاز الفُرْصةِ في عُقبةَ وأصحابه . لَحِقَ بعقبةَ جيشٌ كثيفٌ من الروم والفرَنْجَةِ ومن البربر المُوالينَ لهم واعترضوا عقبةَ ومَنْ مَعَه عند تَهودَةَ ، في بلادِ الزابِ جَنوبَ جبالِ أوراسَ قريباً من بَسْكَرة (في المغرب الاوسط ؛ الجزائر اليوم) فاسْتُشْهِدَ عُقبةُ ومن مَعَه جَميعاً في أواخرِ سَنَةَ ٦٣ هـ (صيف ٦٨٣ م) .

وزَحَفَ كُسيلةُ بِمَنْ مَعَه من الجيوش على القَيْروان ، فوَجَدَ حَنَشُ الصَّنعانيُّ من الحِكمةِ أن ينسحبَ المسلمون الى بَرْقةَ فوافقوه على ذلك .

موت يزيد

في هذه الاثناء تُوُفّيَ يَزيدُ (١٤ ربيع الأوّل ٦٤ = ١١ / ١١ / ٦٨٣ م) فرَفَعَ الحُصينُ بنُ النميرِ الحصارَ عن مكّة وعادَ الى دِمَشْقَ .

كان يزيدُ خليفةً عُمرانياً ومَلِكاً إدارياً : أتمّ نِظام الرَّيِّ في الغُوطة (الحدائق في ضواحي دِمَشْقَ من الشرق والجنوب) وحَفَرَ فيها القناةَ التي تُدعى « نهرَ يزيدَ » فَسُمّيَ من أجلِ ذلك مُهَنْدِسَ بني أُميّةَ . وهُوَ الذي زادَ في المقاطعات الإدارية العسكرية جُنْدَ قِنّسْرينَ[1] حينما اتّسعت الفتوحُ في شَمالِيّ سُوريَةَ ، فأصبحتْ الأجنادُ خَمسةً بعدَ أن كانتْ أربعةً . وكذلك كان يزيدُ شاعراً يُحِبُ الموسيقى ويتَذَوّقُ سائرَ الفنون . إلا أن قِصَرَ خلافته – وهي لم تَزِدْ على ثلاث سَنَوات – والفِتَنَ التي حدثتْ في أيامه قد شَلّتْ يدَه في جميعِ الأعمال الجليلة . وكانت الجيوش العربيةُ تحتل رُودُسَ وتُحاصِر القِسْطنطينيةَ ، منذُ أيامِ مُعاويةَ ، فأمرَها يزيدُ بالعَوْدةِ الى الشام .

معاوية بن يزيد

في هذا العاصفِ السياسي خَلَفَ معاويةُ الثاني أباه يزيدَ ، وكان ضعيفَ الجسم قليلَ العَزْم . فيُقالُ إنه خَشِيَ الفتنةَ الجامحة فآثَرَ اعتزالَ الخلافة . وقيل بل ماتَ من عِلّته وَشيكاً ، وقيل بل دَسّ له الطامعون في الخلافة من أهلِ بيتهِ السُمّ فمات متأثراً به . وترك معاويةُ بنُ يزيدَ الأمرَ بعدَه فَوْضَى .

(١) راجع ، فوق ، ص ١٠٥ .

انتقال الخلافة إلى الفرع المرواني

لما ماتَ مُعاويةُ بنُ يزيدَ كان المطالبون بالخلافة كِثاراً :

آ ـ آلُ عليّ بنِ أبي طالبٍ ، ولكن لم يكنْ فيهم بعدَ معركةِ كَرْبلاءَ من يَليقُ بالخلافة أو من يجسُرُ على الإقدام على المطالبة بها :

(١) محمدُ بن الحَنَفِيَّةِ (ابنُ الإمامِ عليٍّ من امرأتِهِ خَوْلَةَ ، وهي من بني حَنيفةَ) ولم يكنْ راغباً في الخلافة .

(٢) عليُّ بنُ الحسينِ بن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ (وهو زين العابدين) ، وكان لا يزال حدثاً .

ب ـ سائر قريش :

(١) خالدُ بنُ يزيدَ (أخو معاوية بن يزيد) .

(٢) الوليدُ بن عُتبةَ بن أبي سفيان (ابنُ عمّ يزيدَ بنِ معاوية) .

(٣) عثمانُ بنُ عُتبةَ بن ابي سفيان .

(٤) عمرُو بنُ سعيدِ بنِ العاص .

(٥) مروانُ بن الحَكَمِ ، شيخُ بني أميةَ وكاتبُ عثمانَ بنِ عفانَ ، وكان مروانُ يُعَدُّ من دُهاة العرب .

(٦) عبدُ الله بنُ الزبيرِ شيخُ الحِجازِ والثائرُ على يزيدَ بنِ مُعاويةَ .

(٧) عبيدُ الله بن زيادِ بنِ أبيه (وكان معاويةُ قد ألْحَقَ زيادَ بنَ أبيه بنسبِ أبي سُفيان)[1] .

---

(١) راجع ، فوق ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

لم يكنْ بين هؤلاء المتنافسين من يعتمدُ على حِزْبٍ قَويٍّ وأنصارٍ كثيرين سوى مَروانَ بنِ الحَكَم وعبدِ الله بن الزبير . إلا ان مركزَ عبدِ الله ابن الزبير كان أقوى ، اذ كان قد نادى بنفسِه خليفةً بعد مقتلِ الحسينِ فبايعه أهلُ الحجاز والعراقَيْنِ (الكوفة والبصرة) . ثم لما مات معاويةُ الثاني بايعتِ القيسيةُ في الشام ابنَ الزبير لأنهم كانوا ناقمين على يزيدَ وابنه معاويةَ اللذين قدّما اليمانيين في مراتبِ الدولة . وكذلك انضمَ إليه الضحّاكُ بنُ قيسٍ الفِهْري اميرُ دِمَشْقَ يومذاك ، والنّعمانُ بن بشيرٍ الأنصاريُّ اميرُ مِصْرَ ، وزُفَر بن الحارث الكلابي امـيرُ قِنّسْرينَ ، وناتلُ بن قيسٍ الجُذاميّ أميرُ فِلَسْطين . وقد دُعي لابن الزبير يومَذاك على منابرِ مِصْرَ والحجازِ والشامِ والجزيرةِ والعراقِ وخُراسانَ وسائرِ أمصارِ الإسلام إلا طَبَرِيَّةَ من بلادِ الأُرْدُنّ ، فان اميرَها ابنَ بَحْدلٍ الكلبيّ (من بني حارثة بن جَناب) امتنع عن الدعاء لابنِ الزبير أو الدخولِ في طاعته وأرادَ عقدَ الأمرِ لخالدِ بن يزيدَ (لأنّه ابنُ أُختهم ، اذ كانتْ جدّةَ يزيدَ مَيْسونُ الكلبيةُ) . وكذلك أدركَ عُثمانُ بن عُتْبة بن ابي سُفيانَ ان مركَزَهُ ضعيفٌ جِدّاً في هذا الكِفاح السياسي فالتحق بابنِ الزبير .

تطور النزاع بين الاحزاب

(١) أما آلُ عليٍّ فاستغل جاهَهم المختارُ بن أبي عُبيدٍ الثَقَفيّ . إن المختارَ لما فارق ابنَ الزبير وخلع طاعَته وجَحَدَ بَيْعته كتبَ كِتاباً الى عليّ بنِ الحسين السجّاد (زين العابدين) يَعرِض عليه فيه أن يُبايعَ له ويقولَ بإمامتهِ ويُظهر دعوتَه ، ثم أنْفَذَ له مَعَ الكِتاب مالاً كثيراً . فأبى عليُّ ابنُ الحسينِ ذلك وسبّه على رؤوسِ الملأ في مسجدِ الرسولِ وأظهرَ كَذِبَه وفُجورَه وخِداعه للناس بأظهارِ المَيْل إلى آلِ ابي طالب (مروج ٢ : ٢١).

ولما يئس المختارُ من عليّ بن الحسين كتب الى محمدِ بنِ الحنفيةِ بمثل ذلك. ولكنّ عليَّ بن الحسين وابنَ عباس نَصَحا لابن الحنفية بألا يُجيبَ المختار ،

ثم نَصَحَ ابنُ عباسٍ لابن الحنفية بأن يتريَّثَ حتى يَنْجَلِيَ موقفُ ابنِ الزبير . إلاَّ أنّ المختارَ لم يُبَالِ بذلك وأقبلَ يدعو الناسَ على قَدْرِ طبقاتِهم ومقاديرِهم في انفسِهم وعقولهم : فمنهم مَنْ يُخاطبُهُ بإمامةِ محمد بنِ الحنفية ، ومنهم من يُخاطبه بأن المَلَك يأتيه (يأتي المختار) بالوَحْي ويُخبره بالغيب . ثم إن المختار تَتَبَّعَ قَتَلَةَ الحسينِ فقتلهم ، فزاد ميلُ أهلِ الكوفة اليه ومَحَبَّتُهم له فاشتدَّ أمره وكَثُرَ رِجالُه (مروج ٣ : ٢١ — ٢٢) .

وكان لمحمدِ بن الحنفية خاصةً شيعةٌ هي الشيعة الكَيْسانية تقول بإمامته . ثم إنهم تنازعوا بعدَه : فمنهم من قَطَعَ بموتِه ، ومنهم مَنْ زَعَمَ أنه لم يَمُتْ وأنه حيّ في جبال رَضْوى . وقد سُمِّيَ هؤلاء « الكَيسانية » نسبةً الى المختار بن أبي عُبيدٍ الثقفي ، وكان اسمُه كيسانَ ، او نسبةً الى غيرهِ ممن اسمه كيسان (مروج ٣ : ٢٤ — ٢٥) .

(٢) ولما تُوُفِّيَ معاويةُ الثاني كان عبيدُ الله بن زيادٍ أميراً للبصرة فخطب في البصريين وأعلمهم بموتِ مُعاويةَ بن يزيدَ وان الأمرَ شورى لم يُنْصَبْ فيه أحد . ثم حثّهم علي أن يجعلوا الأمرَ فيهم — في أهل العراق — فالأرض في العراق واسعةٌ والنفوسُ كثيرةٌ والأموال في بيت المال وافرة . فقام اشراف البصريين كالأحنفِ بن قيسٍ التميمي وقيس بن الهَيْثَمِ السُلَمي ومُسْمِع بن مالكٍ العبديّ فقالوا : « ما نَعْلَمُ ذلك الرجل غيرَك أيُّها الأميرُ ، وأنت أحَقُّ من قام على أمرنا حتى تجتمع الناسُ على خليفة » . ومَعَ أن عبيدَ الله أبى ذلك في الظاهر ، فانه كتب الى عامله على الكوفة عمرِو ابنِ حُريثٍ الخُزاعيّ يأمره بأن يُدْخل أهل الكوفة في ما دخل فيه أهلُ البصرة . فأبى الكوفيون وقام يزيدُ بن رُويمٍ الشّيباني وأنكر ذلك . ثم خلع الكوفيون ولاية بني أميةَ وإمارة بني هاشمٍ وأحَبّوا ان تكونَ الخلافةُ في الحجاز (مروج : ٣ : ٣٠ — ٣١) .

(٣) ولما خلعَ أهلُ الكوفة عُبيدَ الله بنَ زيادٍ رأى بعضهم ان يُؤمِّروا

على أنْفُسِهم عمرَو بنَ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ . فأبى آخرونَ وقالوا : أما رَضِيَ عمرُو بنُ سعدٍ بقتلِ الحُسينِ حتى أرادَ أن يكونَ علينا أميراً على الكوفة ؟ فبكى الناسُ وأعرضوا عن عمرو (مروج ٣ : ٣١ و ١٠ ، التنبيه ٢٦٢) .

(٤) وكان خالدُ بن يزيدَ أخو معاوية بن يزيد باديَ الحق في الخلافة بين المرشَّحين الأمويين ، لأن الخلافةَ من قبلُ كانت لأبيه ثم لأخيه . ولكنه كان صبيّاً لا يُقاوِمُ ابنَ الزبير ، مَعَ ان بعض الأمويين وأهلَ طَبَرَيَّةَ أرادوها له . وكان مروانُ خاصة يدفَعُه عنها (التنبيه ٢٦٦ ومروج ٣ : ٣٠ ، راجع ٣٥) .

(٥) وأراد الوليد بن عُتبةَ بن ابي سفيان ان يكونَ الأمرُ له . فلما أراد ان يُصَلّيَ على معاويةَ الثاني صلاةَ الجَنازة طُعِنَ في التكبيرة الثانية فسَقَطَ مَيْتاً قبل أن يُتمَّ الصلاة .

(٦) ثمّ قدّم الناسُ عثمانَ بن عُتبةَ (أخا الوليد) فقال له بنو أمية : نُبايِعُكَ ، فقال لهم : على ألاَّ أُحاربَ أحداً ؛ فأبَوْا عليه ذلك . فصار إلى مكّةَ ودخَل في جُمْلة ابنِ الزبير . وهكذا زالَ الأمر عن آلِ حَرْب (آل ابي سفيان) فلم يكنْ فيهم بعدَ ذلك من يَرومُها أو يَتَشَوَّفُ نحوها (مروج ٣ : ٢٠ — ٢١) .

(٧) وكذلك كان عمرٌو الأشدقُ (عمرُو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس) يطلُبُ الخلافةَ لنفسه . فدَفَعَه عنها مروانُ ووَعَدَه بولايةِ العَهْدِ بعدَه كما كان قد وعد بها خالدَ بنَ يزيدَ أيضاً . وظلَّ عمرٌو الأشدقُ يطمَحُ الى الخلافة بعدَ ذلكَ ويُناجزُ عبدَ الملك حتى دبّر عبدُ الملك مقتلَه (مروج ٣ : ٤٦ ، راجع ٣١ — ٣٢ التنبيه ٢٦٦) .

(٨) ولا شكَّ في أن أقوى الطامعين في الخلافة يومَذاك كان مروانَ بنَ الحَكَم ، إذ كان شيخاً مُجَرَّباً وكان بَقِيَّةَ بني أُمَيّةَ في وقته (التنبيه

٢٦٦) وشيخَ بني عبدِ مَناف . وكان مروانُ في أولِ الأمرِ لا يُريدُ مُناجزةَ ابنِ الزبير فمالَ الى مُبايعته . ولكن عُبيدَ الله بنَ زيادٍ مَنَعَه من ذلك وأشارَ عليه باللحاق بِدِمشْق مَقرِّ عُصبته ففعل . وهناكَ رأى انَّ نيلَ الخلافة ممكنٌ فعاد يسعى إليها . غير أنه رأى تشدُّدَ خالد بنِ يزيدَ وعمرِو ابنِ سعيدٍ وابنِ الزُبير في الحِرْص على الخلافة فوَعَدَ الاولَيْنِ بولايةِ العهد بعده (التنبيه ٢٦٦ ومروج : ٣ : ٣٢ ، زاجع ٣٥) ، وعزم على مُحاربة ابن الزبير .

(٩) وأما ابنُ الزبير فقد رأينا من قبلُ انه بُويع في الحجاز والكوفةِ ومِصْرَ والعراقِ وخُراسانَ فلم يكنْ ليَتْرُكَ هذا الأمرَ لبني أمية ؛ فعزَم على مُناجزتهم . وفيما يلي تاريخ هذه المناجزة موجزاً .

كيف استقر الامر لمروان

اجتمعَ بنو أميةَ في الجابية ، في الثالثِ من ذي القَعدة من سنة ٦٤ (٢٢ حزَيران ٦٨٤) ، يتشاورون فأجْمَعوا على عَقْدِ الأمرِ لمروانَ بنِ الحكَم. فلم يَرْضَ نفرٌ من الوُلاة والعُمال ذلك فاستبدّوا بما تحتَ أيديهم من البلدان وأعلنوا الطاعةَ لابن الزبير . ثم ان الضحّاكَ بن قيس عامل مدينة دمشق جمع ثلاثينَ ألفاً من القيسيّة وخَفَّ بهم لقتال مروانَ ، فلَقِيَهُ في مرجِ راهط ، على أميال من دِمَشْقَ ، في آخرِ سَنَةِ ٦٤ للهِجرة ، فقُتل الضحّاكُ وهُزم جيشُه . بعدَئذ سار مروانُ إلى مِصْرَ وانتزعها من طاعة ابنِ الزبيرِ وولّى عليها ابنَه عبدَ العزيز (في أوائل ٦٥ ﻫ) ثم عادَ إلى الشام . ومن الشام أنفذَ مروانُ عبيدَ الله بن زياد في ثمانينَ ألفاً ، فلَقِيَ عبيدُ الله سُليمانَ بن صُرَدَ في أربعة آلاف من التوابين (أي الذين تابوا عن تقاعسهم عن نُصْرة الحسين لما احتاج الحسين الى نصرتهم) فاقتتل الجمعانِ في عينِ الوردة — أو رأسِ العين من أرضِ الجزيرة — (في ربيع الثاني من سنة ٦٥) ، فقُتل سُليمانُ ابنُ صردٍ ومُعْظَمَ جيشه معه ، ثم انْهزَمَ الباقون راجعينَ إلى الكوفة .

موت مروان بن الحكم

في الثالث من رَمَضانَ من سَنَة ٦٥ (منتصف نيسان ٦٨٥) تـوفي مروانُ بن الحكم ، قيل إن امرأته فاختةَ بنتَ أبي هاشم بن عتبة (وهي أيضاً أم خالد بن يزيد بن معاوية) قتَلَتْه بعد أن تنافَرَ مَعَ ابنِها خالد في حديث طويل . وقيل بل طُعِنَ (مَرِضَ بالطاعون) . وكان عُمرُهُ يومَ توفّي نحو ثلاث وستين سنة .

عبد الملك بن مروان ومنافسوه

تولى عبدُ الملكِ بنُ مروانَ الخلافةَ بعد أبيه مروانَ بنِ الحَكَم ، وكان الموقف السياسيُّ في الإسلام كما يلي :

١ — استتبَّ الأمرُ في سُوريَةَ كلِّها وفي مِصْرَ لعبدِ الملك .

٢ — كان أهلُ الحجازِ والعِراق وفارس وخُراسان وما يلي ذلك شرقاً شيعةً لابن الزبير .

٣ — وكان المختارُ مُتَغَلِّباً على الكوفة يُظْهِرُ الدُعاءَ لمحمدِ بن الحنفية ويَجِدُّ في طلب قَتَلَةِ الحُسين ، وهو في الوقت نفسه خصمٌ لعبدِ الملك ولابنِ الزبير . أما ابنُ الحنفيةِ نفسُه فيظهَرُ انه لم يكن يُحبّ أن يَدْخُلَ في ذلك الكفاح السياسي .

بَقِيَ في مَيْدانِ النزاعِ السياسيِّ خصمانِ قويان : عبدُ الملك بنُ مروان وعبدُ الله بن الزبير . ولكنَّ موقف ابنِ الزبير كان أثبت في الظاهـر : فالحجازيون كانوا يريدون رجُلاً منهم ، وأهل العراق وان كانوا لا يحبون ابن الزبير فانهم كانوا يكرهون بني أميةَ أشدَّ الكُرْه . أما مصرُ والشامُ فقد دخلتا في طاعة عبدِ الملك كَرْهاً بعد أن كانتا على طاعةِ ابنِ الزبير .

وأما المختارُ بن أبي عُبيدٍ الثَقَفيُّ فانه كان مَعَ انقلابه على ابنِ الزبير أشدَّ عَداوةً لعبدِ الملك، وخصوصاً بعد أن خرج المختارُ يُطالبُ بدمِ الحسين .

غير أن عبدَ الملكِ كان يتمتع بمزايا لم يكنْ لابنِ الزبير شيء منها : كان عبدُ الملك داهيةً ولم يكن ابنُ الزبير كذلك . وكان عبدُ الملك غيرَ مُنازَع في بني أمية ، إذ كان قد تخلّص من مُناوئيه بالوعدِ والوعيد والقتل ، ولم يكن أمرُ ابنِ الزبيرِ مَجموعاً ، بل كان يعتمد على أناس غرّروا من قبلِه بعليٍّ والحسنِ ومسلم بن عَقيل وبالحسين . وكان عبد الملك يستظهر برجال دُهاة كعبيدِ الله بن زياد وبِشْرِ بن مروانَ والحَجاج بن يوسف ، وسواهم ، ولم يكن حول ابن الزبير أحدٌ من نظائر هؤلاء إلا أخاه مُصْعَباً ، ان جاز ان يُسَوّى مصعب بعُبيد الله او بالحجاج . من أجل ذلك كلّه لم يكن بدّ من ان يأخُذَ عبدُالملك خصمه ابنَ الزبير بالدهاء والسياسة ، وذلك بأن يَضْرِبَهُ بأعدائه قبل ان يتصدّى هو لهم مُباشرةً . غير أن ابنَ الزبير تقرّبَ من الحجازيين عامةً والمكيين خاصةً فأعادَ بناءَ الكعبةِ بعدَ ان كانت قد هُدمت في أيام يزيدَ . ثم إنه جاء بالفُسَيْفِساء التي كان أبْرَهَةُ الحَبَشيُّ قد زين بها كنيسته التي اتّخذها بصنعاء (اليمن) ، ومعها ثلاث أساطين من رُخامٍ فيها وَشْيٌ منقوشٌ قد حُشِيَ السندروس وأنواعَ الألوان من الأصباغ فمن رآه ظنه ذهباً . وكذلك لما شَرَعَ ابنُ الزبير في بناء الكعبة شَهِدَ عنده سبعونَ شَيْخاً من قُريشٍ أن قريشَ حين بَنَتِ الكعبةَ عَجَزَتْ نفقتُهم فنقَصوا من سَعَةِ البيت سَبْعَةَ أذْرُعٍ من أساس ابراهيم الخليل .. فزاد ابن الزبير تلك الأذرُعَ وزَيّنَ الكعبةَ بالأساطين والفُسَيْفِساء وجعل لها بابين : باباً يُدخل منه وباباً يخرج منه (مروج ٣ : ٢٩ — ٣٠) .

وانحاز المختار بن أبي عبيد الى ابن الزبير ثم ارسل أحدَ قُوّادِه ابراهيمَ ابن الأشتر بن مالكِ بن الحارث النَّخَعي الى نواحي المَوْصل ، فالتقى إبراهيمُ ابنُ الاشتر هناك بعُبيد الله بن زيادٍ فقاتله يَوْمَ عاشوراءَ من سَنَة ٦٦ (١٧ آب ٦٨٥) ، فسقط عُبيدُ الله بن زيادٍ قتيلاً مَعَ نفرٍ كثيرين من أشراف دِمَشْقَ وانهزم جيشهُ هزيمةً منكرة .

في هذهِ الأثناء تحرّكَ ملكُ الروم لاوي بنُ فَلَقط (مروج ٣ : ٤٢) ،

ولعله لاونديوس (٦٩٥ — ٦٩٨م) ، يُريدُ غَزْوَ الشام . وكذلك أغارَ الأعرابُ على حِمْصَ وبَعْلَبَكَّ وسواهما ، كما اضْطَرَبَ الأمرُ في دِمَشْقَ نفسِها وهجم العبيدُ والدُعّار والأوْباش على أهلِها وأوقعوا بهم نهباً وتقتيلاً . فلم يَجِدْ عبدُ الملك بُدّاً من مُهادنة مَلِكِ الروم لِيَتَفَرَّغَ لمُجابهة الأحداث الداخلية ، كما كان معاويةُ قد فَعَلَ من قبلُ .

ثم إنّ المُختارَ انقلبَ على عبدِ الله بن الزبير لما وَلّى عبدُ الله بنُ الزبير أخاه مُصْعَباً على العراق سنة ٦٧ هـ (٦٨٧ م) . فسار المختارُ من البصرة حتى نَزَلَ حَروراءَ ، على مقرُبَةٍ من الكوفة ، ومعه المهلّبُ بن أبي صُفْرَةَ الأزدي . ونَشِبتْ بين مُصْعَبٍ والمختار هنالك مَعارِكُ انهزم المختارُ على أثرها وتحصّنَ بمن مَعَه بقصرِ الإمارة في الكوفة . فحاصرهم مُصْعَبٌ . ثم خرج المختارُ وقاتلَ مُصْعَباً ولكنه سَقَطَ في المعركة قتيلاً . وبعدَ مدة يسيرة استسلم سائرُ أصحابِ المختار فَقَتَلَهُمْ مُصْعَبٌ كلّهم (في منتصف رَمَضان ٦٧) ، وكانوا يَزيدون على سبعة آلاف .

واستتب الأمر لمُصْعَبٍ في العراق بِضْعَ سَنَوات . ولكن في سنة ٧٢ هـ التقى عبدُ الملك بنُ مَروانَ بمُصْعَب بن الزبير عند مَسْكَن ، وهي قرية من العراق على شاطىء دجلةَ ، وكان مَعَ عبدِ الملك يومَذاك الحجاجُ بنُ يوسفَ . ووقعتْ بين مُصْعَبٍ وعبدِ الملك معاركُ كثيرةٌ نَهَكَتْهما ، ثم دارتِ الهزيمةُ على مُصْعَب ، وخرّ مصعبٌ قتيلاً ، يوم الثلاثاء في ١٣ من جُمادى الآخِرةِ من سَنَة ٧٢ هـ (تشرين الاول ٦٩١) . وبعد مقتل مُصْعَبٍ دخلَ أهلُ العراق في طاعة عبدِ الملك .

وولّى عبدُ الملك أخاه بِشراً على الكوفة ، وأرسلَ الحجاجَ بنَ يوسف لقتالِ عبدِ الله بنِ الزبيرِ في مَكة ، ثم رَجَعَ هو إلى دِمشْقَ .

وصَلَ الحجاجُ على رأسِ جيشه إلى الحجاز فأقام في الطائف — بين أهله — شُهوراً يستعدُّ للمعركة . ثم بدأ حِصارَ مكّةَ في أوائل شهر ذي القَعدة من

سَنَةَ ٧٢ (نَيْسان ٦٩٢). وطال الحصارُ على مكةَ وتخلّى عن ابن الزبير عددٌ كثيرٌ من أتباعه وجُنْدِه، حتى إن ابني عبد الله بن الزبير، خُبيباً وحَمْزَةَ، تركا أباهما والتحقا بالحجّاج. ولما يَئِسَ ابنُ الزبير من جَدْوى الامتناع من الحجاج بن يوسفَ بالحصار، خَرَجَ لِقتاله فخرّ قتيلاً في جُمادى الثانية من سنة ٧٣ (أيلول ٦٩٢)، وله من العمر ثلاثٌ وسبعون سنَة. وبعد أن أخذ الحجاجُ بَيعة أهل مكّةَ لعبدِ الملك سار الى المدينة وحاصَرَها. وخافَ أهلُ المدينة أن يفعَلَ الحجاجُ بالمدينة ما فعلَه في مكةَ فبايعوا لعبدِ الملكِ طَوْعاً.

الفتح في بلاد الروم

ومَعَ اشتغالِ عبدِ الملك بالمنازعات الداخلية، فان غَزَواتِه الى بلادِ الروم لم تنقطع. وقد غزا نفرٌ من آل مروانَ بلاداً متفرقة في آسيةَ الصُغرى كعَمُوريَةَ وقونية ودورليوم (أسْكي شهر)، وفي أرمينية. أما القائدُ الذي اقترن اسمه بغَزْوِ بلادِ الروم وبالفتوح الجليلةِ فيها فكانَ مَسْلَمَةَ بن عبدِ الملك، وكان نابغةً في الفنون الحربية شُجاعاً، وقد نالَ ثقةَ جميعِ الخلفاء وقادَ جيوشَ الغَزْوِ باسْمهم منذ أيامِ أبيه عبد الملك الى أيامِ أخيه هِشامٍ. ولكنه لم يَلِ الخلافةَ لأنه كان ابنَ أمَةٍ.

وكان الرومُ قد عَجَزوا عن أن ينالوا من البلاد الاسلامية نَيْلاً بالغَزْو، فجعلوا يُرْسلون، منذ أيامِ مُعاويةَ، غارات قَرْصنة على سواحلِ جبل لبنان. ثم أرسلوا جماعات من أهل جبال اللُكام يُعْرَفون بالجَراجمة، نسبةً الى بلدِهِمْ جَرجومة، فانتشروا ما بينَ جَبَلِ كِسْروان وسهل البقاعَ. وقد عُرِف هؤلاء في لبنان باسم المَرَدة، وهو اسم لا نَعْرِفُ وجهَ اشتقاقِه الصحيح، ولعله مشتق من جذْر آرامي يعني «التمرد أو الانشقاق»، إذ ربما كان هؤلاء على مذهب ديني يُخالفُ مذهبَ أهل جبل لبنانَ يومذاك.

وكاد هؤلاء الجراجمةُ يَشْغَلون عبدَ الملك عن مُقارعةِ خصومهِ

الداخليين ويَغُلّون أيْدِيَهُ عنِ القيام بالإصلاح. ولما عَقَدَ عبدُ الملك الصُلْحَ مَعَ الروم سَنَةَ ٧١ هـ (٦٨٩ م) (؟) وقَبِلَ بدَفْعِ أتاوة كبيرة في كُلِّ عام، فاوَضَ يوستنيانوس الثانيَ الأشْرَمَ في أمرِ الجراجمة «والعملِ على نَقْلِهِمْ من تِلال لُبنانَ وسوريةَ والأمانوس. فقَبِلَ يوستنيانوسُ وحطّم بيدِه هذا السورَ النُحاسي الذي كان يَفْصِلُ حدودَه عن حدود خصومهِ العرب والمسلمين»[1]. ومَعَ أن مُعْظَمَ هؤلاءِ الجراجمةِ أُعيدوا الى بلادِهِمْ، فالظاهرُ أنه قد بَقِيَتْ منهم بقايا ذابتْ فيما بعدُ في البيئات المارونية في جبل لبنان. وقد عادتِ الحربُ بين العربِ والرومِ في سَنَةَ ٧٦ هـ (٦٩٤ م) (؟) إلى ما كانت عليه من قبل.

العودة الى الاهتمام بالمغرب

لمّا تُوُفّيَ يزيدُ بنُ مُعاويةَ ونَشِبَ النزاعُ بين الأمويّين على الخلافة ثم اشتغل عبدُ الملكِ بقتالِ ابنِ الزُبيرِ تناسى الأمويّون أمرَ المَغْرِبِ مرّةً واحدة. ولكن عبد الملك — مع ذلك كله — ولّى، سنة ٦٩ هـ زهيرَ بنَ قيسٍ البَلَويَّ على المغرب وأمدّه بجيش كبير. سارَ زُهيرٌ إلى القيروانِ وقاتلَ كُسيلةَ ومَنْ مَعَهُ فَهَزَمَهم وسَقَطَ كُسيلةُ نفسُه قتيلاً. ولكن الرومَ والفرنجةَ عادوا بنَجَدات كثيرة وقاتلوا العرب فاستُشْهِدَ زهيرٌ وكثيرٌ ممّن كانوا مَعَه (٦٩ هـ).

— ولاية حَسانِ بنِ النُعمانِ :

بعد أنْ تَغَلَّبَ عبدُ الملك على ابنِ الزُبيرِ، سَنَةَ ٧٣ هـ (٦٩٢ م)، وجّه إلى المغرب اهتماماً صحيحاً فولّى عليه حسانَ بنَ النُعمانِ وأمدّه بأربعين ألفاً فتغلّبَ حسّانُ على الرومِ والفِرَنْجةِ وبسَطَ نفوذَه على البلاد كلِّها من بَرْقَةَ الى أطراف المغرب الاقصى. وكان البربرُ قد وَلَّوْا على

---

(١) الروم وصلاتهم بالعرب، للدكتور أسد رستم، ص ٢٦٥ (عن اخبار ثيوفانس).

أنفسِهم ـ بعدَ مَقْتَلِ كُسيلةَ ـ امرأةٌ كاهنةٌ تدعى دَهْيا أو دمْيا ، ولكنّ حسانَ بنَ النُعمانِ تغلّب عليها أيضاً وقتَلها فدانَ المغربُ كلُّه للعربِ . ثم ما زالَ الإسلامُ يَنْتَشِرُ في المغرب حتى عمّه في مُدّة يسيرة . وبانتشارِ الاسلامِ بينَ البربرِ في المغربِ تقلّص نفوذُ الرومِ والفرَنْجة عنه وقلّتِ المقاومةُ التي كانَ المسلمون يُواجهونَها هنالك وأصبحَ البربرُ أنفُسهم جيشَ الجهادِ في الاسلامِ بعدَ أن كانتْ جماعاتٌ كثيرةٌ منهم تُقاتل العرَبَ.

ذروة العصر الأموي

الحجاج في العراق

كثُرَتْ ثوراتُ الخــوارج في العراق . وفي سنَةِ ٧٤ هـ (٦٩٣ م) اشتدتْ شوْكَتُ الأزارقة خاصّةً ، وهم أتْباع نافعِ بنِ الأزرق وكان يقولُ : « إنّ جميعِ الناسِ سوى الخوارج كفَرَةٌ يجبُ ان يقتَلوا معَ نِسائهم وأطفالهم » . وأرسل عبدُ الملك الى الخوارج جيوشاً كِثاراً فهزموها ثم غلبوا على الأهواز (جنوبي غربي فارس) . ولما تُوُفّيَ والي العراقِ بِشرُ ابنُ مروانُ ـ اخو عبد الملك ـ ولّى عبدُ الملك الحجاجَ بن يوسف على العراقيْنِ (الكوفة والبصرة) . وهكذا أصبحَ الحجاجُ مُنذُ ٧٤ هـ والياً على الحجازِ كله وعلى اليمن والعراقين .

وكان الخوارجُ في العراق برئاسةِ شَبيبِ بن يزيدَ بنِ نُعيم الشَّيْباني ، فحاربوا الحجاجَ حرباً شديدةً ودخلوا الكوفة في مَطْلع سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) ولكنّ الحجاجَ أرسلَ عليهم جيشاً بقيادةِ المُهلَّبِ بن أبي صُفرةَ ، فهزمهم المُهلَّبُ في آخرِ سنَةِ ٧٧ هـ (٦٩٧ م) . وهلَكَ شَبيبٌ يومَذاك .

إصلاحات عبد الملك

قام عبدُ الملك بوجوه من الإصلاح الداخليّ تُعَدُّ في بابِ توطيدِ الدولة الأموية أبعدَ أثراً من المعارك والفتوحِ . ولا ترانا نَبْعُـــدُ عنِ

الصوابِ إذا دَعَوْنا عبدَ الملك « المؤسسَ الثانيَ » للدولة الاموية ، بعدَ معاوية . ولعلّه المؤسسُ الحقيقيُّ للدولة الأمــوية (دولةِ بني مروانَ في المشرق) . ولولا جهودُ مروانَ وجهودُ عبدِ الملك على الأخص لذهبتِ الدولةُ الأموية بانقراضِ الفرعِ السُفياني . ويبــدو أن مُعْظَمَ وجوهِ الإصلاح التي نعنيها قد قام بها الحجاجُ بنُ يوسفَ ، ولكنها تُنْسَبَ في التاريخ إلى الخليفة لا إلى وَاليه على العراق . فمن هذه الاصلاحات :

(١) نقلُ الدواوين (سجلاّت الدولة) من اللغات القِبْطية (في مصر) واليونانية (في الشام) والفارسية (في العراق) إلى اللغة العربية . إن هذا العملَ الجليلَ قد جعل اللغةَ العربيةَ لغةَ دولة بعدَ أن كانتْ لغةً للحياة الدينية في الاسلام . ولما اضْطُرَّ جميعُ الساكنين في البلادِ الإسلامية الى تعلّمِ اللغةِ العربية (لغةِ الدولة) ، اصْطبغ أولئك السُكانُ بصبغة واحدة وجمعتْ بينَهم ثقافةٌ واحدة .

(٢) سكُّ عُملة للبلاد الإسلامية . كانتِ الطواميرُ (الاوراق الديوانية ، التي تُكْتَبُ فيها رسائلُ الدولة) من صُنْعِ الاقباط (النصارى في مصر) ، وكانتْ موسومةً في أعلاها باسمِ المسيح وعبارةِ التثليث . فأمرَ عبد الملك بأن يُصنعَ للدواوين الأموية طواميرُ متوجّة بالآية : « قلْ : هُوَ اللهُ أحَدٌ » . فطلب ملك الروم بِألاّ يُوَجِّهَ إليه عبدُ الملك رسائلَ فيها ذلك ، وإلاّ فانه يَسُكُّ دنانيرَ يَذكُرُ فيها محمداً (صلى الله عليه وسلم) بما يَكْرَهُه المسلمون (وكان المسلمون يتعاملون بالعُملة الرومية والعملة الفارسية) . فنصح نَفَرٌ من المسلمين لعبد الملك بأن يسكَّ عُملةً خاصة . فبدأ عبدُ الملك سَكَّ الدنانيرِ الإسلامية في سَنَةِ ٧٣ هـ (٦٩٢ م) . إن العُملة المسكوكةَ باللغةِ العربية قد خَلَعَتْ على الدولة العربية شخصيةً مستقلةً وجعلتْ لهـا وجاهةً بينَ العربِ أنفسِهم ولدى الدُوَلِ الأخرى .

خلافة الوليد بن عبد الملك

تُوُفِّيَ عبدُ الملك في ١٤ شوّال من سَنَةِ ٨٦ (٨ أيلول ٧٠٥) ، فخلَفَه ابنُه الوليدُ فشَهِدَ العرب في أيامــه أزهى أيامِهِمْ وأعظمَ فتوحهم . وكانتْ صِلاتُ الوليدِ بالحجّاجِ بن يوسفَ وثيقةً وُدّية ، ذلك لأن ولايةَ العهدِ في أيام عبدِ الملك كانتْ لأخيه عبدِ العزيز . فأشارَ الحجاجُ على عبدِ الملك بأنْ يخلَعَ أخاه عبدَ العزيز من ولاية العهد ويجعلَها لابنــه الوليد ثم لابنه سُليمانَ . فحَفِظَ الوليدُ للحجاجِ هذه اليَدَ وتَرَكَ يَدَ الحجاج مطلقة في العراق .

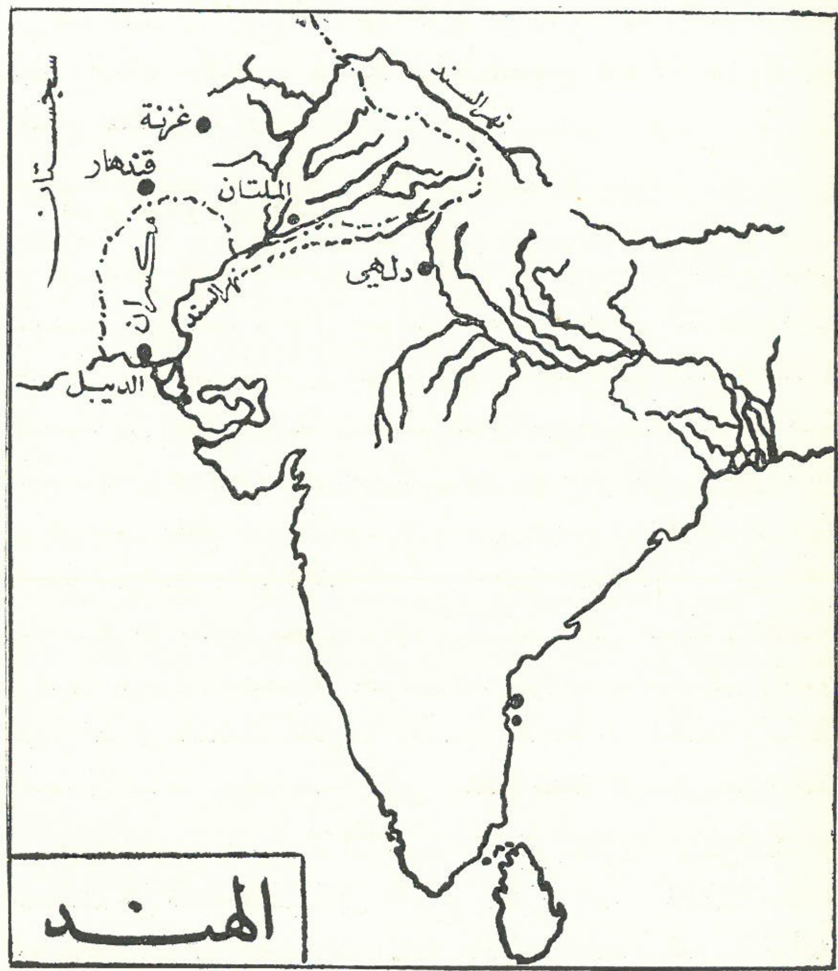
فتوح السند وما وراء النهر

في سَنَةِ ٨٢ هـ (٧٠١ م) ، وفي أواخرِ أيامِ عبدِ الملك ، تُوُفّيَ المُهَلَّبُ بن أبي صُفرةَ والي خُراسانَ وقائدُ الفتح في المشرق ، فولّى الحجاجُ مكانَه ابنَه يَزيدَ بن المهلب . غير ان الفتوحَ لم تَتّسع في المشرق إلا حينما ولى الحجاجُ قُتَيبةَ بن مُسْلم الباهليَّ على خُراسان فقَدِمَها قتيبةُ سَنَةَ ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ، في العام الذي توفي فيه عبدُ الملك . وجعلَ قتيبةُ في كل صيف يقطع نهر جَيْحون غازياً ثم يَرْجِــعُ في الخريف الى مَرْو عاصمةِ خُراسانَ (تجنباً للإشتاء في ما وراء النهر لِشدّة البرد) . وفي ٨٧ هـ أغارَ قتيبةُ على مقاطعة بُخارى وغزا بَيْكَنْد . ولكنَّ الصُغْد (سكان ما وراء نهر جيحون) استمدوا من حَوْلَهم وهاجموا العربَ بعدد كبير وأخذوا عليهم الطُرُق فانقطعتْ أخبارُهم . فأشفقَ الحجاجُ على الجُنْدِ وأمرَ لهم بالدعاء في المساجد . وبعدَ كفاح طويل استطاعَ قُتَيبةُ ان يستوليَ على بيكند .

ثم إن الحجاجَ بنَ يوسفَ أمرَ قُتَيبةَ ان يفتح بُخارى ، ولكنَّ بُخارى استعصتْ على قُتَيبةَ فكَتَبَ إلى الحجاج يُخْبِره بالخبر . فكَتَبَ الحجاج إليه يسأله ان يُرْسِلَ اليه خارطةَ المدينة . ودَرَسَ الحجاجُ الخارطةَ ثم أشار على قتيبة بالخُطة التي يجب ان يَتّبِعَها ، فاستطاعَ قتيبةُ ان يدخُلَ بخارى

(٩٠ هـ = ٧٠٩ م) في أيام الوليد .

وظل قتيبةُ يتوغّلُ في المشرق حتى وَصَل الى كاشْغَر على حدود الصين (٩٦ هـ — ٧١٥ م) ، في أول أيام سُليمانَ وبعدَ وفاةِ الحجاج . ولكنّ العرب لم يدخلوا الصين نفسَها فاتحين ، بلِ انتشرَ الاسلامُ ثم انتشرتِ الثقافةُ الاسلامية فيها معَ تردّد التُجّار إليها .



ثم جهّز الحجاجُ جيشاً من الأحداث بقيادةِ ابنِ عم له اسمُه محمدُ بنُ

القاسمِ بن الحكم الثَقَفيّ وأرسله لفتح السِنْد . فما زال محمدُ بن القاسم يفتح في السِند بلداً بلداً حتى وَصَل الى مرفأها وعاصمتها الدَيْبُل . واعتصم أهلُ الديبل وراء أسوارهم ، فأمرَ محمدُ بن القاسم بالسلالم فنُصِبَتْ وأصْعَد عليها الرجال وفتح المدينة عَنْوة (٩٣ هـ = ٧١٢ م) ، في أواخـر أيامِ الحجاج وأواخر أيام الوليد .

ولاية موسى بن نصير على افريقية والمغرب

وُلِدَ موسى بنُ نُصيرٍ في العراق ، سَنَةَ ١٩ هـ (٦٤٠ م) . ولمّا شبّ أصبحَ جُندياً في حَرَسِ مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ ثم تولّى خَراجَ البصرة . ثم إنّه صارَ وَصيفاً لعبدِ العزيزِ بنِ مَروانَ (في مصر) .

في سَنَة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) قَطَعَ الوليدُ بنُ عبدِ الملك ولايةَ إفريقيةَ والمغرب عن ولايةِ مِصْرَ وولّى عليها موسى بنَ نُصيرٍ . وفي أيام موسى عَمّ الإسلامُ إفريقيةَ والمغربَ واستَتَبَّ فيهما الحُكْمُ العرَبيّ . وأَسْكَنَ موسى في مدينةِ طَنْجَةَ (في شَمالي المغرب على المحيط الاطلنطيكي) سَبْعَةَ عَشَرَ ألفاً من البربرِ وولّى عليها مولاه طارقَ بنَ زيادٍ اللّيْثيّ ثمّ عاد هوَ إلى القَيْروان ، سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) .

فتح الاندلس

كان فتحُ الأندلسِ استمراراً لحركة الفتح العامّة التي خرَجَ بها العربُ من شِبْهِ جَزيرتِهم . وقد كان الباعثُ الأوّلُ للفتح رُوحياً غايتُه نَشْرُ الدعوة . ثمّ كان من البواعثِ خوفُ العرَب من أنْ يُعيدَ القُوطُ والفرَنْجَةُ والرومُ عَلَيْهِمُ الكَرّةَ من الأندلس (أقربِ البلادِ الى المغرب) . وقد كان فتْحُ الأندلسِ يسيراً هَيّناً جداً — أهْوَنَ من فتْحِ الشام والعراق — فقد فتَحَ العرَبُ شِبْهَ جزيرةِ الاندلس (ومِساحتُها ستُّمائة ألفِ كيلومترٍ مربّعٍ) في عامينْ اثْنين . ولقد كان وراءَ هذه السُهولة في الفتح نوعانِ من العوامل :

(أ) العواملُ الإيجابية : كان العربُ أُمّةً فتيّةً مُوحّدةَ القُوى والقلوبِ شُجاعةً بَصيرةً بالحُروب . واتّفق أنْ قَيّضَ اللهُ لها في هذه الحِقْبة قادةً بارعين ووُلاةً قادرين حازمين . ثمّ كان للعربِ هَدَفٌ روحيّ من الإسلامِ يَحْمِلُهم على التَضْحيةِ في الجِهاد ؛ ثمّ إنّهم كانوا في بلادٍ غريبة يَجِبُ أن يعتمدوا فيها على أنفسهم فخَلَقَ ذلك فيهم عزيمةً في جميعِ الأمور . وكذلك كانوا عادلين في حُكْمِ الشعوبِ رُحَماء في مُعاملة الناس أعِفّةً عمّا في أيْدي الآخَرين إذ لم يكنْ للمغانمِ الدُنيوية في نظرِهم قيمةٌ في جَنْبِ الهَدَف الروحيّ الذي كانوا يَسْعَوْنَ إلى تحقيقه .

(ب) وكان ممّا ساعدَ على سُهولةِ الفتح عواملُ سَلْبيةٌ منها : الانشقاقُ في البيت القوطي المالكِ (في اسبانية) — استبدادُ الأشرافِ ورجالِ الدين بعامّةِ الشعب واستغلالُ الشعبِ اقتصادياً ودينياً ونفورُ جمهورِ الناسِ من هاتين الطبقتين — انتشار الرقّ في أسوأ أحواله وابشعِ صُوَرِه — الاستغلالُ الاقتصادي الذي كان اليهودُ يُمارسونه (كانوا يُقْرِضون المَلِكَ والأشرافَ الأموالَ ثمّ يُحاولون تحْصيلَها أضعافاً مُضاعفةً من الشعب) — ثم كان اليهودُ أنفُسهم يُعانونَ من اضطهاد رجال الدين النصارى مُعاناةً حَمَلَتْهم على كُرْه الطبقة الحاكمة — . أما القِصّةُ المَرْويّةُ فيما يتعلق بيُلْيانَ (حاكم مِنْطقة طَنْجةَ وصاحب سبتة) ونقمته على القوط لأنّ المَلِكَ لُذَريقَ قد فَضَحَه في ابنته فهيِ خُرافةٌ ولا يُمْكِنُ أن يكونَ لها، لو كانتْ صحيحةً، — أثرٌ في الفتح الإسلامي للأندلس .

من أجل ذلك كلّه كان أهلُ الأندلسِ يرغَبون في التخلّص من حُكْمِ القوط فاستقبلوا العَرَبَ على أنّهم مُنقِذونَ لهم من الظُلْمِ الذي كانوا فيه . وهذا ساعدَ على السُرْعةِ التي اتّسَمَ بها الفتحُ في الاندلس .

خطّة الفتح في الاندلس

لا ريبَ في أنّ يوليانَ كان من الناقمين على حُكْمِ القوط في الاندلس

لأسباب قوميّة ودينية (فانّ يوليانَ كان بربريّاً من قبيلة غُمارةَ، ولكنّه كان نَصْرانياً على المذهب الكاثوليكيّ المخالف لمذهبِ الطبقة الحاكمة) . من أجل ذلك عَرَضَ على موسى بنِ نصير أن يفتحَ العربُ الأندلسَ .

كان موسى بنُ نصير عاقلاً جداً فلم يَحْمِلْ نصيحةَ يوليانَ، في أولِ الأمر، على مَحْمِلٍ من الوفاء والإخلاصِ التامّين، فطَلَبَ من يوليانَ أن يقومَ بحملة تجريبية على شواطىء الاندلس . وقام يوليانُ بهذه الحملةِ في أواخرِ سَنَةِ ٩٠ هـ (خريف عام ٧٠٩ م) ونَزَلَ على ساحلِ الجزيرة الخَضْراء فقَتَلَ وسبَى وعادَ بغنائمَ كثيرة . وشاعَ خبرُ ذلك بينَ المسلمين فأنِسُوا بيوليانَ .

ومَعَ ذلك فانّ موسى بنُ نصير لم يَطْمَئِنَّ قلبُهُ، فأرسلَ حملةً صغيرةً بقيادة مَوْلىً له اسمُه طريفٌ، في رَمَضانَ من سَنَةِ ٩١ (تموز — يوليو ٧١٠ م)، بمَعُونةِ يوليانَ، ثمّ عاد طريفٌ من غزوتهِ هذه الى طَنْجةَ بغنائمَ كثيرة وبأسرى وبمعلومات أثْمَنُ من تلك الغنائم .

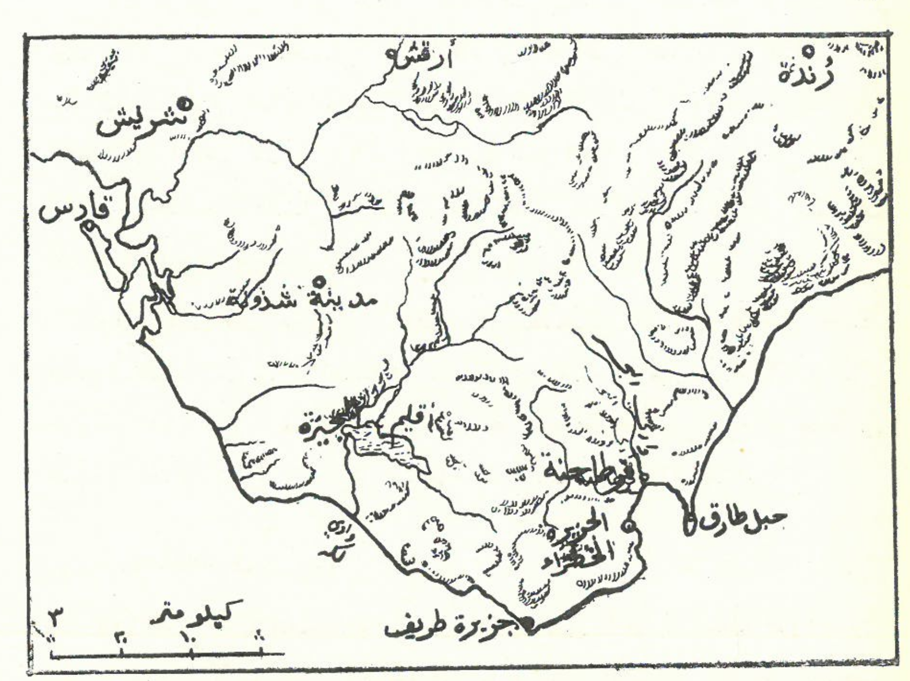
— حملة طارق بن زياد :

وفي العام التالي بَعَثَ موسى بنُ نصير مولىً آخرَ له اسمُه طارقُ بنُ زياد في سبعةِ آلاف رجُل أكثرهم من البربر لفتحِ الأندلس . وانتقل المسلمون من عَدْوةِ المغرب الى عدوة الأندلس في سُفُنِ ليوليانَ ونزلوا في خامسِ رَجَبَ من سَنَةِ ٩٢ (٢٨/٤/٧١١ م) عندَ نُقْطة في أقصى الجَنوب من جزيرةِ الاندلسِ في المكان الذي لا يزالُ يُعْرَفُ إلى الآن باسمِ جبلِ طارق .

— معرَكةُ وادي لَكّةْ (إقليم البحيرة) :

اختارَ طارقٌ مكانَ المَعْرَكةِ ثم فرض مكانَها وزمانَها على خصمه .
نَزَلَ طارقٌ بمُعْظَمِ جيشه على سَفْحِ المرتفعاتِ الواقعة جَنوبَ

مُسْتَنْقعات إقليم البُحيرة ليجعَلَ من هذه المستنقعات حاجزاً بينَه وبينَ القوط ومن تلك المرتفعات حامياً له من أنْ يُباغَتَ من خلْفه . ثمّ ترَكَ الطريقَ بينَه وبينَ الجزيرةِ الخضراء مفتوحاً ليَنْسَحِبَ منه إذا اضْطُرَّ إلى ذلك .



جنوب الأندلس حيث نزل طارق وخاض المعركة

في ذلك الحين كان لُذَريقُ مَلِكُ القوط مشغولاً في شماليّ الاندلس بقتال الفرَنْجة . فلمّا علِمَ بنزول العرب على أرضه انْحدَرَ مُسْرِعاً ولَقِيَ العَرَبَ بجيش كبير جداً ولكنّه مؤلّفٌ من جَماعات مختلفةِ المذاهبِ الدينية والأصول القومية . فاستنجدَ طارقٌ بموسى فأنجدَهُ موسى بخمسة آلاف رجل فأصبحَ الجيشُ العربيُ اثْنَيْ عَشَرَ ألفاً من الرجّالة (المشاة) ، وكان يوليانُ مَعَ طارق يدلُّه على العَوْرات (النُقاطِ الضعيفة في البلاد) ويتَحَسَّسُ له الأخبار .

فلما تَراءى الجَمْعانِ ثَبَتَ طارقٌ في مكانه وأطمعَ لُذَريقَ في أن يَقْطَعَ المستنقعات اليه — على غِرارِ الخُطّةِ التي كان خالدُ بنُ الوليدِ قد رتّبها على نَهْرِ اليَرْموك — . ونَشِبَتْ المعركةُ بينَ العربِ والقُوط في ٢٨ رمَضان من سَنَة ٩٢ (١٩/٧/٧١١ م) .

حاول لُذَريقُ أن يَثْبُتَ في وَجْه العربِ طويلاً فلم يستطعْ . وبعدَ ثمانيةِ أيام من القتال الشديد تقطّع الجيشُ القوطيُّ وانهزَمَ لُذَريقُ على وجهِه ثمّ لم يُعْرَفْ ما حدَثَ له .

كانت مَعْرَكَة وادي لَكُّه (إقليم البحيرة) في الأندلس كاليرموك في الشام والقادسيةِ في العراق ونَهاوَنْدَ في فارسَ : لقد قَضَتْ مَعْرَكَةُ وادي لَكُّهْ على الجيشِ القوطي وفتَحَتْ أبوابَ الأندلسِ أمامَ العرب .

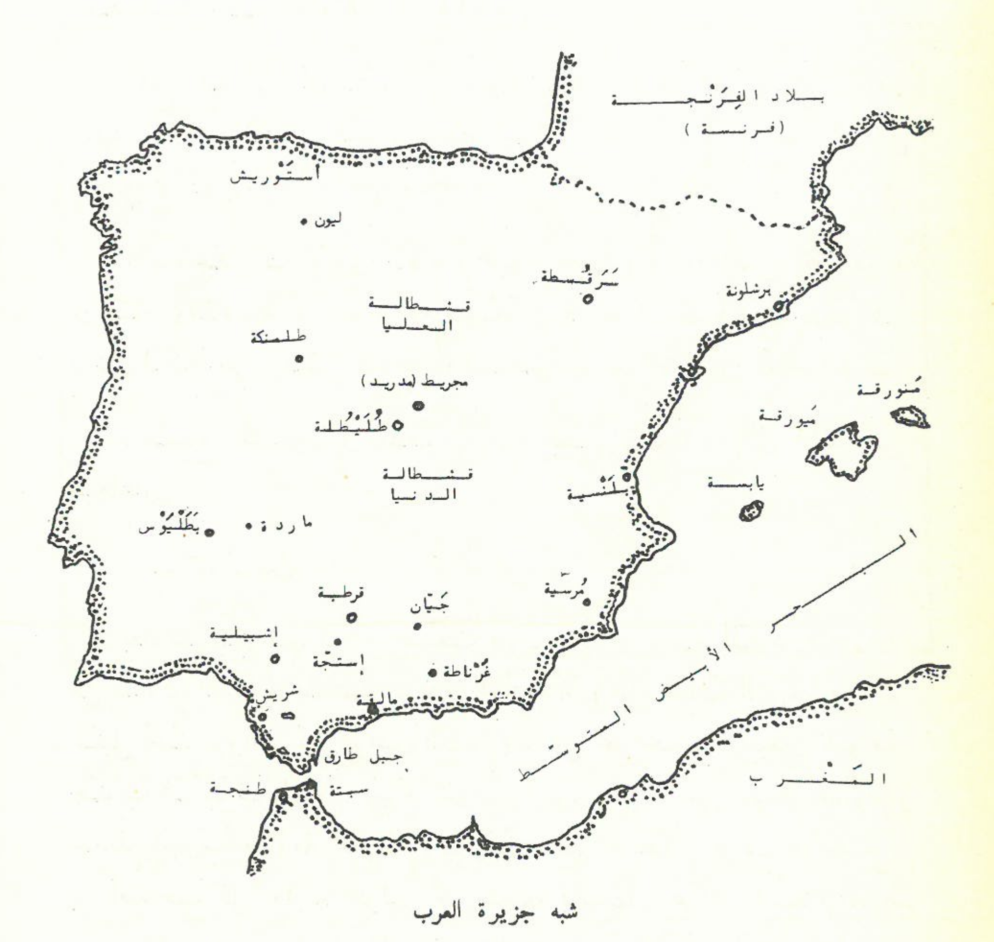
وسَمِعَ المسلمون في المَغْربِ بهذا الظَفَر فجازوا إلى الأندَلُسِ مُجاهدين .

— معركة أستجه :

بعد معركة وادي لَكُّهْ تجمّعتْ فلولُ القُوط ، مَعَ المَدَدِ الذي جاء من المُدُنِ القوطيةِ المختلفة ، عندَ إسْتِجَّةَ (على الضفّة الشرقية من نهر شَنيل أحَدِ روافدِ نهر الوادي الكبير) ، على نحو خمسةٍ وسبعينَ كيلو مترٍ جَنوبَ غَرْبَ قُرْطُبَةَ . انهزَمَ القوطُ واستولى طارقٌ على إستجة عَنْوَةً .
عندئذ انهارَتْ مقاومةُ القوط ولم يَبْقَ لهم خُطّةُ حرب موحَّدة ، بل أصبحتْ كلُّ مدينة تتولّى أمرَ نفسِها بنفسِها . ثمّ ان النُبلاء القوطَ — من الذين صمّموا على المقاومة — انسحبوا شَمالاً في اتّجاه العاصمة طُلَيْطُلَةَ وتحصّنوا في عدد من المدنِ التي يكثُرُ فيها السكّانُ القوطُ المتّصلون بالطَبَقة الحاكمة . أمّا أهلُ البلادِ الأصليّون فكانوا يَنْضمّون الى العَرَبِ جماعاتٍ جماعاتٍ لأنّهم كانوا ناقمين على حُكْمِ القوط .

– خطوط الفتح بعد إستجّة :

قسَم طارقٌ الجيشَ أربعةَ أقسامٍ وَجّهها في نواحي الأندلس ، وكانَ معَ كلّ قسمٍ من هذه الاقسام أدلاّءُ من أصحابِ يُوليانَ :



شبه جزيرة العرب

** سارَ مُغيثٌ الروميُّ نحوَ قُرْطُبَةَ فدَخَلها بعدَ حصارٍ قصير .

** وسار قسم من الجيش نحو مالِقَةَ (على الشاطىء الجنوبيّ الشرقيّ ففتَحَها ثم استولى على كلّ ما حَوْلَها .

** واتّجهَ القسمُ الثالثُ من الجيش شَرْقاً في جَنوبِ نحو إلْبيرةَ (قُرْبَ غَرْناطة) ففتَحَها وفتحَ غَرْناطة وما حَوْلَهُما ثمّ اتّجه غَرْباً في شَمالِ واستولى على مُرْسِيَةَ عَنْوَةً ثمّ استولى على أوريولة صُلْحاً .

** وسار طارقُ نفسُه بمُعْظَمِ الجيْش شَرقاً في شَمال نحو جَيّانَ ثمّ عَطَفَ شمالاً نحو طُلَيْطُلَةَ – وكان أهلُها قد غادروها – فاستولى عليها بلا مُقاومةٍ ووَجَدَ فيها غنائمَ كثيرةً ، فقد كانَتْ طُلَيْطُلَةُ عاصمةَ القوطِ .

حملة موسى بن نصير

لمّا وَصَلَ الفتح إلى هذه النُقْطة جاز موسى بنُ نصير بحرَ الزُقاق (بينَ طنجةَ على الساحلِ الإفريقي وبينَ الجزيرةِ الخضراء على الساحل الاوروبّي) بجيشٍ فيه وُجوهُ العَرَبِ وعُرَفاءُ البربرِ ونَزَلَ في الاندلس في رَمَضانَ من سَنَةَ ٩٣ (حَزيران ٧١٢ م) . وسَلَكَ موسى طريقاً غيرَ الطريقِ التي كان قد سلَكَها طارقٌ : سَلَكَ طريقاً غربيّةً حتى جاء الى شَذونةَ – أو مدينةَ شَذونةَ أو مدينةَ ابن السليم – ثمّ تَوَجّه شَمالاً نحو قَرَمونةَ وفتَحَها خِدْعَةً ثمّ اتّجه غَرْباً إلى إشبيلية واستولى عليها بعدَ حصارٍ طويلٍ وتابعَ سيرَهْ نحو الغَرْبْ فاستولى على باجَهْ وعلى عَدَدٍ من المُدن الواقعةِ في ما يُعْرَفُ اليوم باسمِ البُرتغال . بعدئذٍ عَطَفَ شَمالاً في شرقي وحاصر ماردةَ وفتَحَها بعدَ حصارٍ طويلٍ وقتالٍ شديدٍ .

ويحسُنُ أنْ نلاحظَ هنا أيضاً أنّ المقاومةَ كانتْ على أشدّها في المُدُنِ التي كان فيها كنائسُ كبيرةٌ ، لأنّ تلكَ الكنائسَ كانت في الوقت نفسه حصوناً وقِلاعاً ، وكان القُوطُ يقاتلون من وراء جُدْرانها .

وبعد فتحِ طُلَيْطُلَةَ اتّجه طارقٌ نحو الشَمال مُتجافياً عن مجريطَ (مدريد) – وكانتْ مدينةً صغيرةً وقلعةً منيعةً – حتى وصَلَ إلى مدينةِ

وادي الحجارة (أو مدينة الفرج)، على نحو مائة وعشرة كيلو مترات من طليطلة شمالاً في شرق.

لقاء موسى وطارق

كان لقاء موسى وطارق في طُلَيْطُلَة، في الأغلب.

أكثر المصادر تذكر أن موسى بن نصير كان ناقماً على طارق بن زياد لأنه أوغل في الفتح فوق ما كان قد أمره به، وأن موسى لما رأى طارقاً وبخه وأهانه ثم عزله. غير أن المؤرخين مختلفون في مدى الإساءة وفي تعليلها.

والراجح من استعراض الأحداث التي تلت لقاء موسى وطارق أنه لم يكن في الأمر إساءة:

(أ) كان موسى بن نصير هو القائد العام، وقد عيّن طارقاً على قطعة من الجيش للقيام بحملة معينة محدودة. فلما التقيا كان من الطبيعي أن يسترد موسى القيادة على جميع قطع الجيش.

(ب) بعد اللقاء في طليطلة اتفق موسى وطارق على خطة للفتح ثم اتجها في خطين مختلفين، وقد سلك موسى الطريق الأهون وترك لطارق الطريق الأصعب.

(ج) أما التوبيخ ـ ان صح ـ فيمكن أن يكون جدالاً في سياسة الفتح. وأما منازعتهما فمشهورة، غير أن طارقاً اعتذر إلى موسى فرضي موسى وقبل عذر طارق (فتوح مصر ٢٠٧، البلاذري ٢٣١، الطبري ٢ : ١٢٥٤، ابن الاثير ٤ : ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

الفتح وراء طليطلة

قضى موسى وطارق شتاء عام ٧١٣ ـ ٧١٤ م (ربيع الأول ـ جمادى

الاولى من سنة ٩٥) في طليطلة. ثم لما حل الربيع عام ٧١٤ م (رجب من سنة ٩٥) تقدم موسى وطارق نحو سرقسطة (أو المدينة البيضاء) وحاصراها فسقطت وشيكاً، وكان معهما حنش الصنعاني فاستقر في سرقسطة وخط مسجدها الجامع.

وقد كشف فتح سرقسطة جميع حوض نهر أبره أمام العرب، فقسم موسى الجيش قسمين: وجه قسماً بقيادة طارق شمالاً الى وشقة فحاصرها ولكن لم يستطع فتحها فتركها طارق واتجه شرقاً حتى قطع نهر أبره، ثم غزا أماية وفتح ليون وأسترقة.

وكذلك توجه موسى نفسه بالقسم الثاني من الجيش قاصداً في أول الأمر نحو الشرق حتى فتح برشلونة وما حولها من بلاد الإفرنج، سنة ٩٦ هـ. ثم مال موسى شمالاً فوصل الى أربونة. بعدئذ عطف غرباً في جنوب، مخترقاً شمالي بلاد الأندلس حتى غزا سلمنكه (طلمنكه). ثم عاد فمال شمالاً وقطع نهر دويره الى أعلى نهر أبره مخترقاً منطقة قشطالة إلى بلاد أستوريش. ولكن يبدو لنا من تتبع هذه البلدان على الخارطة أن حملة موسى لا يمكن أن تكون قد تناولت هذه البلاد المترامية بين الشرق والغرب والجوف (الوسط) والشمال في ذلك الوقت القصير الذي انقضى بين فتح سرقسطة وبين رجوع موسى إلى الشام، أي في نحو خمسة أشهر من سنة ٩٥ هـ. غير أن هذا لا يعني أن هذه البلدان لم تخضع في الحقبة الأولى على الاقل للحكم العربي ـ لأن الفتح إذا وقع على قواعد البلاد فان البلدان الثانوية تسقط أمام الفاتح من تلقاء نفسها ـ ولكن هذا يعني أن موسى ابن نصير لم يستطع أن يقوم بنفسه بهذا الفتح على هذا النحو من التفصيل.

إصلاحات الحجاج في العراق

في هذه الاثناء كان الحجاج يقوم بإصلاحات داخلية في العراق. من

ذلك أنه مَسَحَ العراق (أي قاسَه واستخرج مِساحاته وعينَ أماكنَه وقيد الأملاكَ فيه) ثم جعل كلَّ صاحبِ أرضٍ مسؤولاً عن الجريمة التي تَقَعُ في أرضه فساعد بذلك على نَشْرِ الأمنِ في العراق. وكَرَى الحجاج الأقْنية الكبرى (أي أعادَ حَفْرَها بعدَ أن كانَت الحروبُ والفِتَنُ قد طَمَرَتْها) وقد انتعشتْ بذلك الزِراعةُ، ثم وَحّد المكاييـلَ والمقاييسَ والموازينَ فسَهّل بذلك الأعمالَ التجاريةَ وضَبَطَ الأسعارَ. ومَنَعَ الحجاجُ أيضاً الهجرة الداخلية، من القُرى الى المُدُنِ، لئلا تُقْفِرَ القُرى فتَقِلَّ الزِراعةُ ثم تَزْدَحِمَ المدنُ وتضيقُ بالعاطلين من أهلها. ومن أعمالِ الحجاج في العراق عِنايتُه بالنظافة العامّةفقد قَتَلَ الكِلابَ الشاردةَ وحَبَسَ من بالَ في الشارع بمدينة واسطٍ. ثم إنه زادَ في حِفْظِ الأمنِ بأن أقامَ نظامَ منعِ التجول بينَ صلاةِ العشاء وصلاةِ الصُبْح. ونَظّمَ الحجاجُ الجيشَ (جعله نِظامياً إجبارياً) واختارَ له الأحداثَ فقط، وكان يفحص المتقدمين إلى الجيش فَحْصاً طبياً.

وكان القرآنُ الكريمُ الى أيامِ الحجاج لا نُقَطَ على كَلِماتهِ ولا شَكْلٌ فأمَرَ بإعجام القرآن وضَبَطَه بالحَرَكات. وثارَ القراءُ على الحجاجِ بحُجّة أنه قد بدل في القُرآن فقاتَلَهُمُ الحجاجُ وتغلّبَ عليهم. ونحن اليومَ نذكُرُ الحجاجَ بالخَيْرِ لأنه بعَمَلِهِ هذا قد حَفِظَ القرآنَ الكريم من التحريف.

وبنى الحجاجُ مدينةَ واسطٍ (بين الكوفة والبصرة) واتخذَها عاصمةً له، بعد أنِ استحالَ عليه المُقَامُ في الكوفة أو البصرة، لِعِداءِ بعضِهما لبعضٍ ولعدائِهما معاً لبني أُمَيّةَ.

مسجد بني أمية او مسجد الوليد

كان هذا المسجدُ موجوداً منذ أيامِ مُعاويةَ، ولكنّ الزياداتِ استَمرّتْ في الدخول عليه. ثم أُضيفتْ إليه الزخارفُ في أيامِ الوليد. وبما أنّ هذا المسجدَ قدِ انتهى في خِلافةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملك، فإنه يُدْعى عادةً

مسجدَ الوليد. ونحن لا مندوحةَ لنا عن أن نقولَ إنّ هذا المسجدَ يُمَثِّلُ الفنّ الإسلاميَّ (أو العربي) برُغْم أنّ عدداً كبيراً من الصُنّاع والعُمّال الذين قاموا ببنائه كانوا رُوماً. ثم إن الخُلفاء المسلمين هُمُ الذين أمَروا ببنائهِ وأنْفقوا عليه وقَصَدوا من بنائه أن يُحَقِّقَ هَدَفاً إسلامياً وأن يُمَثِّلَ مَظْهراً إسلامياً بَحْتاً.

وكَثُر في أيامِ الوليدِ تعبيدُ الطرقِ وبناءُ المشافي وإقامة دورِ العَجَزَةِ. وقد كان الوليدُ أيضاً يُعَيِّنُ لكلِّ أعْمَى قائداً يَهْدِيهِ.

ضعف الدولة الأموية

(١) تعاقب خلفاء ضعاف وأقوياء

الدولة – أو الأُسرة المالكة ، أو الطبقة الحاكمة ، أو النظام السياسي في الشعوب والأمم – كائنٌ حيّ ينشأ ويتطوّر ثم يضعفُ ويموت . فللدولة ، إذن ، عمرٌ طبيعيٌّ كأعمارِ أشخاصِ البشر . ويرى ابنُ خلدون أنّ عمرَ الدولة الطبيعيّ أربعةُ أجيال (كلُّ جيلٍ ثلاثون سنةً) أو مائةٌ وعشرون سنةً قد تزيدُ قليلاً أو تنقصُ قليلاً . أما العواملُ التي يزيدُ بها عمرُ الدولةِ أو ينقصُ فأمورٌ منها :

(أ) العصبية – إذا ظلت قوّةُ الدولة كبيرةً فانّ عمرَها يطولُ ، وإذا قلّتْ قوّةُ الدولة فانّ عمرَها يقصرُ. وتُقاس قوّةُ الدولةِ بعصبيتها. ويدخل في العصبيةِ عددُ أهلِ الدولة وثروتُهم وسلاحُهم وعلمُهم ، فكلما كانتْ هذه العناصرُ أكثرَ كانت العصبيةُ أقوى والدولةُ أطولَ عمراً . وملاكُ العصبية أن يظلّ أهلُها مجتمعي الهوى ، أي ذوي رأيٍ واحد . فإذا تعدّدتْ أهواءُ أهلِ العصبية تقسّمت العصبيةُ بتعدّدِ هذه الأهواء وجعلَت العصائبُ المتقسّمةُ من العصبيةِ الكبيرةِ تتنازع فتضعفُ الدولةُ بذلك .

(ب) الترف – الترفُ هو التأنّقُ والتفنّنُ في أسبابِ المعاشِ من مطعمٍ

ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ مع الإسراف . ويقول ابنُ خلدون : إنّ الترفَ يزيدُ الدولةَ في أولها قوّةً (لأنه يجمعُ حولها الانصارَ ويمكّنها من استجادة السلاح والإكثار منه ويُنشىء فيها جيلاً سليماً قوياً) ، ولكنه يزيدها في آخرها ضعفاً (لأنّ الترفَ إذا زادَ عن حدّه أضعفَ الأجسام بتراكُم الرواسب فيها من المطاعم ثمّ أضعفَها بقلةِ الحركة ، فإنّ المترفين يستخدمون الآخرينَ في أعمالهم ولا يقومون هم بها . ثمّ إنّ الإنسان اذا انغمسَ في الترف انصرفَ إلى التمتّع بوجوهه ونسيَ الاهتمامَ بالأمورِ المهمة في حياته ثمّ جهلَها فتخرُجُ إدارة أموره من يده) .

(ج) تعاقبُ الملوكِ الضعاف والأقوياء . إذا جاء ملكٌ قويّ فضبطَ الأمورَ ونظّمها واستبدّ بالناس استقامَ أمرُ دولته ، فإذا جاء بعدَه ملكٌ ضعيفٌ لا يستطيعُ أن يضبطَ الأمورَ أفلتَ زمامُ الأمورِ من يده فحدثَتْ في دولته فوضًى ثم آلت الفوضى بدولته إلى الضعف . وكذلك إذا تعوّدَ شعبٌ من الشعوب ضعفَ الحكام وعاشَ طليقاً من القيود التي تنظّمُ المجتمع (وهذه حالٌ تكثُرُ في أيامِ السلمِ والازدهار) ثمّ جاء ملكٌ قويّ يريدُ أن يضبطَ الأمورَ ويحمّلَ الناسَ على النظام كرهَه الناسُ (لأنّ ضبطَ الأمورِ والنظامَ مخالفانِ لمصالحِ الناس الشخصية ، ومصالحِ الأقوياء من الناس خاصّةً) ثم قاوموه. وربما خذلوه عند حاجته إليهم (في أيامِ الحروب والأزمات الاقتصادية) ، وربما تآمروا عليه أو قتلوه .

(د) وهنالك الأحوالُ الطارئةُ من الأعداءِ الداخليينَ والخارجيين ومن القحطِ والأمراضِ والموتان .

سليمان بن عبد الملك

تولى سليمانُ الخلافةَ بعد أخيه الوليد في جُمادى الثانية من سنة ٩٦ (شباط ٧١٥) . وفي أيامه بدأ الضعفُ يدبّ في البلاد الإسلامية والدولة

الأُموية لسوءِ سياسته . ويرجع سوءُ سياسته الى ما كان في نفسه من نقائصَ شخصيةٍ كالحقْدِ والنَهَم وحب الزينة والقَسْوة .

رأينا من قبلُ أنّ الحجاجَ بنَ يوسفَ كانَ قد أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبدالعزيز بنِ مروانَ من ولاية العهد ونَقْلِها الى ابنَيْه الوليدِ فسُليمانَ . ثم إنّ الحجاجَ عادَ فأشارَ على الوليدِ ، لما تولى الوليدُ الخلافةَ ، أن يُحوّلَ ولايةَ العهد من أخيه سليمانَ الى ابنهِ هو ، يزيدَ بنِ الوليد . فأغضبَ ذلك سليمانَ واستقرَّ في نفسهِ حبُّ الانتقامِ من الحجاج .

ونجا الحجاجُ من انتقام سليمانَ لأنه تُوُفّيَ في رمَضان من سنَة ٩٥ (أيار — مايو ٧١٤) قبل أن يَليَ سُليمانُ الخلافة بتسعة أشهُر . فصبَّ سليمانُ جامَ غَضَبه على آلِ الحجاج وأنصاره ووُلاته وقُواده ، ثم تناولَ بالانتقام نَفراً كثيرينَ من الرجالِ الذين خلَقوا مَجدَ الدولة الأموية . ومن الغَريب أن يكونَ سُليمانُ قد اتبعَ سياسةً يَمنيةً ، معَ أنه كان قَيْسياً ، ومعَ أن سياسةَ بني أميةَ كانتْ في أساسها قيسية . ولم يُصْهِرْ معاويةُ إلى اليَمَن بزَواجه مَيْسونَ الكلبيةَ إلاّ توطيداً لمُلْكه في الشام بجَمْع العصبيةِ اليَمَنية حولَهُ بالزَواجِ الى العصبيةِ القَيْسيَّة التي كانت له بالنَسَب . وأما مروانُ بنُ الحكم وابنُه عبدُ الملك فتألفا اليمانية ليَقُواما بِهِمْ عبدَ الله بنَ الزبيرِ الذي كان يعتمدُ على القيسية . ومعَ ذلك فإنّ معاويةَ ومروانَ وعبدَ الملك ظَلّوا يُقيمون سياستَهم على العصبيةِ القَيْسية ولم يتَنكروا للقيسيين قطُّ . أما سُليمانُ فلم يَزِدْ على أن قَضى على نَفَرٍ من عباقرة العَرَب لأنهم قَيْسيون ثم ضَرَبَ القَيْسية باليمنية فثارتْ بينهم فِتَنٌ أدّتْ إلى زَوالِ دَوْلة بني أُميةَ في المشرق ثم إلى القضاء على دَوْلتهم في الأندلس أيضاً .

كان الحجاجُ بنُ يوسفَ ، وهو قَيْسي من ثَقيف في الحجاز ، قد سَجَنَ في سَنَة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) ، في أثناء وِلايته على العراقِ ، يزيدَ بنَ

المُهلّب ، وهو أزْدِيّ من اليَمَنية . واستطاع يزيدُ بنُ المهلب أن يَنْجُوَ من سِجْنِ الحجاجِ وأن يلجأ الى سليمانَ بنِ عبد الملك ، وكانَ مقيماً بالرَمْلة في فلسطين ، وذلك قبلَ أنْ يَليَ الخلافةَ . ولا شكّ في أن يزيدَ ابنَ المهلَّب قد أذْكى نَقْمةَ سليمانَ على الحجاجِ وعلى سياسةِ الحجاجِ . فما كادَ سليمانُ يتولىّ الخلافةَ حتى عزَلَ عثمانَ بنَ حَيّانَ المُريّ عن المدينة وخالدَ بنَ عبد الله القَسْري عن مكة ، وسَجَنَ محمدَ بنَ القاسمِ الثقفي فاتحَ السِنْد ثم قَتَلَه ، ونكَبَ طارقَ بنَ زياد ومُوسى بْنَ نُصير فاتِحَي الاندلسِ ، معَ أنّ موسى كان يمانيّ الوَلاء . أمّا قُتَيْبة بنُ مُسْلِمٍ الباهليّ والي خراسان فقد خاف أن يكون مصيرُه كمصير هؤلاء ، فاستبق الحوادث وثار على سليمانَ .

اساءة سليمان الى موسى وطارق

لما وَرَدَ الخبرُ بفتحِ الاندلسِ إلى دِمَشْقَ كان الوليدُ بنُ عبد الملك مريضاً مرَضَ الموت ، وكان أخوه سُليمانُ وَلياً للعهد . فكَتَبَ سليمانُ الى موسى بأنْ يُبْطِئ في رجوعه بالأسرى والغنائم حتى يكونَ وصولُه الى دِمَشْقَ وهُوَ (أي سليمانُ) خليفـةٌ . ولكن وفـاءَ موسى أبى عليه ذلك فأسرَع في سيره فوَصَل إلى دِمَشْقَ والوليدُ لا يزالُ حياً . ورأى الوليدُ بنُ عبد الملك أُمَراءَ القوط في ثيابِهِمُ المُزَرْكَشة والمُرصّعة بالحجارةِ الكريمة يَمُرّون أمامَه ووراءَهم الغنائمُ الثمينةُ .

ساء ذلك سليمانَ بنَ عبدِ الملك فلما تولّى الخلافةَ نَكَبَ موسى بن نصير وأساء إلى طارق أيضاً فقضى طارق بَقيّةَ عُمُره مَغْموراً مُهْمَلاً لم يُمتّعْهُ سليمانُ بنُ عبدِ الملك بشيءٍ مِمّا كان قد وَهَبَه للدَوْلةِ الأمويّةِ من الفتحِ المَجيد والشرف العَظيمِ والغنائمِ الوفيرة . وقد كانَ سليمانُ بن عبد الملك يَتّبِـعُ سياسةً عصبيةً يمنيّةً فوق ما كان حقوداً ، فأساء الى نفر كثيرين من الذين كانوا من أتباعِ العصبية القَيْسية أو مِنَ الذين نالوا حَظْوة عند الولاةِ القَيْسيّين من قبلُ .

قبلَ أنْ يعودَ موسى بنُ نصيرٍ الى دمشقَ استخلفَ ابنَه عبدَ الله على المغرب وابنَه عبدَ العزيزِ على الاندلس وأسكنَه في إشبيلية . فضبطَ عبدُ العزيز البلادَ وفتح عدداً من المُدنِ التي لم تكنْ قد فُتحتْ بعدُ في أقصى الشمال . وقد ارتكبَ عبدُ العزيز خطأً شخصياً كان له أثرٌ في حياته العامّة : تزوّجَ عبدُ العزيز أخيلونا امرأةَ لُذريقَ ، وقيل إنّها بقيتْ على النصرانية وكانت تحمِلُه على سُلوكٍ مُجانبٍ لروحِ الإسلام . وأُضيفَ هذا الخطأُ إلى كُرْهِ سليمانَ بنِ عبد الملك لموسى بنِ نصيرٍ فقتلَ قومٌ عبدَ العزيزِ وأخاه عبدَ الله وحملوا رأسَيْهما إلى سُليمانَ بن عبد الملك .

وبعدَ مقتلِ عبدِ العزيز اضطربت الاندلسُ وبقيتْ ستّةَ أشهرٍ بلا والٍ . ثمّ ولّى العربُ على أنفسهم أيّوبَ بنَ حبيبٍ اللّخْمي — ابنَ أُخْتِ موسى بن نصير — فلم يرْضَ سليمانُ به فأرسلَ الحرَّ بنَ عبدِ الرحمن الثقفيَّ والياً على الاندلس .

في هذه الاثناء نقلَ العربُ العاصمةَ من إشبيلية الى قرطبةَ لأنَّ قرطبةَ كانت أكثرَ توسّطاً في البلاد وأكثرَ قُرْباً من طريقِ التجارة .

وفي أيامِ الحرِّ عادَ القوط — بمُعاونةِ البابويّةِ والفرنْجة (الفرنسيّين) — إلى المقاومة . ولكنَّ مقاومتَهم تلك كانت ، في ذلك الحينِ ، ضعيفةً جدّاً .

وعاصرَ سُليمانُ بنُ عبد الملكِ ثيودوسيوسَ الثالثَ آخرَ ملوكِ الأُسْرة الهرقْلية البيزنطية مُعاصرةً تامةً (٧١٥ — ٧١٧ م) أو شبْهَ تامة . ويبدو أن ثيودوسيوسَ هذا كان ضعيفَ العزيمةِ طيّبَ القلب فتنَزّلَ برضاه على رغبةِ البطْريَرْك ورغبةِ مجلسِ الشيوخ ورجالِ البلاطِ بأن يرْقى لاوونُ الأسوريُّ عرشَ الروم (بيزنطة) ؛ فحلّتِ الأُسْرةُ الأسوريةُ مكانَ الأُسرةِ الهرقْلية ، قبلَ وفاةِ سُليمانَ (٩٦ — ٩٩ هـ) بنحوِ تسعةِ أشهرٍ .

ولما عزَمَ سُليمانُ على غزوِ القُسْطنطينيةِ برّاً وبحْراً كان لاوون الثالثُ الأسوريُّ (٧١٧ — ٧٤١ م) قد تبوّأ العرشَ . واجتمعتْ مقْدرَةُ لاوونَ الأسوريِّ معَ شدّةِ البرد وسلاحِ النارِ اليونانية على العرَب ، فلم يستطِعِ العربُ فتحَ القسطنطينيةِ برُغْمِ حصارٍ دامَ عاماً كاملاً (من ١٥ /٨/٧١٦ الى ١٥ /٨/٧١٧ م) ، أي طَوالَ سَنةِ ٩٨ هـ وبِضْعةِ أيامٍ كانت قد انقضَتْ من السَنةِ السابقة .

وكان سُليمانُ قد أقامَ بلاطاً له في الرّملة ، منذ أيامِ ولايته للعهد ، فاستمرَّ بعد أن تولى الخلافةَ يتردّدُ على الرملةِ كثيراً . وكذلك كان قد أقام مُعَسْكَراً له في دابقٍ شمالَ حلبَ لتوجيهِ الغزَواتِ منه الى بلادِ الروم .

عمر بن عبد العزيز

لما حضَرتْ سُليمانَ بنَ عبدِ الملكِ الوفاةُ ، في صَفَرَ من سَنةِ ٩٩ (تشرينَ الأولِ ٧١٧ م) ، كانَ في مرْجِ دابقٍ يُوجِّهُ جيْشَ الغزوِ الى بلاد الروم ؛ ولم يكنْ معَه أحدٌ من أهلِ بيته هو ليُوصيَ إليه بالخلافة . وكانَ معَهُ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ بن مروان ، فنَصَحَ قومٌ لسُليمانَ بأن يُوصيَ له بالخلافةِ ففعل . وكان ذلك من حسَناتِ سليمان .

سياسة عمر العسكرية

كان أوّلَ ما فعَله عُمَرُ أن ردّ جيُوشَ الفتحِ عن القسْطنطينية وعن بلادِ الروم . ثم أرادَ أن يُقْفِلَ المسلمين من الاندلس خوفاً عليهم من الهلَكة لأنهم في بلاد للعدوِّ ، وبينَهم وبينَ بلادِ المسلمين بحْرٌ . ولكنّ واليَه على الاندلس ، السَمْحَ بن مالكٍ الخَوْلانيَّ ، كتب اليه أن المسلمينَ قد كثُروا في الاندلس وعزَوا ؛ فصرَفَ عمرُ النظرَ عن إقفالهم .

لما استبحرَ المُلْكُ في بني أُميةَ ، مُنْذُ أيامِ معاويةَ ، وجعَلَ آلُ البيتِ الأُمويّ يغترفون الأموالَ من بيتِ المال قَصّرتِ الجباباتُ التي فرَضها الاسلام من الزكاةِ والخَراج والعُشور عن أطماعهم . من أجلِ ذلك زادَ الأُمويون في أشكالِ الضرائبِ على غِرار ما كان عندَ الروم (البيزنطيين) ، وأخذوا من المسلمين زكاةً وجِزْية ، أو شيئاً يُشْبِهُ الجزية ، كما لم يرضَوْا عن دُخول المشركين وأهلِ الكتابِ في الإسلام خوفاً من زَوال الجزيةِ التي كان مُعْظَمُها يذهبُ إليهم . أما الزكاة التي يدفعُها المسلمون فلم يكنْ بالإمكانِ أن يَستفيدَ بنو أميةَ منها ، لأنها يَجِبَ أن تُنْفَقَ في الوُجوه الثمانيةِ المذكورةِ في القُرآن الكريمِ .

فلما جاءَ عمرُ أمَرَ أن تُؤخذ الجِزيةُ من أهلِ الكتابِ والمشركين وحدَهم ، وأنْ تؤخذَ الزكاةُ من المسلمين وحدَهم . وأما العُشْرُ والخَراجُ فيؤخذان من أصحابِ الأراضي إذا كانت المحاصيلُ وافيةً ؛ فإذا أمْحلَتْ أرضٌ في عامٍ ما ، فإنّ أصحابَها يُعْفَوْنَ من الجبايةِ في ذلك العام . وحَظَرَ عُمَرُ على الوُلاة والعمالِ أن يتاجروا لأنهم يَستطيعون بما لَهُمْ من النفوذِ أن يحتازوا التجارةَ ويُضِروا بالرعية . ثم إن الواليَ أو العاملَ مُوَظَّفٌ في الدولةِ ولا يجوزُ له أن يقوم بعَمَلٍ آخرَ . وكذلك حَظَر عمرُ على الوُلاةِ والعُمال أن يَستأثروا بالأملاكِ العامة لأن ذلك يَضُرّ عامةَ المسلمين ، بل يُحَقّ لهم أن يَتَمَتَّعوا منها بمثلِ ما يتمتّعُ به كلُّ مسلمٍ آخرَ . أما إذا ماتَ صاحبُ أرضٍ ، فان وَرَثَته أو الأشخاصُ الذين كانوا يَعْمَلون فيها مَعَه يقومون فيها مَقَامه ، ولا يجوزُ للوالي أو للعاملِ أن يأخذَ منها شيئاً ، إلا اذا كان حقاً من حُقوق الدولة ، وحينئذ يُرسِلُ ما أخذه إلى بيتِ المالِ ولا يحتفظُ بشيءٍ منه (لنفسه) .

ولما جاء وفدٌ من الترك ، من سُكانِ ما وراء النهر ، الى عمرَ بنِ عبدِ

العزيز وشَكَوْا إليه أن الولاةَ يَحولون بينَهم وبين دُخولِ الاسلام ، سأل عمرُ الولاةَ والعُمالَ عن ذلك ، فقالوا له : إذا دَخَلَ هؤلاءِ في الإسلام سَقَطَتِ الجزيةُ فتَعجِزُ الدولةُ حينئذ عن نَفَقاتها (لأن الزكاة كانت تنفق على الفقراء والمحتاجين فقطْ لا على تَسْيِير أمورِ الدولة من رَواتبَ وأبنيةٍ ، الخ) ، فقال لهم عمرُ يومَذاكَ قولَه المشهورَ : « إن اللهَ أرسَلَ محمداً هادياً ولم يُرْسِلْه جابياً » . ثم أمرَ بألاّ يُحال بينَ أحدٍ وبينَ الإسلام . ففي ذلك العام سَقَطت الجِزْية في مِصْرَ وفي ما وراء النهر ، إذ دخل مُعْظَمُ القِبْطِ ومُعْظَمُ التُرْكِ في الاسلام .

ثم أن عمرَ حَظَرَ على بني أميةَ أن يأخذوا في أيامهِ من بيتِ المال ما كانوا يأخذونه من قبلُ . وعَمَدَ إلى الأراضي التي كانتْ تَحْتَ أيديهِم ، فردّها أيضاً الى بيتِ المال . فكان ذلك من أسبابِ نقمةِ آلِ البيتِ الأموي عليه .

إنّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز قد أدخَلَ الضَرَرَ بسياستهِ الماليةِ هذه على بني أميةَ وعلى الدولةِ الأموية ، ولكنه قامَ بالمُثُلِ العُلْيا في الاسلامِ خيرَ قيامٍ .

المغرب والأندلس

كان عمرُ بنُ عبدِ العزيز شديدَ التقوى كريمَ الأخلاق فلما تولى الخلافةَ ولّى اسماعيلَ بنَ عبدِ الله على المَغْربِ والسَمْحَ بن مالك الخَوْلانيَّ على الاندلس لإعجابهِ بتَقْواهما وحُسْنِ خُلُقِهما . وبَعَثَ عُمَرُ مَعَ اسماعيلَ بنِ عبدِ الله عَشْرَةَ رجالٍ من التابعين[1] لتَفْقيهِ أهلِ إفريقيةَ في الدين .

ولما اطمأنّ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز إلى أنّ المسلمين في الأندلسِ لا يتعرّضون لخطرٍ ما أمَرَ السَمْحَ بنَ مالك بأن يُجَدِّدَ القنطرةَ (الجِسْرَ) على نهرِ الوادي الكبير وبأن يُخَمِّسَ الارضَ (بعد فَرْضِ الجبايات

(١) الصحابة هم الجيل الذي أدرك رسول الله ، والتابعون هم الجيل الذي أدرك الصحابة ولم يكن قد أدرك رسول الله .

على الأراضي بالعَدْل): ان يُخرِجَ خُمْسَ قرطبة فيجعَلَها مقبرةً ؛ فأخرجَ السمحُ بن مالكٍ منها البطحاءَ المعروفةَ بالرَبَض (الضاحية الجنوبية) فجعَلَها مقبرة .

وقام السمحُ بنُ مالك بغزوتين وراءَ جبالِ البرانس (الفاصلة بين إسبانية وفرنسة) . كانتْ أولى تَيْنِكَ الغزوتين في سَنَة ١٠٠ هـ (٧١٩ م) وقد فُتحت فيها أربونةُ . أما الثانية فكانتْ مُوغلةً في أرضِ الفِرَنْجة (فرنسة) ، الى مدينة تولوزَ ، في تاسعِ ذي الحِجة من سَنَة ١٠٢ (١٠/٦/٧٢١ م) بعدَ موتِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز . ولكنّ العربَ انهزموا وقُتِلَ السمحُ بن مالك فاستطاع أحدُ المجاهدين في هذه الغزوة — عبدُ الرحمن الغافقيّ — أن يعودَ بِمَنْ بَقِيَ من الجنود سالمينَ الى الاندلس .

حياة عمر الشخصية

في « سيرةِ عمرَ بنِ عبد العزيز » أنّ عُمَرَ كان قبلَ الخلافة مُفْرِطاً في النعيم ، فلما وَلِيَ الخلافةَ انصرفَ عنِ الدنيا مرّةً واحدةً وأقبلَ على إحياءِ الكتاب والسُنّة : على العملِ بما في القرآن وعلى الاقتداء بحياة رسول الله ، فزهِدَ في الطعام واللباس وردّ ما كان يَصِلُ إليه من الأموالِ الى بيتِ المال ، حتى إنه تَشوّقَ الى الحجّ فلم يَجِدْ مَعَه نَفَقَةَ الطريق إليه . وكانَ يُهْمِلُ أمرَ نفسه ويَحْرِص على تعجيل قضاء حقوقِ الرعيــة . فاغتنى الناسُ في أيامه حتى كان الرجلُ يطوف بزكاته ، فيما قيل ، بأطرافِ البلادِ الإسلامية فلا يَجِدُ مُسْلماً محتاجاً يدفعُها إليه .

وردّ عمرُ بنُ عبد العزيز الشعراءَ عن بابه ، وجــادَلَ الخوارجَ في آرائِهم السياسيةِ والدينيةِ بالتي هيَ أحسَنُ ، وعفا عمن سَبّه . وكذلك قَطَعَ عمرُ بنُ عبد العزيز السبَّ[1] عن عليّ بن أبي طالبٍ في عَقِبِ خُطْبةِ

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٥٣ ، ١٧١ ، راجع ١١٨ .

الجمعة ، على ماكان قد رَسَمَه مُعاويةُ ، ووَضَعَ مكانَ السبِّ الآيةَ الكريمة : « إن اللهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسان وايتاءِ ذي القُرْبى ، ويَنْهى عنِ الفحشاء والمُنْكَرِ والبَغْيِ ؛ يَعِظُكُم لَعَلّكم تذكّرون » (١٦ : ٩٠) .

فبتلك السياسةِ وبهذه الاخلاقِ عدّه ابنُ خلدون (راجع المقدمة ٣٧٠) منَ الخُلفاء الراشدين ومن طبَقة الصحابة . ولكنّ بني أمية كَرِهوا سياسةَ عُمَرَ وأخلاقَه وعَدْلَه وسَقَوْه السم ، فمات متــأثراً به في رَجَبَ ١٠١ (شباط ٧٢٠) .

يَزيد بن عبد الملك

رَجَعَتِ الخلافةُ بعد عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز الى أبناء عبدِ الملكِ بن مروانَ فتولاها منهم يَزيدُ فهشامٌ .

أما يَزيدُ فكانَ قَيْسيَّ الهوى ، وكانَ قد تزوج فتاةً قريبةً للحجاج بن يوسفَ . من أجل ذلك كان كارِها ليزيدَ بنِ المُهلّب الذي كان يمنياً وعَدُوّاً للحجاج . ولما جاء يزيدُ بنُ المهلّبِ والياً على العراق ، من قِبَلِ عمرَ بنِ عبد العزيز ، أساءَ معاملةَ آلِ الحجاج. ولكن لما تولّى يَزيدُ بنُ عبدِ الملك الخلافةَ خافه يَزيدُ بنُ المهلّبِ وثارَ عليه . فأرسلَ الخليفةُ إليه جيشاً بقيادة مَسْلَمة بنِ عبد الملك فقاتلَه مَسْلمةُ قِتالاً شديداً خرّ فيه يزيدُ بنُ المهلّب صريعاً في ١٤ صَفَرَ ١٢٠ (٢٤ آب ٧٢٠) .

نشوب العصبيات

إنّ الخَطَرَ الحقيقيَّ على الدولة الأموية ، مُنذُ أيامِ يزيدَ بنِ عبدِ الملك ، كان في نُشوبِ العَصَبيات ، حينما جَعَلَتِ القبائلُ العربيةُ — من قيسية ويمنية — تتنازَعُ وتتقاتل في أنحاء البلاد ، وخصوصاً في خُراسانَ . ذلك لأنّ هذا النزاعَ قد شغَلَ تلك القبائلَ عن الفُتوح ثم عرّضَ الدولةَ الأُمويــة لخَطَرٍ داخليٍّ هُوَ الاضطرابُ الذي ساعدَ المواليَ المُتَستّرين بالدَعْوة

العَلَوية على القضاء على الدولة الأموية ذات العصبية العربية . ثم إنّ نشوبَ العصبيات عرّضَ بلادَ الدولةِ الأموية لأخطارٍ خارجيـة تتمثّلُ في هجَمات الخزَر[1] والرُوم في المشرق . أضفْ إلى هذا كلّه اشتغالَ الأمويين في المشرقِ عن توطيدِ فتوحهم في الأندلس، مما ترَكَ الأمرَ هنالك فَوْضَى أو كالفوضى .

وكان يزيدُ بنُ عبد الملك خليفةً مُستهتراً شُغِفَ بجاريتين له هما حبّابةُ وسلاّمةُ، ثم ماتَ بهما عِشْقاً ، يوم الأربعاء في ٢٤ شعبان من سنة ١٠٥ (٢٦ كانون الاول ٧٢٤) .

المغرب والاندلس

لما عادَ عبدُ الرحمنِ الغافقي بالجيشِ من أرضِ الفرنْجَة ولاّه عربُ الاندلسِ على أنفسهم فبقيَ والياً بضعةَ أشهُرٍ حتى جاء عَنْبَسَةُ ابنُ سُحيم الكلبيّ في صفر من سَنَة ١٠٣ (آب – أغسطس ٧٢١ م) . واستقرّتْ أحوالُ الاندلسِ قليلاً في أيامِ عَنْبَسَةَ ، ولكنّ أحوالَ المغربِ كانتْ مُضْطَرِبَةً وقدْ بدأتْ فيه العَصبيات (النِزاعُ القَبلي) بين العَرَبِ والبربر .

هشام بن عبد الملك

لما وَلِيَ هِشامُ بنُ عبدِ الملك الخلافةَ اعتمدَ العصبيةَ اليمنية ، فعزَلَ عُمَرَ بنَ هُبَيْرَةَ (وكان قيسياً) عن العِراق ثم ولى مكانه خالدَ بن عبد الله القَسْرى (وكان يمنياً) . وذلك في شوّال ١٠٥ (آذار ٧٢٤) . وكانَ خالدٌ القسريُّ من الوُلاةِ العِظام كزيادٍ والحجّاج .

وبرُغمِ أن خالدَ بنَ عبدِ الله القسريَّ قد قضى في ولايةِ العراق خمسَ

(1) الخزر قبائل من الترك كانوا يعيشون شمال بحر الخزر (قزوين) في شمال فارس (راجع ، تحت ، ص ١٧٩) .

عَشْرَةَ سَنَةً (وهي أطولُ مدة قضاها والٍ في العراق ما عدا الحجاج) ، فإنّ خصومَه كانوا كثاراً لأنه حَكَمَ العراقَ حُكْماً استبدادياً استغلالياً يقسم خيراتِه بين أهلِه واصدقائه . ولكنّ العراق تمتع في عهده بسلْمٍ طويل . وكان خالدٌ متهماً في دينِه وفي أخلاقه . لقد كانت أمُّه مسيحيةً ، وبقِيَتْ كذلك ، فبنى لها كنيسةً ، فاتهمه الناسُ بأنه كان يَهْدِمُ المساجدَ ويبني الكنائسَ للنصارى واليهود . وكذلك اتهموه بأنه يُصاحب المانويّة ، حتى قيل إنه كان زِنْديقاً[1] . وأخيراً لم يَجِدْ هشامٌ بُدّاً من ان يَعْزِلَه ويُوَلِّيَ مكانَه يوسفَ بنَ عُمَرَ الثقفيَّ ، وكان قيسياً وقريباً للحجاج بن يوسفَ .

الدعوة العَلَوية

كانتْ سياسةُ بني أميةَ مبنيةً على « العصبية العربية » ، وكان الموالي (المسلمون من غيرِ العرب) من الفُرْسِ والترك خاصةً يَلْقَوْنَ من تلك السياسة عَنَتاً كبيراً . ولكنّ استبدادَ بني أميةَ كان شديداً وحكمَهم كان قاسياً ، فلم يستطعْ أولئك الموالي تحرّكاً قبل مجيء عُمَرَ بنِ عبد العزيز الذي كان مُتَساهلاً جدّاً ، وعادلاً عَدْلاً لم يَرْضَ عنه بنوأمية . ثم جاء يزيدُ ابنُ عبدِ الملك وكان مَشغولاً عن سياسةِ المُلْكِ بهواه . فلما جاء هِشامٌ كان أولئك الموالي قدِ استفحلَ أمرُهم ، فظَهَروا على مَسْرحِ السياسةِ والحرب .

ولم يكنْ للموالي — إذا أخذنا بالنظَريات السياسية في العصورِ الوسطى (نظريةِ الحقِ الالهي ونظرية النَسَب) — سببٌ يطلُبون به المُلْكَ لأنفسهم أو يَرُدّون به أذى العصبيةِ العربية . من أجل ذلك تَبَنَّوُا الدعوةَ العَلَوية وجعلوا يَدْعون إلى رَدّ المُلْكِ الى آلِ عليّ ، ويجمعون الناسَ حولَهم

(1) ماني : مؤسس الديانة الثنوية (الفارسية القديمة) القائمة على القول بإلهين : إله للخير والنور وإله للشر والظلمة . والزنديق من يبطن ديناً ويعلن آخر .

ثم يُثيرونَهم بذِكْرِ المآسي التي لَقِيَها آلُ البيتِ – على أيدي الأُمويينَ – مُنذُ أيامِ علي والحَسَنِ ومنذُ أيامِ الحُسينِ وكَرْبلاء على الأخص .
ولقد كان لهذه الدعوةِ العَلَوية مركزانِ : مركزٌ قريبٌ في الكوفة تَنْتَشرُ منه الدعوةُ سِرّاً وجَهْراً ، ومركزٌ بعيدٌ في خُراسانَ تَنْتَشِرُ الدعوةُ منه في ما يُجاوِرُهُ من البلاد وتُعَدُّ فيه الجيوشُ التي ستَسيرُ في الوقتِ المناسبِ للقضاء على الحُكْمِ الأُمَويّ .

العباسيون يتسترون وراء الدعوة العلوية

بدا لبني العباسِ أن ينافسوا أبناءَ عَمِّهِمْ بني عليٍّ في طَلَبِ الخلافة ، ولكنهم آثروا ألاّ يَدْعوا إلى أنفسهم رأساً ، لأنّ الموالي كانوا قد أَلْقَوْا قِيادَهم الى دُعاة العَلَويين مَرّةً واحدة ، ففضّلَ بنو العباس أن ينالوا بالدهاء ما أيقنوا أنهم عاجزون عن نَيْله بالقُوّة والغَلَبة . وهكذا تستروا وراء الدعوة « للرضا من آلِ محمد » ، ثم استغلوا في ذلك العاطفةَ العَلَوية عند جُمهور الناسِ ، كما استغلّوا وَجاهةَ العَلَويين عندَ الموالي خاصةً .

كانَ المفهومُ من الدَّعوة « للرضا من آلِ محمد » نقلَ الخلافة الى بني عليٍّ بن أبي طالب، ذلك لأن الذينَ قاوموا الأُمويين في قرن كاملٍ من الدهر واستُشْهِدوا في سَبيلِ ذلك كانوا عَلِيّاً وابناءه . ولكنّ العباسيين كانوا يُضْمِرون ان يَسْتَبِدّوا بالخلافة هم انفسُهم حينما تَظْفَرُ تلك الدعوة . وأبدى العباسيون براعةً في سبيلِ دعوتهم (للرضا من آلِ محمد) فقد بَثّوها في خُراسانَ بين الفُرْس وفي ما وراء النهر بين التُّرْك ، ذلك لأن سياسةَ الخُلفاء الأمويين قامتْ على تقديم العرب في الوِلاية والقيادة على غير العرب . وهكذا ضَمِنَ العباسيون ان يُثيروا الفرس والتّرك على بني أمية بعاملِ الظُّلْم في الدرجة الأول .

وجعل بنو العباسِ الحُميمة من أرض الشَّراة (جَنوبيَّ الاردن) مركزاً سِرّياً لدعوتهم : ذلك لأنّ الحميمةَ كانت على طريق الحجّ ، وكان بإمكانهم

من أجل ذلك ان يتصلوا بالحُجاج الآتينَ من أقطارٍ مختلفة . وفي سَنَة ١٠٠ للهجرة (٧١٨ م) وَجّهَ محمدُ بنُ عليٍّ بنِ عبدِ الله بن عباسٍ – وهو رأسُ الدعوة العباسية – من الحُميمة دُعاةً الى العراقِ وخُراسانَ وأمرَ بنشرِ الدعوة سِرّاً لهُ ولأهل بيته ، فانبثّ الدُّعاةُ يعملون بين الموالي والفرس والتّركِ بِضْعَةَ عَشَرَ عاماً .

وشعرَ خلفاءُ بني أميةَ بالدعوة العباسية تتّسِعُ فأرادوا ان يُكافحوها من طريقين : من طريقِ الحَبْس والقتل ومن طريق تبديل الوُلاة . أما الحبس والقتل فكانا يَزيدانِ أهلَ الدعوةِ اندفاعاً فيها ، وأما تبديلُ الوُلاة فكان سَبَباً لضَعْفِ الإدارة الأُموية ولزيادة الاضطراب في البلاد .

وفي سَنَةِ ١١٦ للهجرة (٧٣٤ م) ظهَرَ الحارثُ بن سُرَيجٍ وخلَعَ هِشاماً وحارب عاصِمَ بنَ عبدِ الله الهلالي والِيَ خُراسانَ ونَصْرَ بنَ سيارٍ واليَ بَلْخ وانتصر عليهما . فأدركَ هشامٌ الخطر في ذلك فعزَلَ عاصِمَ ابن عبد الله عن خُراسان وضمها الى والي العراقِ خالدِ بنِ عبد الله القَسْريّ (١١٧ ﻫ) ، فأخذ خالدٌ جماعةً من دُعاة بني العباس ومثّلَ بهم . غير أنّ الدعوة لم تَخِفَّ ، فعزَلَ هشامٌ خالداً وولى مكانه يوسفَ ابنَ عُمَرَ الثقفي على العراق وحدَه ، وولى نَصْرَ بنَ سيارٍ على خُراسانَ (١٢٠ ﻫ = ٧٣٨ م) .

كان نصرُ بنُ سيارٍ من أحزم الولاة وأقدرهم ، ولكنّ أمرَ بني أميةَ كان قد اضطرب اضطراباً شديداً ، فلم يَبْقَ بإمكان أحد أن يمنعَ سقوطَ الدولة الأموية ، وان كان بإمكان نَفَرٍ من القادةِ المخلصين الحازمين أن يؤخّروا ذلك السقوطَ حيناً من الدهر .

في هذه الأثناء ظَفِرَ دُعاةُ بني العباسِ بشابٍّ فارسيٍّ لا نَعْرِفُ من نشأته شيئاً ، ولكنْ نَعرِفَ أن كُنْيَتَهُ « أبو مُسْلِم الخُراساني » ؛ فبعَثَه إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ ، إمامُ العباسيين يومئذٍ ، إلى خُراسانَ

لِيُساعدَ الدُّعاة . والى ابي مُسلم يَرْجِعُ الفضلُ في بثّ الدعوة العباسيةِ ومقاومةِ وُلاة بني أمية والتغلبِ عليهم ، وإلى اجتناءِ ثمرةِ الدعوة العَلَوية وصَرْفِ الخلافة من العَلَويين إلى العباسيين .

زيد بن علي : الروافض والزيدية

كان زيدُ بنُ عليٍّ بنِ الحسينِ بن عليٍّ بن أبي طالب من عظماء آل البيت ، وكان يُحدِّثُ نفسَه بالخلافة ويطمحُ إليها . ويبدو أن طموحه إلى الخلافة اشتهر ، فترك العراقَ ليتوجَّه الى المدينة ويعتزلَ فيها استتاراً عن عيون بني أمية . ولكنّ أهلَ الكوفة جاءوا اليه يُشجِّعونه على الخروج (الثورة) على بني أمية ووعَدوه بأنْ ينصُروه بألفِ رجلٍ منهم . ثم تقاطرَ إليه الشيعةُ (أنصارُ عليٍّ) من المدائنِ والبصرةِ وواسطَ والمَوْصِلِ وخُراسانَ والرَّيِّ وجُرجانَ وسِواها حتى اجتمع حولَه خَمْسَةَ عَشَرَ ألفَ رجلٍ ، فأعلنَ الخُروجَ على بني أمية . عندئذ سار إليه يوسفُ بنُ عُمَرَ أميرُ الكوفة وقاتَله قتالاً شديداً في معاركَ متعددةً . ويبدو أن أتباعَ زَيْد سألوه ذاتَ يومٍ في أثناء تلك الحرب ، عن رأيه في ابي بكرٍ وعُمَرَ . فقال لهم : « أنا لا أقولُ فيهما إلاّ خيراً . أما خُروجي لقتال بني أمية فلأنهم قاتلوا جدّيَ الحُسينَ ، وأغاروا على المدينةِ يومَ الحَرّة ، ثم رَمَوْا بيتَ الله (الكعبة) بالمنجنيق والنار . فلم يَقْبَلوا منه هذا الجوابَ وأرادوا فِراقه . عندئـذ قال لهم : رَفَضْتُموني ! فلما خَذَلوه من أجلِ ذلك وانْفَضّوا من حوله ظلّ يقاتلُ في نحو مِائتَيْ رجلٍ من الذين ثَبَتوا معَه حتى سَقَط قتيلاً قُرْبَ الكوفة ، يوم الخميس ثانيَ صَفَرَ من سَنَة ١٢٢ (كانون الثاني ٧٤٠) .

ومن حركة زيدِ بنِ علي نشأ الروافض (الرافضة) والزَّيْدية . أمـا الروافضُ فهم عِشْرون فِرقةً يَبْنون مَوْقِفَهم الدينيَّ والسياسيَّ على العِداء العاطفي لأبي بكرٍ وعمر . والإماميةُ غيرُ داخلين في الروافض[1] . وأمـا

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (القاهرة ١٣٦٧ = ١٩٤٨) ، ص ٢٥ .

الزَّيْدِيةُ فهم ثلاثُ فِرَقٍ يقولون بإمامة زيد بنِ عليّ بنِ الحسينِ وبإمامة ابنه يحيى من غيرِ أن يَتَبرّأوا من أبي بكرٍ وعمر . ثم يقولونَ بخلودِ أصحابِ الكبائر في النار ، كما يقولُ الخوارج .

الفتوح في ايام هشام

كانت خلافةُ هشامِ بنِ عبدِ الملك – برُغْمِ جميعِ القلاقلِ – حافلةً بالفتوح في المشرق وفي المغرب : كان من أبرزِ الفتوح في المشرق قتالُ الترك في ما وراءَ نهرِ جَيْحونَ . ويعودُ الفضلُ في ذلك الى الواليَيْنِ تَوَلّيا خُراسانَ هما أسدُ بنُ عبدِ الله القَسْريّ الذي تولّى خُراسانَ للمرة الاولى من سَنَة ١٠٥ الى سَنَة ١٠٩ هـ (٧٢٣ — ٧٢٧ م) فلم يُكتَبْ له التوفيقُ ، وثانيهما الجُنَيدُ المُرّيّ الذي كان والياً على السِنْد فجيءَ به الى خُراسان سَنَة ١١١ هـ فاستطاع أن يَهزِمَ التُرْكَ ، بعدَ معاركَ عديدة وخسائرَ جسيمة ، ويُقْصِيَ خَطَرَهم مَرّةً واحدة . غير أنّ التغلُّبَ النهائيَّ على ملوكِ الترك (والعربُ يُسَمُّون كلَّ واحد منهم : خاقان) لم يَتِمَّ إلاّ في ولايـةِ أسدِ بنِ عبد الله القسري على خُراسان للمرة الثانية (١١٧ — ١٢٠ هـ) .

في الغرب

جاء لاوونُ الثالثُ الأسوريّ الى عرشِ الروم في عام ٧١٧ م ، في السَنَة التي تولى فيها عمرُ بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) ثم بَقِيَ طَوالَ خلافة يزيدَ بنِ عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) وخلالَ المدة العظمى من خلافة هِشام (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، إذ أنه تُوُفِّيَ عام ٧٤١ م قبلَ هشامٍ بنحوِ عامين اثنين .

كان لاوونُ الثالثُ رجلاً قديراً ومصلحاً كبيراً ، ولكنه لم يستطعْ أن يَصُدَّ العربَ عن غَزَواتهم المتوالية فاستعانَ عليهم بالخَزَر ، وهم جيلٌ من الناسِ كانوا يَقْطُنون في ذلك الحين بين بحرِ الخَزَر (قَزْوين) والبحر

الأسود ، ولعلَّهم من بقايا الهون . وقد حالَفَهم لاوون الثالثُ نحوَ عام ٧٣٠ م (١١٢ هـ) ، فكان من أثَرِ ذلك أنْ هاجم الخزرُ في العام التالي آذَرْبَيْجانَ ورَدّوا الجيوش العربية عن دروب جبال القوقاس . ثم إنَّ لاوون الثالث وَثّق صلاتهِ بالخزر لما خَطَبَ ابنةَ خاقانهم الى ابنه ووليِّ عهدهِ قُسْطنطين الزِبْلي ، عام ٧٣٣ م . ومعَ أنَّ العربَ غزَوْا بلادَ الروم وأرمينية بعدَ ذلك مراراً ، فإنَّ غزَواتِهم تلك كانت ضعيفةً ثمَّ انقطعتْ بعد ذلك .

المغرب والاندلس

في أواخرِ سَنَة ١٠٥ هـ (ربيع عام ٧٣٤ م) قَطَعَ عَنْبَسَةُ بنُ سُحيم جبالَ البرانس واستقرّ حيناً في أَرْبونة حتى أتمَّ تحصينها ثمَّ شَحَنَها بالرجالِ والعتاد . بعدئذ اتّجهَ غَرْباً نحوَ مدينةِ قرقشونةَ على نهرِ الأود (١٠٦ هـ) وحاصرها فصالَحه أهلُها على جِزْيةٍ وعلى أن يحاربوا من حارَبَهُ ويسالموا من سالَمَهُ . وبعدَ ذلك صَعِدَ عنبسةُ في نهرِ دودنةَ (الرون) حتى وَصَلَ الى لُوكْسُويْ في مقاطعةِ الساءون الأعلى ؛ وتلك أبعدُ نقطةٍ وصلَ إليها العربُ في فرنسة .

— معركة بلاط الشهداء :

تولى عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ على الأندلس للمرّةِ الثانيةِ في صَفَرَ من سَنَةِ ١١٢ (أيار ٧٣٠ م) ؛ وفي العام التالي أرْسَلَ غزوةً إلى بلادِ الفرَنْجَةِ بقيادةِ عثمانَ بنِ أبي نِسْعَةَ وأمره بأن يشاغِلَ العدُوَّ بالغاراتِ حتى يكونَ هو قد أطلَّ بمُعْظَمِ الجيش .

وفي السنة التي تلَتْ (١١٤ هـ) قَطَعَ عبد الرحمن الغافقي جبالَ البرانس ماراً بدَرْبِ (عقبة ، مضيق) رونسفالسَ مُتَّجِهاً نحو بوردال (بوردو) . وحاولَ أود مَلِكُ أكْويتانيةَ (جنوبَ فرنسة) أن يَتَصَدّ

عبدَ الرحمن ، ولكنّه انهزم في المعركة التي وَقَعَتْ بينهما في عُنُقِ وادي دوردون ، على مقرُبَةٍ من مَصَبٍّ ذلك النهر مع نَهرَ الغارون في خليجٍ واحد .

بعدئذ مالَ عبدُ الرحمن الى مدينة بوردو (عند مَصَبِّ نهر الغارون) وأخذَها عَنْوةً ثمّ اندَفَعَ بجيشه شَمالاً حتى مرَّ بمدينة بواتييه قاصداً مدينةَ تور . فلم يَجِدِ الملكُ أود مَفَرّاً من الاستنجادِ بخَصْمه قارلُهْ (شارل مارتل) مُفَضِّلاً أن يَجتاحَ الفرَنْجَةُ بلادَه على أن يَنْتَزِعَها منه العربُ ، وخصوصاً بعد أنْ رأى أنَّ اهلَ المُدُنِ التي كان العربُ قد استقرّوا فيها حيناً مثلَ أرْبونةَ وقرَقَشونة قد بدأوا يتَعاونون معَ العرب .

لبّى قارلُهْ نداء أود خوفاً من التوسع العربي واستدعى جُموعَه من كلِّ صَوْب . وحدثَ الصدامُ الأوّلُ بين طلائعِ العربِ وبينَ الجيشِ الفرنجيّ ، فارتدّتْ تلك الطلائعُ جَنوباً راجعةً نحو بواتييه حيثُ أرادَ العربُ أن يَصْمُدوا للجموعِ الفرَنْجية التي كانت مُنْحَدِرةً نحوَهم كالسيل . ثمّ كانت المعركَةُ الفاصلةُ على نحو عشرينَ كيلومتراً من بواتييه — في مكان يُدعى موسيه — لا — باتاي على مقرُبَةٍ من بَلاط (طريقٍ رومانيّ مُعَبَّد بالبَلاط كان يَصِلُ بين شاتلرو وبين بواتييه) . ومن هذا المكان سَمّى العربُ هذه المعركةَ « معركةَ بلاط الشهداء » .

كان المصافُّ بين العربِ والفرَنْجَةِ بِضْعَةَ أيامٍ حدثتْ في أثنائها مناوشاتٌ كثيرةٌ لم تكُنْ كِفّةُ النصرِ فيها مائلةً إلى العرب ، بل كانت الهزيمة مُطِلّةً عليهم لأسباب منها أنّ الجيشَ العربيّ كان قليلَ العدد ، ولم يكن يطمَعُ في مدد من خَلْفه . أما الفرنجةُ فكانوا جُموعاً لا تُحصى ، وكان المددُ من خَلْفِهم مُتلاحقاً . وكذلك لم يكنْ للعرب خُطّةٌ موضوعةٌ للفتح في بلاد الفرنجة ، بينما كان الفرَنْجَةُ يدافعون عن مُلْكِهم .

وانتظم الفرنجةُ مربعات مُتراصّةً ، وكان العربُ فرساناً في الأكثر : فكلما هجم العربُ على الفرَنْجةِ فأزالوا صفاً من صفوفهم نَبَتَ مكانَه

صفٌ جديدٌ آخرُ ؛ وهكذا احتملَ الفرنجةُ الهَجَمَاتِ العَرَبيةَ وكأنهم جِدارٌ من حديدٍ أو قطعةٌ من جليد . أما العربُ فكانوا في كلِّ هجمة أقلَّ منهم في الهجمةِ التي سَبَقَتْها ، ولم يكنْ لهم مَدَدٌ يَسُدُّ أماكنَ الذين كانوا يَسْقُطون منهم شهداءَ .

وعَزَمَ عبدُ الرحمن الغافقي على الانسحاب وغَطّى انسحابَ جيشه بحركة بارعة : قَسَمَ جيشَهُ قسمين وأذنَ لأحد هذين القسمين بالانسحاب ، بَيْنَما بَقِيَ هُوَ في القسم الآخر يُقيمُ التحصينات وكأنّه مُقْبِلٌ على مَعرَكةٍ واسعة النطاق . ويبدو أن عبدَ الرحمنِ قد سَقَطَ في أثناء إقامة التحصينات فاضْطُرَّ الجنودُ الذين كانوا معَه إلى الانسحاب كيفَ دارتِ الحالُ . فكَرَّ الفرنجةُ حينئذٍ على العربِ وهَزَموهم .

وكانتْ هذه المعركةُ في رَمَضانَ من سَنَةِ ١١٤ هـ (٧٣٢ م) .

— نتائج معركة بلاط الشهداء :

كانت هذه المعرَكَةُ فاصلةً في تاريخِ الحرب وفي تاريخ الحَضارة :

(أ) إنّ العرب لم يُغادروا جَميعَ الأراضي التي كانتْ تحتَ أيديهم في غالية (فرنسة) ، ولكنّ غزوةَ عبدِ الرحمنِ الغافقيّ كانتْ آخرَ مُحاوَلَةٍ جِدّيّةٍ قام بها العربُ لغَزْوِ بلاد الفرنجة .

(ب) أصبح قارْلُهْ بطلاً أوروبياً واتخذ في ذلك اليوم لَقَبَ « مارتل » (المِطرقة) ، فأصبح يُعْرَفُ في التاريخ الاوربيّ باسم « شارل مارتل » .

(ج) يَعُدُّ الاوروبيون معركة بلاط الشهداء رَمْزاً للانتصارِ الدينيّ والسياسيّ . فلقد ظلّتْ فرنسةُ منذ ذلك الحينِ المركزَ الذي خرَجَتْ منه مُعْظَمُ الحَرَكاتِ والجيوشِ لقتال العَرَبِ والمسلمين .

(د) إنّ هذه المعركَةَ قد دَلّتْ على أنّ القوّةَ العَسكريةَ في الأندلس كانتْ قد وَصَلَتْ الى مُنْتَهاها ، فلم يَبْقَ في وُسْعِ المُسْلمينَ في المَغرب

كلهِ أن يُجَيِّشوا من الجيوشِ ما يُمْكِنُ أن يَتَغَلَبوا به على أوروبّةَ التي كانتْ تستخدمُ جُموعَ البرابرةِ المُتَدفّقين على أوروبة من شَرْقِها وشَمالِها لقتالِ العرب .

(هـ) إنّ انتصار الفرنجة قد أخّر نفوذَ الحَضارةِ إلى أوروبةَ وتَرَكَها في عصورها المُظْلِمَةِ حتى عادتْ فاحْتَكّتْ بالعربِ في ميادينِ الحروبِ الصليبية بعدَ ثلاثمائةٍ وخمسين سَنَةً .

سائر احداث المغرب والاندلس

كانتْ صِلَةُ الأندلس بدِمَشْقَ تختلفُ باختلاف الخلفاءِ الأمويين : كانت الاندلسُ أحياناً تابعةً لِدِمَشْقَ فكان الخليفةُ يُعَيِّنُ لها الوُلاةَ (كما كان في أيامِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز ، مثلاً) وكانت أحياناً أخرى تابعةً لِمِصْر أو لِلْمَغْرِب . وفي بعضِ الأحيانِ كان عَرَبُ الأندلس (جنودُ الفتح) هُمُ الذين يَخْتارونَ الوُلاةَ .

فمن الذين تَوَلَّوْا إفريقيَةَ والمَغْرِبَ والاندلسَ مَعاً عُبيدةُ بنُ عبدِ الرحمنِ السُلَميّ (١٠٧ — ١١٥ هـ) ، فلما عَلِمَ باستشهادِ عبدِ الرحمن الغافقيّ وَلّى على الأندلس عَبْدَ الملك بن قَطَنٍ الفِهْريّ (١١٤ — ١١٥ هـ) وكان قُرَشِيّاً من حِزْبِ أهلِ المدينة غيرَ مُحِبٍّ لبني أميّةَ . وذَكَرَهُ ابنُ خَلْدونَ فقال إنه كان ظلوماً في سيرتِهِ جائراً في حُكومته .

غزا عبدُ الملكِ بن قَطَنٍ أرْضَ البَشْكَنْسِ [1] فأوْقَعَ بها وغَنِمَ ثمّ عادَ سالماً .

ولما أُضيفَتِ الأندلسُ إلى ولايةِ عُبيدِ الله بن الحَبْحابِ (١١٥ هـ) — وقد كانَ من قبلُ والياً على مِصْرَ وإفريقيةَ والمغربِ معاً — عَزَلَ عبدَ الملكِ

(١) أرض البشكنس مقاطعات على جانبي الطرف الغربي من سلسلة جبال البرانس (في الجنوب الغربي من فرنسة وفي وسط الشمال من اسبانيا) .

ابنَ قَطَن عن الاندلس، لا لخيانة كانتْ منه بل لأنّه أرادَ أن يَسُرّ بالولايةِ عليها عُقْبَةَ بن الحَجّاج .

كان عقبةُ بن الحجّاج حَسَنَ السيرة رفيقاً بالناس عادلاً قضى ولايته على الأندلسِ بالجِهاد : فتحَ أرْبونةَ وبَنْبَلونة ومقاطعةَ ألَبَةَ وأسْكن فيها كلّها جماعات من المسلمين ، ولم يَبْقَ في جِيلِقيّةَ (شَمالي غربي الاندلس) قريةٌ لم تُفْتَحْ غيرَ الصَخْرة . وكان حَسَنَ السيرة في الأسرى : كان إذا أسَرَ أسيراً (وكان وَثَنياً) لم يَقْتُلْه حتى يَعْرِضَ عليه الاسلامَ ويُقَبِّحَ له عبادةَ الأصنام . ويُقال إنه أسْلم على يَدِه بهذا الفعْلِ ألفُ رجُل . وهذا يَدُلّ على أنّ كثيرينَ من الذين كانوا يُحاربون مَعَ الإسبان في الأندلسِ ومَعَ الفِرَنْجَةَ وراء جبال البرانسِ كانوا لا يزالون على الوثنية ولم يكونوا قد دخلوا في النَصْرانية بعدُ .

وأرسلَ عبيدُ الله بنُ الحَبحاب الجيوشَ الى السُودان (الغربي) والى جزيرة سِقِلّيّةَ وغيرهما فانتصرَتْ جيوشه كلُّها .

— ثورة ميسرة المضغري في المغرب :

لما انهزمَ الخوارجُ في المشرق هرب بعضهم إلى المغرب فبدأت دعوةُ الصُفْرية والإباضية بالانتشار فيه شيئاً فشيئاً .

تَقَبّلَ مَيْسرةُ المَضْغَريّ المعروفُ بالخفير — وهو بربري من البُتْر — دعوةَ الخوارج الصُفْرية وقاتلَ عُبيدَ الله بن الحبحاب ووُلاتَه في المَغْربِ وقَتَلَ نفراً منهم . وأرسلَ ابنُ الحبحابِ جيشاً كبيراً لَقِيَ ميسرة على وادي الشَلِيف ، على مقرُبَة من تِيهَرْتَ (القطر الجزائري) فآثَرَ مَيْسَرةُ الانسحابَ خوفاً من الهزيمة . من أجل ذلك قتله أتباعُه ووَلّوْا على أنفسهم خالدَ بنَ حُميد الزَناتيّ ثمّ عادوا الى قتال جيشِ ابن الحبحابِ ثانيةً ، على وادي الشليف نفسه ، فانهزم جيشُ ابنِ الحبحابِ وقُتِلَ في المعركة عددٌ كبيرٌ من أبطال العرب وفُرسانهم فسُمِّيَتْ تلك الغزوةُ « غزوةَ

الأشراف » . وانتقضَ المغربُ كلّه على عبيدِ الله بن الحبحاب .

— عبد الملك بن قطن والي الاندلس للمرّة الثانية :

وَصَلَ خبرُ الثورة التي قام بها مَيْسرةُ المَضْغريُّ الى الأندلس فثار البربرُ فيها على واليها عُقبةَ بنِ الحجاج بقيادة عبدِ الملك بن قَطَن — والي الاندلس قبل عُقْبةَ — ثمّ أقام عبدُ الملك بن قطن نفسَه على الأندلس والياً من جديد بِرِضا أهلِها ، في صَفَرَ من سَنَةِ ١٢٣ (مطلع ٧٤١ م) .

— زيادة الاضطراب في المغرب والاندلس :

اتسعت الثورةُ في المغربِ وخَلَعَ البربرُ عبيدَ الله بنَ الحبحاب ، فأرسلَ هشامُ بنُ عبدِ الملك الى إفريقية والمغرب كُلْثوم بن عياضٍ القُشيري في اثْنَيْ عَشَرَ ألفَ رجل وأمر بأنْ يَنْضَمّ اليه نَجَداتٌ من كلّ بلد يَمُرُّ به . وكان كلثوم شيخاً كبيراً ، فعَهِدَ هشامٌ الى الجَيْشِ بأنه إذا حَدَثَ بكلثومٍ حادثٌ فالأميرُ بعدَه ابنُ أخيه بَلْجُ بنُ بِشْرٍ القشيريُّ ؛ فإن أُصيبَ بَلْجٌ فالأمير بعدَه ثَعْلَبة بنُ سَلامَةَ الجُذاميّ .

وَصَلَ كُلْثومٌ إلى إفريقيةَ في رَمَضانَ من سَنَةِ ١٢٣ (حزيران — يونيو ٧٤١ م) وقد أصْبَحَ معه ثلاثون ألفاً : عَشَرَةُ آلاف من صُلْب بني أميةَ وعشرون ألفاً من سائرِ العرب ؛ وكان بلجٌ على طلائعه في نحو سَبْعةِ آلاف فارس .

ولم يكنْ كلثومٌ وبلجٌ من ذَوِي المقدرة ولا من ذَوِي الحِلْم فأساءا السيرةَ في البربر خاصّةً . ثمّ التقي جيشُ كلثوم بنِ عياض بجموعِ البربر بقيادة خالد بنِ حُميد الزَناتي الخارجيّ على نَهْرِ سَبَاوْ (ذي الحجة ١٢٣ = مطلع الخريف ٧٤١ م) فقُتِلَ كلثومٌ وانهزم جيشُه .

انسحب بَلْجُ بنُ بشر بمن بَقِيَ سالماً بعدَ المعركة الى مِنْطَقَة سَبْتَةَ ، ولكنّ أكثرَ أهلِ تلك المِنْطقة كانوا من أنصار مَيْسَرَةَ المَضْغري ،

فلَقِيَ بلجٌ ومن معَه هناك ضيقاً شديداً ، إذ كانوا في منْطقة لا يألفونها وبينَ قوم هم أعداءٌ لهم . وألحّ الجوعُ على بلج ومَنْ معَه حتى أكلوا دَوابّهم . واتصلَ بلجٌ بعبدِ الملكِ بن قَطَن يرْغبُ إليه في أن يُرْسِلَ إلى المُحاصَرين في سَبْتَةَ شيئاً من المُؤَنِ وعَدداً من المراكب يَجوزون عليها إلى الاندلس . ولكنّ بَلْجاً خاف على وِلايته في الاندلس من بلجٍ وأصحابه فلم يُرْسِلْ إليهم ما طلبوا منه .

ثمّ زاد الاضطرابُ في الأندلسِ وعَلِمَ عبدُ الملك بن قطنٍ بأن البربرَ سيَقْصِدون قرطبةَ ويقاتلوه كما فَعَلَ إخوانُهم في المغرب .

— دخول بلج الى الاندلس :

وَجَدَ عبدُ الملك بنُ قطنٍ نفسَه مُضْطَرّاً إلى الاستعانة ببلجٍ وأصحابهِ فاستدعاهم الى الاندلس بعدَ أنْ شَرَطَ عليهم أن يَمْكثُوا في الأندلسِ عاماً واحداً وأخَذَ على ذلك رهائنَ من جيش بلجٍ .

جازَ بلجٌ في عَشْرَةِ آلافٍ من أهلِ الشام الى الاندلس وانضمّ إلى عبدِ الملك بن قَطَنَ في قِتال البربر في الأندلس حتى كادَ البربر أن يَفْنَوْا .

— التغلب على الخوارج في المغرب :

أرسلَ هِشامُ بنُ عبدِ الملك نَجْدةً كبيرةً الى المغرب بقيادةِ حَنْظَلَةَ ابن صَفْوانَ والي مِصْرَ . وماكاد حَنْظلةُ يَصِلُ الى القيروان حتى ثار عليه الخوارجُ الصُفرية بقيادة زعيمين منهم ، عُكاشةَ بنِ أيوبَ الفَزاريّ وعبدِ الوحدِ بنِ يزيدَ الهَوّاريّ ، ولكنّ حَنظلةَ استطاع أن يَهْزِمَ عكاشةَ وعبدَ الواحد في معركتين عن مقربَةٍ من القَيْروان ويقتُلهما ، في عَقِبِ سَنَةَ ١٢٤ ﻫ (خريف ٧٤٢ م) .

النزاع بين بلج وابن قطن

أقطعَ عبدُالملك بنِ قَطَن –بعدَ أن تمّ له التَغَلّبُ على البربر– بَلْجاً وأصحابَه أرضاً في نواحي قُرطُبةَ ليَسْكنوها رَيْثَما يَحِلُ موعدُ مُغادرتِهِم للاندلسِ . وقد عُرِفَ أصحابُ بلجٍ في الاندلس باسم **الشاميّين** تَمْييزاً لهم من العرب الذين كانوا قد جاءوا مَعَ طارقٍ وموسى ابن نُصيرٍ والذين كانوا يُعْرَفون **بالبَلَديّين** لِتَبَلُّدِهِمْ (طول مُكْثِهم في الاندلس) .

— ولاية بلج على الاندلس :

لما مرّ عامٌ على وجودِ بلجٍ وأصحابه في الأندلس كانوا قد قَوُوا فرفضوا أن يُغادروا الاندلسَ ثمّ خلَعوا عبدَ الملك بنَ قَطَن ووَلَّوْا على أنفسِهم أميرَهم بلجَ بنَ بِشْرٍ . ودَخَلَ بلجٌ قَصْرَ قُرطُبةَ في صدرِ ذي القَعْدة من سَنَة ١٢٤ (آب – أغسطس ٧٤٢ م) . ثمّ انّ عبدَ الملك قاتلَ بلجَ بنَ بشرٍ في اثْنَتَيْ عَشْرَةَ معركةً من غيرِ أن يستطيعَ التغلّبَ عليه فترَكَ القتالَ واعتزل في بيته في قُرطبةَ . ولكنّ أصحابَ بلجٍ طلبوا عبدَ الملك بنَ قَطَن وقتلوه في حديثٍ طويل ، وكان يومَ قتلهِ في التِسْعين من عُمُرِه .

وكان لعبد الملك بنِ قَطَنٍ ابنان : أُمَيّةُ وقَطَنٌ ، فجَمَعاً جُموعاً من أنصارِهما ، أعداءِ بلجِ بنِ بشرٍ ، من العَرَبِ والبربر وزَحَفا على قُرطبةَ ليقاتلوا بلجاً . ومعَ أن بلجاً قد انتصر عليهما وامتلأتْ أيدي جُنده من غنائمِ جيشِهما ، فانه كان قد أُصيبَ في المعركة بسَهْمٍ أصابَ منه مَقْتَلاً .

— ثعلبة بن سلامة الجذاميّ :

بعد مَهْلِك بلجٍ غَلَبَ ثَعْلَبةُ بنُ سَلامةَ على الأندلس فضبطَ الأمورَ ولكنه اتبعَ سِياسةً عصبيةً يَمَنيةً ففَسَدَ أمرُه وَشيكاً . ثمّ ثارَ

عليه البربرُ في مدينةِ ماردةَ فغزاهم وقتَلَ منهم خلْقاً كثيراً وأسَرَ ألفَ رَجُلٍ . وكذلك ثار البلديون من العرب والبربر فهزَمَهم ثعلبةُ وأفْشى فيهم القتلَ وأسرَ منهُمْ ألفَ رجلٍ وسبَى ذراريَهُمْ وعيالَهم . وقد أساء ثعلبةُ معاملةَ الأسرى فباع قسماً منهم بطريقةٍ مُخزيةٍ ثمّ قتَلَ قِسْماً آخرَ .

اتساع بلاد الإسلام

بلغتْ بلادُ الدولةِ الأُموية في أيامِ هشامٍ أعظمَ اتساعِها ، فقد امتدتْ من شاطىء المحيط الأطلنطيقي في أُوروبة وإفريقية إلى كاشْغَرَ على حدودِ الصين ، وهو امتدادٌ لم تبلُغْهُ امبرطوريةٌ في العصورِ القديمة ولا في العصور الحديثة . أضِفْ إلى ذلك ان بلادَ الدولة العربية قد نَشَرَتْ ثقافتَها كاملةً في كلِّ مكانٍ نشرتْ ظِلالَها عليه .

موت هشام

تُوُفيَ هشامٌ ، يومَ الأربعاء في ٦ ربيع الثاني من سنة ١٢٥ (٦ شباط ٧٤٣) ، فترَك وراءه بلاداً واسعة ، ولكنّ الدولةَ الاموية كانت ، بما تنازَعها من عوامل الضَعْفِ ، قد اشرفتْ على السقوط .

ضَعْفُ الدَّولةِ الأمويَّة

(٢) نشوبُ العصبيّاتِ في المشرقِ والمغرِب

إذا كانتِ الدولةُ سليمةً مُوَحَّدةً وكان أهلُها على رأيٍ واحدٍ وكانوا يداً واحدةً على من سِواهم ، فإنّ الأخطار الخارجيّةَ الطارئةَ قَلّما تؤثّر فيها . أمّا إذا ضَعُفَت الدولةُ من الداخلِ وتَشَتّتَتْ قُواها بالمُنازعاتِ ، فإنّ كلَّ حَدَثٍ يَهُبُّ عليها يُمْكِنُ أنْ يَحْمِلَ إليها الدّمار والتلاشيَ والسقُوطَ . إنّ الشجرةَ ما دامتْ فَتِيّةً سليمةً فانّها تَصْمُدُ في وجهِ العواصف . فاذا ضَعُفَتْ أو شاختْ أو إذا نَخرَها السُوسُ فتعَفّنَ باطنُها هان على الريحِ أن تَقْصِفَها وتُلْقِيَها أرضاً . وكثيراً ما رأيْنا الرِياحَ الهُوجَ تَعْصِفُ بالغابةِ المترامية الأطرافِ ؛ ثمّ تَمُرُ تلك العاصفةُ وأشجارُ تلك الغابةِ عامّةً ثابتةٌ في أَماكنها بأغصانِها وأوراقها ؛ بعدَئذ نرى عدداً من الأشجارِ هنا وهنالك قد تكسّرتْ أغصانُها أوِ انْقَصَفَتْ جُذوعُها أو اجْتُثَّتْ من أُصولِها لا لأنّ العاصفةَ كانتْ شديدةً ، بل لأنّ تلك الأشجارَ نفسَها قد تَفَتّتَ باطنُها معَ أن ظاهرَها كان يبدو سليماً صحيحاً .

الوليد الثاني والعصبية

كان الوليدُ الثاني ، أيِ الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملك « من فِتْيانِ

بني أميةَ وظُرفائهم وشُجعانهم وأشدّائهم ، وكان مُنهمكاً في اللهو والشرابِ وسماع الغناء ، وكان شاعراً محسناً » . وبلغَ من قِصر نظر الوليد الثاني في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الأسرة الأموية أنه أقصى اليمانية عن مناصبهم وملأ مكانهم بالقيسية ، فثار اليمانيةُ عليه ففشا الاضطرابُ في البلاد . حينئذ جمعَ يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك جيشاً ودخلَ إلى دِمَشقَ واستولى على بيتِ المال ، ثم أرسلَ جيشاً آخرَ لقتال الوليدِ بن يزيدَ فانهزمَ الوليدُ ثم أُخِذَ فقُتِل ، يومَ الخميس في ٢٧ من جُمادي الثانية سنة ١٢٦ (١٧ نيسان ٧٤٤) .

يزيد الثالث واتساع الدعوة العباسية

لم يكدْ يزيدُ الثالثُ، او يزيد بنُ الوليد بن عبد الملك، يتولّى الخلافةَ حتى كثرتْ عليه الفتنُ ، فإنّ القيسيةَ في حِمْص ثاروا عليه ؛ وثارتْ عليه فِلَسْطين . وكذلك ثارت العصبيةُ بين القيسية واليمنية في خُراسان . هذا الاضطرابُ ساعدَ الدعوةَ العباسية على الاتّساعِ والرُسوخ ، وزادَ العباسيين جرأةً على قِتال بني أمية .

ابراهيم بن الوليد والانقسام في البيت الأموي

لما تُوُفّيَ يزيدُ الثالثُ ، في أول ذي الحجّة من سَنَةِ ١٢٦ (٢٥ أيلول ٧٤٤) خلَفَه أخوه ابراهيمُ بن الوليد. ولكنّ إبراهيمَ كان ضعيفاً جداً فلم يَفُزْ بمبايعة جميعِ المسلمين : فكان ناسٌ يُسلّمون عليه بالخلافة وناسٌ يسلّمون عليه بالإمارةِ وناسٌ لا يسلّمون عليه بواحدةٍ منهما .

مروان بن محمّد آخر الأمويّين

لما علِمَ مروانُ الثاني المشهورُ باسم مروانَ بنِ محمد (وهو مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم) — وكان والياً على ما بين النهرين وأرمينية والمَوْصِل وآذربيجان — بموتِ يزيدَ وخلافةِ ابراهيم جَمَعَ جيشاً وحاربَ

ابراهيمَ وانتصر عليه ثم دَخَلَ دِمَشْقَ ظافراً فبُويع فيها بالخلافة ، وذلك يومَ الاثنين في ٢٦ من صَفَرَ من سنة ١٢٧ (٧ كانون الاول ٧٤٤) . بعدئذ عادَ مروانُ إلى حرّان — فيما بين النهرين — حيثُ يكثُرُ أنصارُه من القيسية ، واتخذَها عاصمةً له ، هرباً من دِمَشْقَ ومن الشام كلِّها حيثُ كانت السيادةُ لليمانية .

أحداث المغرب والأندلس

يئِسَ أهلُ الأندلسِ البلديونُ والشاميّونُ مِنَ الاطمئنان في حُكْمِ ثَعْلَبَةَ بن سَلامةَ فكتبوا إلى والي إفريقيةَ حَنظلةَ بن صَفْوانَ يسألونه أن يُرْسِلَ إليهم والياً فأرسلَ إليهم أبا الخطّارِ حُسامَ بنَ ضِرارٍ الكَلبي .

أطلقَ أبو الخطّارِ الأسرى الذين كانوا لا يزالونَ في يَدِ ثعلبةَ ثم أخرجَ ثَعلبةَ وجماعةً من أصحابه الشاميّين من الأندلس . بعدئذ جاء الى الشاميّين — وكانوا كلُّهم يَسكُنونَ في مِنطقة قُرطبةَ — ففرّقَهُم في البلاد :

— أنزلَ أهلَ دِمَشْقَ في إلبيرة (مقاطعة غَرناطة) لِشَبَهِ إلبيرةَ بِدِمَشْقَ ، وسمّاها « دمشق » .

— أنزلَ أهلَ حِمْصَ في اشبيليةَ لشبه مقاطعة إشبيليةَ بحِمْصَ وسمّاها « حمص » .

— أنزلَ أهلَ الأُرْدُنّ في مقاطعة ريّةَ (في أرشذونة ومالِقة) وسمّاها « الأردنّ » .

— أنزلَ أهلَ فِلَسْطينَ في شَذونةَ (مقاطعة شَريش) وسمّاها « فلسطين » .

— أنزلَ أهلَ مِصْرَ ، وكانوا كثاراً ، في مكانَيْنِ : في مقاطعة تُدْمير (جنوبيّ شرقيّ الاندلس) وفي مقاطعة باجه (جنوبيّ غربيّ الاندلس) .

كان أبو الخطّار أعرابياً عصبيّاً مُفرطاً في تعصّبه لقومه اليمانيّين. ولكنّه لمّا أصبح والياً على الأندلس سار سيرةً عادلة حكيمة. ثمّ حدثتْ أحداثٌ ردّته إلى الإفراط في العصبيّة.

— الصميل بن حاتم :

كان الصُميلُ بنُ حاتم قيْسيّاً من أهل الكوفة، جاء الى الأندلس معَ بَلْج بن بِشْرٍ قائداً على جُنْد قِنّسرينَ. ومعَ أنّه كان أُمّيّاً لا يَخُط ولا يقرأ الخطّ، فانّه كان من الدُّهاة الحُلماء الذين يُحسنون الصبرَ على الإساءة وانتهازَ الفرصةِ للانتقام.

لمّا عيّنَ أبو الخطّارِ مدينة جيّانَ مكاناً لجُنْد قِنّسرينَ أبى الصميلُ أن ينتقلَ معَ قومه إليها وأصرّ على البقاء في قُرطبة. فجعَلَ أبو الخطّار يسيء إليه بالقَوْل والعمل: ضرَبَه أحدُ الجنود يوماً — في قصْر قُرطبةَ في مَجْلسِ أبي الخطّار — بالسَّوْط على رأسه فمالت عمامتُه. فخرَجَ الصميلُ على تلك الحال (وعمامتُه مائلةٌ) مُغْضَباً، فقال له أحدُ الحُجّاب «أقِمْ عمامتَك». فردّ عليه الصميلُ قائلاً: «إن كان لي قومٌ فسيُقيمونَها!».

كانتْ حادثةُ الصُميلِ بدءاً للنزاع على منْصِبِ الولايةِ في الأندلس بينَ القيسية واليمنية. وقد كان القَيْسيّةُ (قومُ الصُميل) قليلينَ في الأندلس، بينما كان اليمانيةُ (قومُ أبي الخطّار) كثيري العَدَدِ، ولكنّ دهاءَ الصُميلِ جعَلَ النَصْرَ دائماً للقيسية على اليمنية.

عزَمَ الصُميلُ على أن يُقصيَ أبا الخطّار عن ولايةِ الاندلس. اتفقَ الصُميلُ معَ قومهِ القيسيةِ على أن يأتوا برجُلٍ يمَنيّ (من قومِ أبي الخطّار) يجعلونه والياً على الأندلس اسماً ويكونُ الفعلُ والقوّةُ في يَدِهِمْ هم.

ثمّ كتبَ الصُميلُ إلى ثُوابةَ بنِ سلامةَ رئيسِ بني جُذامٍ (اليمنيين) — وكانَ ثوابةُ مِنْ قبلُ والياً على إشبيلية فعزَله أبو الخطّار — وعرَضَ عليه أن يكونَ أميرَ الأندلسِ مكانَ أبي الخطّار. فانضمّ ثُوابةُ إلى الصميل كما انضمّ إليه جماعاتٌ أخرى من اليمانية كانوا مُنْحرفين عن أبي الخطّار.

في رَجَبَ من سَنَة ١٢٧ (نيسان ٧٤٥ م) سار الصُميلُ إلى قتال أبي الخطّار، وعلى مُقدّمة جَيْشه ثُوابةُ بنُ سلامةَ نفسُه. والتقى الجيشانِ على وادي لَكُّه. فجَعَلَ القيسيةُ (في جيش الصميل) ينادونَ اليمانيةَ (في جيش أبي الخطّار) ويقولون: «لماذا تقاتلوننا وقد جعَلْنا الأميرَ منكم؟».

عندئذٍ تفرّقَ جيشُ أبي الخطّار. وحاولَ أبو الخطّار الهرَبَ ولكنه أُسِرَ.

— ثوابة بن سلامة الجُذامي :

بعدَ المعركةِ دخَلَ ثُوابةُ إلى قُرطبةَ فألقى أبا الخطّار في السجن ثمّ جاء الناسُ فبايعوه بالإمارة. وقام الصُميلُ بأمرِ ثُوابةَ فكان ثوابةُ الواليَ في الظاهرِ، أمّا الحاكمُ الحقيقيُّ فكان الصُميلَ.

— أحداث المغرب :

لما فرّق أبو الخطار أهلَ الشام في أقطارِ الأندلس أخرجَ عبدَ الرحمنِ ابنَ حبيبٍ (من نسل عُقبةَ بنِ نافعٍ) من الأندلس، لأنّ عبدَ الرحمن كان له وجاهةٌ من قرابته لعُقْبةَ بنِ نافعٍ وتأثيرٌ على جماعاتٍ من أهلِ الشام، كما كان يطمعُ في الإمارة على الأندلس. فانتقلَ عبدُ الرحمن إلى المَغْرب ثمّ انه استطاع أن يَستبِدّ بأمرِ المَغْرب وأن ينالَ موافقةَ مروانَ ابن محمد (ومروانُ بنُ محمد يومذاك لا سلطةَ له على دِمَشْقَ نفسِها، وبنو أميةَ في شاغلٍ عن أمورِ البلادِ كلِّها).

ثارَ الخوارجُ من جديدٍ على عبد الرحمن بن حبيبٍ في مواضعَ مختلفةٍ من طرابُلُسَ (ليبيا) وافريقيةِ والمَغْرب. ولكنّ عبدَ الرحمن تغلّبَ على تلك الثوراتِ كلِّها.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري

تُوُفِّيَ ثُوابةُ فجأةً، فاختلف القَيْسيةُ واليمانيةُ على مَنْ يتولّى الإمارة في الاندلس وطالَ اختلافُهم فبَقِيَتِ الأندلسُ أربعةَ أشهرٍ بلا والٍ (إلاّ أنّ أهلَ الأندلس كانوا قد قدّموا على أنفسهم عبدَ الرحمن ابنَ كَثيرٍ اللَّخْميَّ ونَصَبوه للنظر في الأحكام: للصلاةِ والقضاءِ والفُتيا، لا للإمارة والحُكْم والحَرْب).

في هذه الأزمةِ اقترحَ الصُّميلُ أن يكونَ والي الأندلسِ عاماً من القيسيّين وعاماً من اليمانيّين على التعاقب. ولكنّهم اختلفوا في أمرٍ: أيأتي في بدءِ هذه التَسْوية والٍ قيسيٌّ أو والٍ يمنيٌّ؟ فاقترحَ الصُّميلُ أن يكونَ الوالي الأوّلُ قُرَشياً، لأنّ عَصَبيّةَ العرب يومَذاك كانت في قُريشٍ، ولأنّ خلفاءَ دِمَشْقَ أصحابَ الفتحِ في الأندلس قُرَشيّون، ولأنّ الإسلامَ ظَهَرَ في قريشَ، فقريشُ — في رأي الصميل — كانتْ فوق النزاع العَصَبانيّ الذي يُمَزِّقُ الأندلس قيسيةً ويمنية.

ثمّ اقترحَ الصميلُ أن يكونَ هذا الوالي الأوّلُ يوسفَ بنَ عبدِ الرحمن الفِهْريَّ. وكان الصميلُ بارعاً جدّاً في تَسْمِيَة يوسفَ الفِهْريِّ أميراً أوّلَ في التسوية: كان يوسفُ الفِهْريُّ مِنْ نَسْلِ عُقْبَة بنِ نافعٍ مُتَقَدِّماً في السنّ وكان يعيشُ في عُزْلَةٍ عن الناسِ ليس له فيهم أعداءٌ ولا خُصومٌ. ثمّ كان يَتَنافس على ولايَةِ المغربِ نَفَرٌ من الطامحين المُتخاصمين. ففي مِثْلِ هذه الأحوالِ يَحسُنُ الإتيانُ بشخصٍ يجتمعُ فيه عددٌ من صِفاتِ يوسفَ الفِهري.

غير أنّ يوسفَ الفِهْريَّ كانَ رجلاً لَيِّناً أيضاً فاستطاعَ الصُّميلُ أنْ

يحكُمَ من ورائهِ كما كان يَحْكُم من وراء ثُوابةَ بنِ سلامةَ الجُذاميِّ.

استيقاظ العصبية من جديد

ما كادَ الأمرُ يستقرُّ ليوسفَ الفِهْريّ حتى أشارَ عليه الصُّميلُ باتّباعِ سياسة قَيْسية وباقصاء جميعِ اليمانيةِ عن مناصبِ الدولة. ولكنّ اليمانيةَ وحّدوا صفوفَهم من جديدٍ وعادوا الى جانبِ أبي الخطّار (الذي كان قد هَرَبَ من السجن)؛ فانقسمَ أهلُ الأندلسِ فِرْقَينِ ظاهرين مُتَحَيِّزين: قيسيّةً ويمنيّةً، وعادتِ العصبيةُ سيرتَها الأُولى.

ثم انقضى عامٌ على إمارة يوسفَ الفِهْريّ على الأندلس، فجاء اليمانيةُ يطلُبون تنفيذَ الاتفاق بتَنَحّي يوسفَ الفِهْريّ لِوالٍ يمنيٍّ. كان يوسفُ الفِهْريُّ مستعدّاً لترك الحُكْمِ خوفاً من الفِتْنة والقتال، ولكن الصُّميلَ أبى. ولمّا رَفَضَ يوسفُ الفِهْريُّ أن يقودَ الجيشَ لقتالِ اليمنيةِ قاده الصُّميلُ بنفسِه.

والتقى الجيشانِ على مقرُبَةٍ من قُرطبَة، في أوائلِ سنة ١٣٠ (أواخر عام ٧٤٧ م) فانهزمتِ اليمنيةُ ووقع قائدا الجيشِ اليمنيّ يحيى بنُ حريثٍ وأبو الخطّارِ في الأسر فقَتَلَهما الصميلُ وقَتَلَ نفراً كثيرين من الأسرى.

وجاء على الأندلسِ، منذُ سنة ١٢٩ ه (٧٤٧ م) أعوامٌ من القَحْط، ثم كَثُرَتِ الثوراتُ في الأندلس والمَغْرب. وظلّ الأمر على ذلك حتى سقطت الدولةُ الأموية في الشام ونجا عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ بنِ هشامِ ابن عبد الملك المعروفُ بعبدِ الرحمنِ الداخلِ من ملاحقة العبّاسيّين ودخلَ الأندلسَ وأعادَ فيها مُلْكَ بني أميّةَ وضَبَطَ الأمورَ فهدأتِ الأحوالُ.

سقوط الدولة الأموية

كان لسقوط الدولة الأموية أسبابٌ متعددةٌ بعضُها قديمٌ قِدَمَ الدولة الأموية نفسها . ولكنْ لما تجمَّعَتْ هذه الأسبابُ وتطوّرت أصبحَ سقوط الدولة الأموية محتوماً ، برُغم كل ما فعله مروانُ بنُ محمد للحَيْلولة دون سقوطها .

١ ــ تعاقُبُ خلفاء اقوياء وضعفاء :

كان في الأمويين خلفاءُ ضعافٌ جداً أمثال معاويةَ بن يزيدَ والوليدِ ابنِ يزيدَ ويزيدَ بنِ الوليد وابراهيمَ بنِ الوليد ، ولم يَشُكَّ في ضَعْفِ هؤلاء أحدٌ . غيرَ أن المؤرخين مختلفون في شأنِ عمرَ بنِ عبد العزيز . لا ريبَ في أن عُمَرَ بن عبد العزيز كان من الناحيةِ السياسية ضعيفاً وإن كان من ناحيةِ الإصلاح والدين قوياً . إن مجيء خلفاء ضعاف يشجِّع الناقمينَ والطامعين على الانتقاض ، وخصوصاً إذا سَبَقَ هؤلاءِ الخلفاء الضعافَ خلفاءُ اقوياءُ سيطروا على الشعب كلِّه وملكوه قَسْراً .

٢ ــ اتساع رُقعةِ الدولة وقلّة عددِ العرب :

بلغت الدولةُ الإسلامية أعظمَ اتّساعِها في أيامِ الأمويين فتعذَّرَ على الأمويين إدارتَها ادارةً مركزية قويّةً . ومع ان مِصرَ والمغربَ ثم العراقَ والمشرقَ كانت عملياً مُستقلة في إدارتها عن دمشق فإن الشام(سورية) نفسَها

وشبهَ جزيرة العربِ كانتا احياناً مَهْدَ اضطرابٍ شديدٍ وخصوصاً حينما بدأتِ العصبياتُ بالتنازع .

٣ ــ تنازع العصبيات

نَقصِدُ بتنازعِ العصبياتِ النزاعَ الذي جرى بين عَرَبِ الشّمال وعربِ الجنوبَ في سوريةَ نفسِها أو في المقاطعات (العراق وخُراسان والأندلسِ على الأخص) . ولقد كانَ الدافعَ الأولَ إلى هذا النزاع حُبُّ السيطرة ، وذلك أن الخلفاء الأمويين أنفسَهم كانوا يقدّمون اليَمَنيّةَ مرةً والقيسيةَ مرة أُخرى . فإذا تقدم اليمينية احتلوا مراتبَ الدولة ونكّلوا بالقيسية ، واذا قدّم أحدُ الخلفاء القيسية عاد القيسية الى الحُكم وانتقموا من اليمنية خصومِهم . ولعلّ من أبرزِ الأمثلةِ على ذلك أن عبدَ الملك بنَ مروان قدّم الحجاج بن يوسف لمقدرته وحزمه ، ثم جاء الوليدُ بنُ عبد الملك فأقرّ الحَجاج . ولكن الحجاجَ كان من ثَقيفٍ، وثقيفٌ من قَيْسٍ . وبما ان الحجاجَ كان قد مَلأ مراتبَ الدولة بأهله فلقدِ امتلأتْ تلك المراتب بالقيسيين .

فلما جاء سليمانُ ، وكان يكرَهُ الحجاجَ ، لم يستطعْ ان ينتقم من الحجاجِ (لأن الحجاجَ كان قد مات) فصبَّ غضبَه على الذين قرّبهم الحجاجُ فأقصاهم عن الحُكْمِ وسجن بعضَهم وقتل بعضَهم . ثم إن سليمانَ ولّى على العراق يزيدَ بنَ المُهلَّب (وكان يمانيا) فجعل يزيدُ يضطهد القيسية ... وبما ان تنازعَ العصبيات هذا كان من أعظمِ الأسبابِ التي أدّتْ الى أضعافِ الدولة الأموية فيحسُنُ ان نستعرض خصائصَ القيسية واليمنية .

القَيْسية (أو العَدْنانية أو المَعَديّة أو النزارية) هم عَرَبُ الشّمال . أما اليمنية (أو القَحطانية أو الكَلْبية أو الأزْدية) فهم عَرَبُ الجَنوب . وفي ما يلي أبرز خصائصهم :

جنسياً : كان عربُ الشَمال اصْفى نَسَباً ، بينما عرب الجَنوب كانوا قد اختلطوا بسُكان إفريقية .

ـ عددياً : كان عرب الشمالِ (في الشام) اكثرَ عدداً من عرب الجنوب .

ـ اجتماعياً : عربُ الشمال اكثرُهم بَدْوٌ ، بينما عرب الجنوب اكثرهم حَضَر . وكان عرب الجنوب سُكانَ سواحلَ وجبالٍ في الأكثر ، وكانت بلادهم اكثرَ خِصْباً (تسمى اليمن : البركة) . ولذلك كانت الزراعة في بلادِهِمْ منتشرةً جداً وكانتِ الصناعة مزدهرةً . ثم ان اليمن كانتِ المركزَ الرئيسي بين الهندِ وفارسَ وشرقيّ إفريقية وبينَ غربيّ آسيةَ وشَماليّ افريقية واوروبة .

ـ ثقافياً : كان عرب الجنوب أرقى ثقافياً لاحتكاكِهم بثقافاتٍ متعددة : بالثقافة الحبشية والفارسية والهندية . أما عربُ الشَمال فكانتِ البوادي والرمالُ محيطةً ببلادِهم ، فلم يكنْ لهم إلاّ اتصالٌ يسيرٌ بالفرس .

ـ سياسياً : أقامَ عربُ الجَنوب دولةً جامعة ، ثم كان لهم دُوَلٌ متعددةٌ . غيرَ ان اليمن خضعت في بعضَ عهودِها مرةً للحبشة ومرةً للفرس ، فتعوّدت بذلك الخضوعَ للحكم الأجنبي ، بينما عربُ الشمال لم يؤسسوا دولةً جامعة قبلَ ظهور الإسلام ولا تعوّدوا الخضوعَ لحكم أجنبي . أما سيطرةُ آلِ كِنْدة (قومِ امرىءِ القيس بن حُجْرٍ ، وكانوا يمنيين) على بني أسد (القيسيين) فلم تَطُلْ كثيراً بلِ انتهتْ بثورةٍ جامحة قتلتْ اكثرَ أفرادِ آلِ كِنْدةَ وقضت على مُلْكهم هناك . وأما المناذرةُ الذين خضعوا في العراق لحكم الفرس ثم الغساسنةُ الذين خضعوا في الشام لحكم الروم فلم يكونوا من عرب الشمالِ بل من عرب الجنوب .

وهكذا نرى بوضوح أن اختلافَ البيئتين قد جَعَلَ النزاع بين عرب الشَمال وبين عرب الجَنوب مُنتظَراً ، كما أنّ تعوّدُ عربِ الجنوب الخضوعَ للحكم الأجنبي يفسر لنا استعانة الأمويين بهم الى حدٍّ بعيد .

هذه الفروقُ كانتْ في أصلِ الخِلاف ؛ أمّا القبائلُ التي كانتْ

تنتسِبُ إلى قيسٍ والقبائلُ التي كانت تَنْتَسِبُ الى اليمن في أيامِ الدولةِ الأمويّة فكانت على مستوىً فِطريٍّ واحدٍ في كلِّ شيءٍ .

٤ ـ الخوارج خاصة

بدأت حركة الخوارج سياسيةً ، واستمرت سياسيةً مدةً طويلةً جداً . إن الخوارجَ كانوا يقاتلون الوُلاةَ الأمويين فضَعُفَتِ الدولةُ الأموية بذلك ضَعْفاً شديداً ، وخصوصاً في أواخرِ أيامها حينما سَيْطر الضحّاك بنُ قيسٍ الشَيْبانيُّ على العراق وجَنوبيّ فارسَ وكاد يقطَعُها من الدولة الأموية مرة واحدة .

٥ ـ تنازع البيت الأموي (على ولاية العهد) :

انقلبتِ الخلافةُ في الإسلامِ ، مَع مجيء بني أمية ، وراثيةً . ولقدِ انتقلت في الفرع السفياني من معاويةَ الى ابنهِ يزيدَ فإلى حفيدهِ معاويةَ بنِ يزيدَ . فلما انتقلتِ الخلافةُ الى مروانَ بنِ الحَكَمِ أوصى مروانُ بولايةِ العهد لابنهِ عبدِ الملك ثم لابنهِ الآخَرِ عبدِ العزيز . ولكن عبدَ الملكِ ما كاد يُصبِحُ خليفةً حتى نقلَ ولايةَ العهد من أخيه عبدِ العزيز الى ابنه هو ، الوليدِ بن عبد الملك ، ثم إلى ابنه الآخَرِ سُليمانَ بن عبد الملك . إن هذا الاختلافَ على ولاية العهد كان في أوّلِ الأمرِ خصاماً عادياً ونزاعاً يُحَلُّ بتفاهمِ الأمويين أو بإكراهِ بعضِهم بعضاً ، ولكن فيما بينَهم . ثم تطوّرَ هذا النزاع فأصبح منذ أيامِ الوليدِ الثاني اغتيالاً أو اقتتالاً .

٦ ـ ثورة الشيعة في خُراسان (ومعهم اليمانية) :

وحركة التشيّعِ نشأتْ أيضاً نشأة سياسيةً . ولكنّ أصحابَ هذه الحركةِ في المشرق لم يستطيعوا قطّ أن يَصِلوا الى الخلافة . ولما أدرك الشيعةُ انهم لن ينجحوا في ثوراتهم على الأمويين انسحبوا ليعيشوا بعيدين عن مركزِ الخِلافة آمنينَ على أنفسِهم على الأقل . ولقد ظلّوا بطبيعةِ الحالِ ناقمين

على بني أمية . في هذه الاثناء كانوا قد جمعوا انصاراً كثاراً من الموالي في فارس عموماً وفي خراسان على الأخص . هؤلاء الموالي المناصرون للشيعة كانوا ايضاً ناقمين على الأمويين لسياستهم القومية والاقتصادية .

ثم زادت النقمة في خراسان على الأمويين لما جاء مروان الثاني وقرّب اليه القيسية . نحن نعلم أنه كان في خراسان عدد كبير من اليمانية يبلغ نحو مائتي ألف[1] . فلما علم هؤلاء بتقريب مروان لخصومهم القيسيين زادت نقمتهم وضموا جهودهم الى جهود الشيعة والموالي وأعلنوا الثورة على الأمويين . ومما زاد في خطر اليمانية في خراسان على الدولة الأموية أن هؤلاء اليمانية لم يعيشوا عرباً في كل شيء ولا نزلوا أحياء خاصة بهم . بل كانوا يعيشون مع الإيرانيين ففرضت عليهم الحياة ان يتفاهموا مع الإيرانيين . ثم انساقوا في الحياة الإيرانية فلبسوا السراويل وشربوا الخمر واحتفلوا بالنيروز والمهرجان وتزيّا وجهاؤهم بزي الدهاقين والمرازبة ، وتكلموا كلهم اللغة الفارسية . وهكذا أصبح القسم الشرقي من بلاد الدولة الأموية ، بما فيه من موال وعرب ، معادياً للدولة الحاكمة في الشام . فلما استغل الشيعة هذه النقمة وقاموا بثورتهم على نصر بن سيّار ، والي خراسان ، ثم ساروا ينتزعون الأقطار من سلطان الأمويين ، كان في جيوشهم الموالي والعرب . إن الأساس « العربي » الذي بنى عليه الأمويون دولتهم قد تزعزع الآن لما ثار عليه العرب أنفسهم .

٧ ـ التيارات الفكرية المختلفة :

ونشأت في العصر الأموي تيارات فكرية مختلفة كالتشيّع والمذهب الخارجي والاعتزال والإرجاء . ولقد كان بعض هذه التيارات مخالفاً لبعضها الآخر او مناقضاً له . هذا زاد في اضطراب الأمر على الأمويين ،

---

(١) كان زياد بن ابيه قد أبعد خمسين ألفاً من اليمانية ومن القيسية أيضاً الى خراسان .

وخصوصاً حين جعل نفر من الأمويين يتزعمون بعض هذه الحركات ، كما فعل مروان الثاني الذي كان قدرياً (معتزلياً) . إن موقفه هذا قد أثار عليه نقمة العامة .

٨ ـ ترفع العرب عن الأعمال اليدوية وعن الصناعة والتجارة :

كان العرب دائماً يخصّون أنفسهم بالإمارة والقيادة والشعر ، وتركوا كل شيء آخر . لذلك انصرف الموالي وأهل الذمة الى احتراف الصناعات المختلفة والى الاشتغال بالتجارة . وهكذا تكون الطبقة الحاكمة في الإسلام قد تركت القوة الحقيقية في المجتمع لخصومها .

الاحداث في أيام مروان بن محمد

كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم من كبار الخلفاء الأمويين ، يعدّ في المقدرة والدهاء مع معاوية وعبد الملك وهشام . ولكنه تولّى الخلافة والفوضى تعصف في بلاد الدولة العربية . وكان مروان بن محمد يلقب بمروان الحمار لشجاعته وصبره واحتماله للمشاق .

واجه مروان بن محمد المصاعب منذ الساعة التي تولى فيها الخلافة :

(١) لما اتخذ مروان عاصمته في حرّان ، بين أنصاره القيسية ، غضب اليمنية في الشام وثاروا عليه ، فسار مروان اليهم وأخضعهم وشيكاً . ثم انه حشد منهم جيشاً وضمه الى أصحابه وسار يريد إخضاع العراق الذي لم يكن قد بايع له بالخلافة بعد . ولكن اليمانية الشاميين انفصلوا من جيش مروان في أثناء مسيره والتفوا حول سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقيماً في الرصافة ، ثم بايعوه بالخلافة . فسار سليمان بهم في آخر سنة ١٢٦ هـ واستولى على قنسرين . عندئذ قطع مروان مسيره الى العراق والتفت الى حرب سليمان بن هشام وهزمه . فنجا سليمان بنفسه الى حمص ثم الى الكوفة . بعدئذ استأمن سليمان من مروان ،

فأمّنه مروانُ وأسكنه معه في حرّانَ (الطبري ٢ : ١٨٩١ – ١٨٩٣) .

وخاف مروانُ أن تتسعَ حركةُ العصيان عليه في مُدُن الشام فقوّض أسوارَ حِمْص وبعلبكّ ودمشق والقدس وسواها . ولم يستطع مروانُ أن يُصْبِحَ سيّدَ الشام والعراق الا في أواخر سنة ١٢٨ هـ (صيف ٧٤٦ م) .

(٢) في سنة ١٢٦ هـ (٧٤٤ م) خرج عبدُ الله بنُ معاويةَ بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب على الأمويين في الكوفة . وزَعَمَ عبدُ الله بن معاويةَ لأتباعه أن رَوحَ الله قد انحدرتْ اليه من آدمَ دائرةً في الانبياء وفي الأئمة من أسلافه آل عليّ حتى حلّت فيه . وكان أتباعه يُعْرفون بالجناحية ، لأن نَسَبَ عبد الله بن معاوية يتصل بجعفر الطيار ذي الجناحين . وقد كثُرَ الجناحيةُ بناحيتَيْ فارسَ وإصفهانَ . وهم يُعَدّون في الغُلاة الخارجين عن فِرَق الإسلام لتساهلهم في العبادات وفي إتيان المحارم ، ولتأليههم عبدَ الله بن معاوية . ثم ان ابا مُسْلِمٍ الخراساني قاتلَ عبد الله بن معاوية وقتله .

(٣) ثارَ الخوارجُ في الكوفة بقيادة الضحّاك بن قيس ، في رَجَبَ من سَنَة ١٢٧ (نيسان ٧٤٥) . ولكنهم انهزموا . غير أنهم عادوا فيما بعد الى العراق في منتصف سنة ١٢٨ (ربيع عام ٧٤٦ م) بقيادة الضحاك نفسه ، وسيطروا على العراق وعلى قِسْمٍ من فارسَ . ولقد انضم اليه في ذلك الحين عددٌ كبيرٌ من اليمنية ومن غيرهم لأنه جَعَلَ يدفعُ للذين ينضمون اليه أعطياتٍ كبيرةً . وهكذا اجتمع تحتَ لوائه اثنا عَشَرَ ألفَ رجلٍ . عندئذ سارَ مروانُ بنفسه لقتال الضحاك فلقِيَه عند كفرتوثا (في الجزيرة) فقتله وهزم جيشَه في آخِر سنة ١٢٩ (آب ٧٤٨) . وحينئذٍ فَقَطْ انسحبَ الخوارجُ نهائياً إلى منطقة الجبال ، في غربيّ فارسَ ، وانجابَ خطرُهم عن العراق .

وقد استطاع مروانُ بنُ محمدٍ أن يتغلّب على هذه الفتن كلّها في

عامين ، بين سنة ١٢٦ وسنة ١٢٨ (٧٤٤ – ٧٤٦ م) . غيرَ أن مروانَ اشتغلَ ، بإخضاع القائمين بهذه الفتن القريبة من دار ملكه ، عن إفريقية والأندلس ، فاضطربت الأحوال فيهما وهاجت العصبيةُ بين المضرية (القيسية) وبين اليمانية ، فأخذتْ سُلطة الأمويين تتقلّص عن تلك الأصقاع النائية . وكذلك اشتغل مَروانُ بذلك عن غزو أرض الروم وعن صدّ الغَزَوات الرومية على تخوم الشام .

(٤) التسويد (إعلان الدعوة العباسية)

التسويدُ نَشْرُ العَلَم الأسود ولبسُ الثياب السود ، وهو الشِعار الذي اتخذه دُعاةُ بني العباس تمييزاً لأنفسهم وأتباعهم من بني أميةَ وأتباعهم أولئك الذين كانوا قد اتخذوا « البياضَ » شِعاراً لهم .

ظلت الدعوةُ العباسيةُ سِرّيةً حتى رَمَضانَ من سنة ١٢٩ (أيار ٧٤٧) حينما أمرَ أبو مسلم الخراساني « بالتسويد » ولَبِسَ أتباعُه السوادَ جهراً ، فكان ذلك بَدْءاً لإعلان الدعوة العباسية . ومن ذلكَ الحين وَقَعَ القتال المنظّم بين بني أميةَ وبين أتباع بني العباس .

ثم إن الدعوةَ كانتْ حتى ذلك الحين إلى « الرضا من آل مُحَمّد » . ولم يكنْ أبو مسلمٍ قد كَشَفَ بعدُ عن أنه يَعْني بآل محمد أبناءَ العباس لا ابناءَ ابي طالب – والعباسُ وأبو طالب عمّان للرسول – . إلا أن الاعتقادَ الذي كان سائداً بين الناس يومذاك كان واضحاً : هو أن الأمرَ سيؤول الى أحد أبناء علي بن أبي طالبٍ . وكان العباسيون أنفسُهم يوهمون الطالبيين بذلك .

ولما وقعت الحرب بينَ المسوّدة وبين بني أمية فوّض ابو مسلمٍ أمرَ الحرب الى قَحْطَبةَ بن شَبيب الطائي . ثم إنّ المسودة اخذوا يستولون على خُراسانَ بلداً بلداً ، بينما كانَ الأمويون يتراجعون شيئاً فشيئاً نحو الغرب . ولقد استنجد نصرُ بنُ سيّارٍ والي خراسان بمروانَ الثاني فلم يستطعْ مروانُ الثاني

إنجادَه . ولما بلَغ تراجعُ نَصْر بن سيارٍ مَرْوَ عاصمةَ خُراسان مَرِضَ هنالك وتوفي في رَبيعٍ الأوّل ١٣١ (تشرين الثاني ٨٤٨) .

ثم ما زال قحطبةُ يتقدمُ حتى بلَغ العراقَ ، فحاربه والي العراق يزيدُ ابنُ عُمَرَ بنِ هبيرةَ ولكنه انهزم (المحرم ١٣٢ = آب ٧٤٩) . وكذلك قُتِلَ قحطبةُ في تلك المعركة نفسِها ، فقامَ بالأمرِ بعده ابنُه الحسنُ بنُ قحطبة ، واحتل الكوفة . وهنا أعلنَ ابو مُسْلمٍ أن الخلافةَ لآلِ العباس ، وأن الخليفةَ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بن علي بن عبد الله بن العباس الذي عُرِفَ فيما بعد « بالسفاح » ، فبُويِعَ له بالخلافةِ في الكوفة .

(٥) معركة الزاب

كان قحطبةُ قد أرسلَ من مدينة نهاوندَ (فارس) أحدَ قُوادِه أبا عَوْنٍ الأزديَّ ، فلَقِيَ عبدَ الله بن مروانَ بنِ محمدٍ على الزاب الأصغر ، أحدِ روافدِ دِجْلةَ ، فهزمه في ذي الحجة من سنة ١٣١ (آب ٧٤٩) . فخفَّ حينئذٍ مروانُ الثاني نفسُه على رأس جيشٍ عددُه مائةٌ وعشرون ألفاً ، ولم يكنْ معَ ابي عَوْنٍ سوى عشرين ألفاً . ولكنّ السفاح أنجد ابا عَوْنٍ بجيشٍ من أهل الكوفة عليه عمّه عبدُ الله بنُ عليّ . فلما وصلَ عبدُ الله بنُ عليّ الى مَشْهَدِ المعركةِ عَسْكَرَ على الضفّة الشرقية من نهر الزاب الأكبر (جَنوبَ الموصل) ، بينما كان مروان الثاني على الضفة الغربية .

قطع مروانُ بنُ محمدٍ الزاب ليباغتَ العباسيين ، ولكنه وَجَدَ أن قلوبَ أصحابهِ متفرقةٌ ، فأَحبّ ان يُحَمِّسَهُمْ ، ولكنّه ارتكبَ خطيئةً فادحةً إذْ أعلنَ لهم أن معه في خَيْمته أموالاً سيُوزعها عليهم بعدَ المعركةِ . طَمِعَ الجندُ بالمالِ ورَجَعوا نحو الخيمةِ فوقعت فيهمُ الفوضى فالهزيمةُ (١١ ربيع الثاني ١٣٢ = ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) . وكان مَن غَرِقَ في نهر الزاب من الأمويين اكثرَ ممن قُتل منهم بالسيف .

مقتل مروان بن محمد

وكان ممّن نجا بنفسِه مروانُ بنُ محمدٍ فهربَ إلى مِصرَ ، ولكن جُنودَ العباسيين أدركوه في قريةٍ من قرى الصَّعيد اسمها ابو صِير (بوصير) فقتلوه (٢٦ ذي الحجة ١٣٢ = ٥ آب ٧٥٠) . وهكذا زالتِ الدولة الأموية من المشرق .

الحياة الدستورية والإدارية في العصر الأموي

نظام الحكم والادارة

كان شكل الحكم في الدولة الاموية « مُلكاً مطلقاً يرتكز في ظاهره على الوازع الديني » . أما أنه مُلْك فلأن الخلافة كانت قد انقلبت من شورى صحيحة إلى شورى شكلية ، وأصبح انتقالها من خليفة الى خليفة بالإرث . وأما انه كان مطلقاً فلأن الخليفة لم يكن يتقيد في حكم البلاد الاسلامية وادارتها بدستور موضوع ، ولم يكن هنالك مجالسُ ثابتةٌ رسمية . ولقد كانت السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية تجتمع في شخص الخليفة . وأما ان هذا الملك كان يرتكز **في ظاهره** على الوازع الديني فلأن الخلافة الاموية كانت **في ظاهرها** تتمة لدولة الخلفاء الراشدين ، ولا عبرة بالبَيْعة الدينية التي كانت تسبق تنصيب الخليفة الأموي الجديدة ، ولا بالأَيْمان التي كان يُقسمها المبايعون « اذ كان الإكراه فيها اكثر وأغلب » .

وهكذا كان الخليفة الأموي رئيس الدولة والمتشرع والقاضي والقائد في الجيش والامام في المسجد . ومع أن الخليفة الأموي لم يُرِدْ احياناً أن يتحمل جميع هذه التَّبِعات ، أو لم يستطع ذلك، فانه كان دائماً يُعيِّنُ الذين يجب ان يقوموا بها رأساً تعييناً شخصياً . وكان جميع القضاة والولاة والقواد مسؤولين تجاهه .

ولما تولى الفرع المرواني الخلافة جُعل وُلاةُ الأمصار كلهم من أهل البيت

المالك (ما عدا العراق . ولكن اتفق ان كان في العراق قبل الحجاج بِشْرُ بن مروان ، أخو عبد الملك) . والظاهر من هذه السياسة ان الخليفة كان يريد ان يجعل ولاة الأمصار من اعضاء أهل البيت المالك ليصرف أولئك الأعضاء عن التفكير في طلب الخلافة ، اذا كان قد سبق لهم ان فكروا فيها .

وكان جميع الخلفاء الامويين عرباً اقحاحاً ، من جهة الأب والأم ، ما عدا يزيد الثالث (ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان) فانه كان ابن أَمَة .

ولاية العهد

ومَع ان معاوية قد جعل الخلافة وراثية فانه لم يكن هنالك نظام ثابت لتوارث الملك . لقد كان المفهومَ منها ان تنتقل الخلافة دائماً الى أفضل فرد في الاسرة الاموية الحاكمة ، وليس من الضروري ان تنتقل من الأب الى ابنه — وان كان اكثر الخلفاء قد حرَصوا على نقلها الى ابنائهم — فقد انتقلت من معاوية الى ابنه يزيد ، كما انها انتقلت من الوليد الى أخيه سليمان ثم انتقلت من سليمان الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز .

ويدافع ابن خلدون عن ولاية العهد (مقدمته ٣٨٧) بأن ولاية العهد (أي مجيء خليفة بعد آخر) كانت الشورى المطلقة بين جميع المسلمين حينما كان « الوازع الديني » قوياً جداً في النفوس ، فكان الجميع يتوخَّوْن المصلحة العامة . أما بعد ان ضعف الوازع الديني وقوي الوازع العصباني (وازع العصبية) ، فلو عهد (خليفة) الى غير من ترتضيه العصبية لَرُدَّ العهد وانتقض أمره (أمر العهد) وصارت الجماعة الى الفُرقة والاختلاف . والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه (مع انه كان يومذاك في غير بني أمية ، وفي بني أمية أنفسهم ، من هو أفضل من يزيد) انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ مِنْ بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يَرْضَوْنَ سواهم — وهم عِصابة قريش ، وأهلُ الملة اجمعُ وأهل الغَلَب منهم ، فآثره بذلك دون

غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعدّل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع ... » .

السلطة التشريعية

لم يكن في الاسلام سلطة تشريعية ولا جاز ان يكون هنالك مثل هذه السلطة ، لأن القرآن الكريم كان شريعة مُنزلة ، وكان الحديث الشريف مُفَصِّلاً لتلك الشريعة . وعمل الخليفة كان تنفيذ الشريعة المنزلة ، لا وضع شرائع جديدة .

ولكن الفقهاء كانوا أحياناً يختلفون في تأويل بعض الآيات او تفسير شيء من الحديث فنشأت حاجة الى « المجالس الخاصة » ، وهي ان يدعوَ الخليفة بين حين وآخرَ نفراً من الصحابة أو التابعين أو من بعض العلماء المعروفين يسامرهم في الأدب والفقه والسياسة والأخبار ليتفقه منهم في بعض وجوه السياسة والادارة أو ينظر في الحقيقة الى حاجة الدولة الاسلامية في أقطارها المختلفة . وقد كان الخليفة أحياناً يستقدم الوفود من البلدان المختلفة يستخبرهم احوالَ بلادهم ، كما كان يفعل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز . وكثيراً ما كان الخليفة يعتمد على الولاة انفسهم في ذلك .

وقد تَعرِض مشكلة خاصة فيجتمع بنو أمية — كما فعلوا في الجابية بعد موت معاوية بن يزيد — أو يجتمع الخليفة ببعض زعماء الأقطار كما اتفق لعبد الملك حينما عظمت نقمة العراقيين على الحجاج ، أو كما اتفق في مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج وفي استدعائه وفداً من سكان بلاد ما وراء النهر . وهكذا نرى أن الحاجة مسّت منذ أيام بني أمية الى تقليب النظر في أحوال البلاد في الناحية السياسية والناحية الدينية أيضاً .

القصر والمسجد

ولم يكن للحكومة مكان خاصٌّ مستقل ، بل كان الخليفة يباشر الأعمال

في بيته . وكذلك كان يفعل الوالي . وكان معاوية يستقبل مساعديه ووزراءه في بيته الخاص الملاصق للجامع الأموي ، وكان سريره أيضاً في بيته . أمّا القضاء فكان الخليفة يباشره في المسجد لا في بيته . فبيت الخليفة اذن كان مستقر السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية (أي القصر) ، وأما المسجد فكان المحكمة .

ولقد درج الخلفاء كلهم الى أيام بني العباس على ان يكون القصر ملاصقاً للمسجد كما نرى في دمشق وبغداد . وعلى هذا سار الولاة ايضاً كما نرى في الكوفة حيث نجد المسجد لصيق دار الأمارة ، وكما نرى في واسط .

السلطة التنفيذية

كان الخليفة يدير البلاد الاسلامية شخصياً أو كان يعين مِن قِبَله مَن يدير بعض المقاطعات أو الأعمال . على ان الأمويين لم يفصلوا تماماً بين أعمال هؤلاء الولاة والقضاة والقواد . فالمهلّب لم يكن قائداً فقط بل كان والياً وعاملاً ايضاً ، وكان له حق التصرف بما يَجبي من أموال البلاد التي في المشرق ، وبأن يدير مقاطعته ويعين لها في حياته أو بعد موته من يشاء . وكذلك الحجاج فقد عينه عبد الملك والياً على العراق ، ولكنه كان يفصُل في الدعاوى ويعاقب ويقضي ويقود الجيوش ويوجهها الى الفتح ويعين الولاة على البلاد التي فتحتها جيوشه .

غير أن أحوال الحياة والحكومة كانت في أيام بني أمية قد تشعبت وجوهها ، وأصبحت البلاد بحاجة الى ما يسمى اليوم بالوزارة . فاتخذ الأمويون منذ أيام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يُدعَوْنَ أيضاً : فآلُ المهلّب والحجاجُ كانوا من وزراء بني أمية لا بمعنى ان منصب الوزارة كان قد أصبح محدوداً معروفاً ، بل بمعنى ان هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ويقومون بجميع الأعمال التي يقوم بها الوزراء عادة في كل زمن .

وقبل التبسط في الإدارة الأموية يجب ان نعلم شيئاً عن الوزارة الى

أيامهم : لا شك في ان العرب عرفوا الوزير بمعنى المساعد والشريك في الأمر ، والذي يساعد في حمل الاعباء ، كما جاء في قوله تعالى « واجعلْ لي وزيراً من أهلي : هرون أخي ، اشْدُدْ بهِ أزْري وأشْرِكْه في أمري ».

وكذلك رأينا في أيام الرسول ان ابا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستشيرهما في المُلِمّات ، ويساعدانه في تسيير الأمور . وكذلك كان عمر وزيراً لأبي بكر . ثم جاء عثمان بن عفان فكان مروان بن الحكَم كاتباً له وأميناً ينفذ عنه كلّ ما شاء . ولم يتأخر الامام عليّ عن استشارة بعض اعوانه من الصحابة في كثير من الأمور .

فلما جاء بنو أمية اختاروا مساعديهم من أهل الدنيا لا من أهل الدين ، كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف ، وهكذا اخذت الادارة الاسلامية منذ أيام الامويين تكتسب الصبغة السياسية الحديثة . غير أنها عادت في أيام عمر بن عبد العزيز سيرتها الدينية الاولى ، فقد كان لعمر ثلاثة نفر يأخذ بآرائهم في كل شيء هم أخوه سهل ، وابنه عبد الملك ، ومولاه مزاحم ، وكان اتّجاه هؤلاء دينياً مثل اتجاه عمر بن عبد العزيز نفسهِ لا دنيوياً كاتجاه زيادٍ والحجاج .

وكان **معنى الوزارة في بني أميّة** « حجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية » . قال ابن خلدون (مقدمته ٤٢١) : « وقد جاء ان عبد الملك لما ولّى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فأمرٌ ما جاء به . وصاحب الطعام لئلا يفسُد . ثم استفحل الملك بعد ذلك ... وكانت الوزارة أرفع المراتب في دولة بني أمية ، وكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك » .

رأس السلطة التنفيذية

تشمَل السلطة التنفيذية اليوم « الوزارة التي تقوم بتنفيذ ما تقره السلطتان التشريعية والقضائية » باسمِ الملك في البلاد الملكية وباسم الشعب في البلاد الجمهورية . أما في صدر الاسلام فقد كانت هذه السلطات مجتمعة في شخص الخليفة . ومع أن معاوية اتخذ المساعدين والوزراء ، فانه لم يتخلَّ عن النظر شخصياً في أمور الدولة ، لقد كان يستعرض الشؤون العامة مرتين كل يوم على الأقل : اذ يدخل عليه وزراؤه في الصباح على الطعام فيكلمونه فيما يريدونه من يومهم الى العشيّ ، ثم يدخلون عليه بعد صلاة العشاء فيذاكرونه فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم . (مروج ٢ : ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، و ٣ : ٢٥١) .

ولكن الخليفة منذ أيام الخلفاء الراشدين كان قد شعر باستحالة الاشراف على الأعمال ، فانشأ الدواوين المختلفة . فلما جاء معاوية كان في الاسلام اربعةُ دواوينَ : ديوان الرسائل وديوان الجند وديوان الناس وأُعطياتهم وديوان الخراج . ثم أوجد معاوية ديواناً خامساً جديداً هو ديوان الخاتَم .

وكانت الخواتم في خزائن الملوك لا تدفعها الى الوزراء . فاطّرد الأمر على ذلك حتى ملك بنو أمية وأفرد معاوية ديوان الخاتم وولاه عُبيدَ بن أوس الغساني وسلّم الخاتم اليه ، وكان (منقوشاً) على فَصّه « لكل عمل ثواب » . وكان سبب ذلك ان معاوية كتب لعمرو بن الزبير الى بعض عماله بمائة الف درهم ، ففرقَ عمرو الهاء وجعلها ياء ، وأخذ مائتي الف درهم . فلما مرت الرقعة بعدئذ بمعاوية ذكر انه لم يَصِلْه الا بمائة الف درهم . فأحضر العاملُ الكتابَ ، فوقف معاوية على الأمر فاتخذ ديوان الخاتم [1] .

وفي أيام يزيد بن الوليد أصبح للخاتم ديوانان : ديوان الخاتم الكبير

(١) الصولى ، أدب الكتاب (المكتبة العربية ببغداد ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١) ص ١٤٣ .

وديوان الخاتم الصغير .

ثم كانت الحاجة قد دعت ، منذ صدر الدولة الأموية ، الى دواوينَ جديدة لوجوه الحياة التي جَدّتْ ، فقد رأينا في أيام الوليد بن عبد الملك كاتباً يكتب له على المستغَلاّت بدمشق . وفي أيام سليمان كان عبد الله بن عمرو بن الحارث يكتب له على النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق . وفي أيام هشام كان قُبيصة بن ذؤيب يتولى ديوان الصدقة . والكتابة على الصدقة قديمة ، كانت منذ أيام الرسول ، ولكن لم يكن لها ديوان . ثم كان هنالك ديوان الخاصة ، أي الديوان الذي يتولى الاشراف على الأموال والأراضي الخاصة بالخليفة . وربما كان لولي العهد كاتبه الخاصّ به .

وكذلك كان في الأمصار دواوينُ محلية على غرار تلك التي في العاصمة . أما الدواوين الرئيسة في الدولة الأموية فكانت التي تلي :

(١) ديوان الرسائل : ديوانُ الرسائل يشبه رئاسة الوزارة في أيامنا . فرئيس ديوان الرسائل ، ويسمّى الكاتب ، ينشىء الرسائل التي يبعث بها الخليفة الى الولاة والعمال والملوك الآخرين ، ويتلقى الرسائل التي ترد الى الخليفة . وقد كان الكاتب في أوّل أمره موظفاً بسيطاً لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل من الخليفة . حتى ان بعض الخلفاء ، كعمر بن عبد العزيز كان يكتب رسائله احياناً بيده . ولكن لما تشعبت أمور الدولة أخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئاً فشيئاً . « فقد كان قُبيصة بن ذُؤيب يكتب لعبد الملك ، وبلغ من لطافة محله منه انه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك ، وكان له ذلك عادة » . وقد تساهل سليمان بن عبد الملك وأمر كاتبه ان يوقّع عنه في رسالة وردت من مَسلمة بفتح بعض بلاد الروم . ثم أصبح الكاتب مأموناً في كل ما يكتب ، ولا يفعل الخليفة اكثر من أن يوقّع فقط . ولذلك كثيراً ما كان الكُتّاب يتلاعبون بالأمور . فقد « حُكي أن هشاماً أَقطعَ قبل ان يَليَ الخلافةَ (ربما في أيام يزيد بن عبد الملك) ارضاً

يقال لها دورين . فأرسل في قبضها فاذا هي خراب . فقال لذُويد — كاتب كان بالشام — وَيحَك ، كيف الحيلة ! فقال (ذويد) ما تجعل لي ؟ فقال هشام : اربعمائة دينار . فكتب (ذويد) : « دورين وقراها » ، ثم امضاها في الدواوين . فأخذ هشام شيئاً كثيراً ... ولقد حصّل الكتاب انفسهم من مناصبهم اموالاً جليلة . وبلغت الجرأة بالكتاب إلى أنّ قَطَناً مولى يزيد ابن الوليد ، وكان يتولى ديوان الخاتم والحجابة ، كتب على لسان الخليفة يزيد بن الوليد كتاباً بولاية العهد لابراهيم بن الوليد وقرأه على الناس فبايعوا لابراهيم خلافاً لإرادة الخليفة المُحتَضَر .

وقبل ان ينقضي العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذاتَ قواعدَ وأصول (في أيام عبد الحميد الكاتب ، كاتب مروان الثاني) ، وأصبح الكاتب كأنه وزير له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة في تسييرها .

وقد جعل سليمان للكتابة هيبة فأمر ان يُكتَب في الطوامير — القراطيس الكبيرة (الأوراق الرسمية) — بخط حسن كبير منمق . فلما جاء عمر بن عبد العزيز رأى ان ذلك اسراف فأمر بالاقتصاد بالقراطيس ، وبأن يُجعل الخط ناعماً دقيقاً .

ولقد حرَص الخلفاء كلهم على ألا يتناولَ الكُتّاب الهدايا لئلا يحملّهم ذلك على الخيانة في أموال الدولة وأمورها . ومع كل هذا الحرص فقد وقع في أعمال الدولة كثير من المحذور ، وكذلك أجمع الخلفاء على عزل الكاتب اذا قبل الهدية .

وكان هذا الديوان يُكتب ، منذ ايجاده ، باللغة العربية .

(٢) ديوان الجند : كان الجهاد ركناً من أركان الدعوة الاسلامية . وكان الناس يتطوعون للذهاب الى الفتوح تطوعاً حراً بلا قيود لاسمائهم ولا أُعطياتهم ولا للغنائم التي يأخذونها . وظل الأمر كذلك حتى أوجد

عمر بن الخطاب ديوان الجند وهو في الحقيقة سجل للجيش . أما الذي دعا عمر الى ايجاد هذا الديوان فهو « ان الهرمُزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان قال له : ومن يعلم بغَيْبَة من يغيب منهم ؟ فإن من تخلّف أخلّ بمكانه ، وانما يضبط ذلك الكتاب » . فأوجد عمر ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدئاً من قرابة رسول الله وما بعدها الأقربِ فالأقلِّ قرباً ، وذلك في المحرم من سنة عشرين (كانون الثاني ٦٤١) .

(٣) ديوان الناس وأعطياتهم : هذا الديوان يشبه ديوان الجند ، وقد يستنتج من بعض الأقوال انهما واحد . وهذا الديوان من وضع عمر بن الخطاب أيضاً . يقال إنّ أبا هُريرة أتى من البحرين بمال فاستكثروه وتعبوا في قسمته ، فسَمَوْا الى احصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال : رأيت ملوك الشام يدوّنون . فقبل منه عمر ذلك الرأي .

(٤) ديوان الخراج : الخَراج هو الضريبة التي تؤخذ على الأرض . وقدِ اختلف العلماء في تحديد الخراج ، ولكن الذي يبدو لنا من المصادر ان ديوان الخراج لم يكن فقط للخراج وانما كان لوجوه الأموال كلها ، أي أنه كان ديواناً لانواع الضرائب التي كانت الدولة تَجبيها . ولما دخلت بلاد الشرق الأدنى في الدولة الاسلامية كان هذا الديوان موجوداً ويكتب بلغة البلاد المفتوحة » ؛ وبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل : ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالقبطية . وقد كان الذين يكتبون في هذه الدواوين من الذين يعرفون الفارسية أو الرومية او القبطية ، ومن غير المسلمين ايضاً : كان سرجون بن منصور الرومي النصراني يكتب على ديوان الخراج منذ أيام معاوية الى أيام عبد الملك . وكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابنُ أُثال النصراني . وكان يكتب لمسلم بن زياد ، والي يزيد على خراسان ، اسطفانوس . وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان والي مصر ايناس بن خمايا ، وهو من أهل الرها . وقد كتب على ديوان الخراج رجال من الفرس دخل اكثرهم الاسلام امثال زادويه والد

عبد الله بن المقفع ، وسارزاد وزادان فرّوخ كاتب الحجاج بن يوسف .

وأخيراً أراد عبد الملك تعريب الامبراطورية لأسباب كثيرة .

أ — اعتقاد المسلمين ان اللغة العربية لغة الدين وأشرف اللغات ، فلا يجوز أن تظل سجلات الدولة العربية المسلمة تكتب بغير اللغة العربية .

ب — كانت كتابة الدواوين بغير اللغة العربية حائلاً دون مراقبة السجلات .

ج — كان الذين يديرون الدواوين في الأغلب من غير المسلمين .

د — قويت النزعة القومية العربية في الدولة الأموية فلم يكن الامويون يرضَوْن باستعمال لغة غير عربية في حكومتهم .

وهكذا خطر لعبد الملك منذ سنة إحدى وثمانين للهجرة (٧٠٠ م) ان ينقل الدواوين الى اللغة العربية ، فأمر سليمانَ بن سعد بنقل ديوان الشام . فطلب سليمان مقابل ذلك خراج الاردن عاماً واحداً (١٨٠ الف دينار) . وقد تم نقل ديوان الشام في عام واحد . وأما في العراق وسائر المشرق فكانت الدواوين بالفهلوية ، وكان يكتب على ديوان العراق زادان فروخ ابن بيري ، وكان له معاون اسمه صالح بن عبد الرحمن وهو فارسي الأصل ايضاً . ثم ان زادان فروخ قتل في اثناء فتنة ابن الأشعث ، فلما بدا للحجاج نقل الدواوين عهد بذلك لصالح فنقلها سنة ٧٨ هـ ، أي قبل ان ينقل ديوان الشام بثلاث سنوات .

وبعد نقل الدواوين الى العربية ظل فيها نفر من الموظفين من المسيحيين او الصائبة أو المجوس الذي كانوا قد اتقنوا العربية . ولكن عمر بن عبد العزيز أمر ان يُعَيَّنَ مكانهم موظفون مسلمون .

ويتبع ديوان الخراج أنواعُ العملة ، فقد كان المسلمون إلى أيام عبد الملك يتعاملون بالنقود اليونانية أو الفارسية ، وهي مختلفة الأوزان والقِيَم ، فاتخذ المسلمون عياراً وسطاً وجعلوا الدرهم أربعة عشر قيراطاً فضةً . ثم

أنهم ضربوا الدينار من الذهب ، وذلك سنة ٧٤ أو ٧٥ هـ (٦٩٣ م) . ولكنّ هذه الدنانير وضعت موضع التداول عام ٧٦ هـ . ويقال ان مُصعَب ابن الزبير ضرب الدراهم والدنانير قبل ذلك ، في سنة ٧٠ بأمر من أخيه عبد الله . وفي سنة ٧١ ضرب الحجاج الدراهم باسمه . ولم يجعل المسلمون في نقوش النقود صوراً بل كلمات من كتاب الله .

ونأتي الآن الى أحكام ديوان الخراج عامة ونظام بيت المال في عهد بني أمية . ويجب ان نلاحظ أولاً ان مصادر بيت المال قد نقصت في بعض النواحي كالزكاة والصدقة وزادت في بعضها كالضرائب التي أخذهـا الأمويون ولم ينصّ عليها الدين . ثم ان الإنفاق من بيت المال أصبح تابعاً لهوى الخليفة لا للشريعة . وكذلك أصبح للخليفة ولأعضاء البيت المالك رواتبُ باهظة من بيت المال .

اولاً — مصادر بيت المال :

أ — الزكاة : وهي مبلغ اثنين ونصف بالمائة من المال المجموع (ومن الحيوان وثمار الأرض) اذا مر عليه عام من غير ان يتعلق به دين . وقد قل ورود الزكاة الى بيت المال لأن نفراً من الناس لم يكونوا يرَوْن بَيْعةَ بني امية صحيحةً ، فلم يكونوا يرسلون زكاتهم الى بيت المال بل كانوا يتهَبونها بطريقة خاصة ، مع ان بعض الفقهاء أجاز تسليمها لبني أمية ووُلاتهم .

ب — الصدقة : وهي التبرع الحر بالأموال في وجوه الاحسان . وقد قلت الصدقة كالزكاة وللسبب نفسه .

ج — الغنائم : كان الخمس من الغنائم (الأموال والأشياء المنقولة التي تغنم في الحرب) يذهب الى بيت المال . والجزية داخلة في الغنائم .

د — العُشر : يؤخذ من أصحاب الأرض الذين اسلموا عند الفتح ، تبقى الأرض ملكاً لهم ويدفعون عنها عشراً فقط . فالعشر إذن زكاة ما تُنبت الأرض، وهو يؤخذ من المسلمين . وبعض الفقهاء كانوا يرَوْنَ ان

الأرض يكون عليها إما خراج وإما عشر . وبعضهم كان يقول بأن الأرض يجب ان تدفع خراجها على مِساحتها ثم عشراً على ما تنبت من الحب خاصة . ويؤخذ العشر من المسلمين ، أما الخراج فيؤخذ من الذمّيين . فاذا أسلم رجل ذمي تخرج أرضه من الخراج الى العشر . فالخراج اذن ضريبة والعشر صدقة (زكاة) . وإذا استأجر ذمي أرضاً من مسلم فلا يدفع المسلم عشرها لأن النتاج ليس له ، ولا يدفع الذمي خراجاً لأن الأرض ليست له — بل يُكتفى منه بالجزية .

هـ — الخَرْج : اذا فُتحت بلادٌ ما صلحاً وأتفق العرب مع أهل البلاد (الذين لم يسلموا) على مبلغ معين يدفع في كل عام ، فان الارض تبقى حينئذ لاصحابها ويكون لبيت المال ذلك المبلغ الذي اتفق الفريقان عليه .

و — الفيء : وفي حكمه خلاف بين الائمة . ولكن الأرض التي تفتح عَنوة تكون أرض فيء : تكون الارض نفسها للمسلمين بمعنى انه لا يجوز لاصحابها بيعها ولا الانتقال منها ، بل تعتبر الارض وقفاً وأهلها رقيقاً ونتاجها لبيت المال .

ز — الخراج : الخراج ، ويسمى الطسق أيضاً ، وهو يشبه الفيء من الناحية العلمية على اعتبار ان الأرض تبقى ملكاً لاصحابها ولكنّ أصحابها يدفعون الخراج عنها بحسب مِساحتها . فهم يدفعون عن كل جريب درهماً نقداً وقفيزاً من نتاجها . أما اذا أصاب الغلال آفة او غرقت الأرض فان الخراج يسقط عن صاحبها . وبهذا يختلف الخراج من الخرج ، لأن الخراج نسبة ثابتة معلومة بينما الخرج مبلغ متفق عليه لا علاقة له بقياس الأرض ولا بخصبها ولا نوع ثمرها .

ح — الجزية : الجزية ضريبة تؤخذ عن الأشخاص من غير المسلمين اطلاقاً (من أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، ومن أنزل منزلتهم من المجوس والصابئة ، كما تؤخذ أيضاً من المشركين الذين يعدّدون الآلهة ومن

عبـدة الأوثان) . وتؤخذ الجزية من الذكور البالغين الاصحاء الذين يتكسبون (ولا تؤخذ من الاطفال والنساء وذوي العاهات والرهبان ولا من الطاعنين في السن) . أما مقدار الجزية فكان مبلغاً ثابتاً مقطوعاً (مهما كانت ثروة الذي تستحق عليه) . وقد جعلت الجزية على ثلاث مراتب : أربعةَ دنانير في العام على الموسرين ، وديناران على متوسطي الحال ، وديناراً واحداً على من دونهم . ويمكن تقسيم الجزية أقساطاً أو تأجيلها الى زمن الغلّة . أما الذي يُسلم فتسقط عنه الجزية . وإذا اتفق أن ذمياً تأخر عن أداء الجزية عاماً أو أكثر ثم أسلم ، فإن الجزية المتأخرة تسقط عنه أيضاً .

والعرَبُ لا تُقْبَلُ منهم الجزية ، فقد أمر الاسلام بأن يُقاتَل العرب على الاسلام (أي يقاتلوا حتى يدخلوا في الاسلام وألاّ يُقْبَل منهم غيرُه). وقد استثنى عمر بن الخطاب من ذلك قبيلة تغلبَ النازلة في العراق ، وهم عرب كانوا على النصرانية ، استثناء موقتاً ، فأخذ منهم الزكاة مضاعفة (خمسة بالمائة) وسكت على بقاء المعاصرين له منهم على النصرانية ، ولكن شرَط عليهم ألا يصبُغوا أولادهم بالنصرانية (ألاّ يعمّدوهم) . وقد أثاب عمر بن الخطاب بني تغلب بذلك لأنهم حاربوا الفرس يوم القادسية في صفوف المسلمين .

وبما أن الناس كانوا يدخلون في الاسلام تباعاً وباستمرار ، فان عدداً من مصادر الأموال الواردة الى بيت المال – كالجزية والخراج – قد قلّ الوارد منها ، مع الأيام ، أو انقطع . عندئذ عمد الامويون الى زيادة الجزية على الباقين على غير الاسلام فجعلوها خمسة دنانير . ثم بدّلوا في الجزية والخراج وسمّوْا ما استحدثوا منهما عشراً وزادوا في مبالغهما ثم ضربوها كلّها على المسلمين ، حتى ثار المسلمون في مصر والعراق خاصة واحتجوا لثورتهم بأن الولاة يأخذون منهم الجزية .

وهكذا نرى جباية الأموال في أيام الأمويين – حاشا عمرَ بن عبد العزيز –

تكتسب طابعاً سياسياً دنيوياً وتخسر صفتها الدينية . وكذلك وجوه النفقات عند الامويين لم تكن مقيدة بما كانت مقيدة به في أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين ، بل أصبح بيت المال – يجمع ما يرد اليه – في ايدي الخليفة . وكان الخليفة ينفق في الوجوه التي يراها هو موافقة لمصلحة الدولة أو لمصلحة الأسرة المالكة أو لمصلحته هو نفسه .

القضاء

لم يكن للمسلمين قوانينُ موضوعة ، بل كان لهم شريعةٌ نزلت مُجملة في القرآن الكريم ثم فصّلت في الحديث . وعلى ذلك لم يكن للقاضي في أول الأمر الا النظر في القضايا والدعاوى وتطبيق أوامر الدين ونواهيه عليها . وكان الرسول يباشر القضاء بنفسه في المدينة . فلما انتصر الاسلام في شبه جزيرة العرب ثم وصل الى اليمن جعل الرسول نفسه يستقضي الجِلّة من الصحابة . ثم ان عمر بن الخطاب جعل القضاء منصِباً مستقلاً بنفسه عن الخلافة نفسها .

وكان عمل القاضي ، في أول الأمر ، لا يتجاوز « الفصل بين الخصوم ». ثم أضيفت اليه مع الأيام أمور تشبه ما نعرفه اليوم من أعمال القضاة .

رد المظالم

غير أن الخلفاء احتفظوا بالنظر في المظالم .

قد يتعرّض بعض الناس (مسلماً كان أو غير مسلم) لظلم لا يستطيع القاضي أن يدفعه : كأن يَظْلِمَ أحدُ الأمراء شخصاً ما ، أو يشتطّ والٍ في عقاب رجل أو في مضايقته ، أو لا يرضى مستقض بحكم القاضي . ويسمّي العرب ذلك ظُلامة أو مَظلمة . عندئذ يرفع المظلوم أمره الى الخليفة . وكان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية يجلسون في المسجد ، إما كل يوم أو أيّاماً معدودة في الاسبوع . وكان الخليفة عموماً يردّ كل مظلمة (أي ينصف

كل متظلم) . الا أن الغالب في رد المظالم كان إرضاء للمظلوم اكثر منه عقاباً للظالم .

ويدخل في نطاق المظالم « كل ما عجز عنه القضاة أو غيرهم (من الولاة مثلاً) من إمضائه كالنظر في البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم الى استجلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ؛ وذلك أوسع من نظر القاضي » . ومع ذلك فان عمر ابن الخطاب كان قد فوّض قاضيَه أبا ادريس الخَوْلاني النظرَ في المظالم ، لتشعّب وجوه السياسة والادارة منذ ذلك الحين . ولا ريب في أن تخلي الخلفاء الامويين عن النظر في المظالم — حاشا عمر بن عبد العزيز — كان أكثر .

في المغرب والأندلس خاصّة

ان بُعْدَ المَغْرِبِ عنْ عاصمة الخلافة الأموية في دمشقَ جعل الصلةَ بينهما معقّدةً : كان الخليفةُ يُعيّنُ الواليَ على مِصْرَ ويُضيفُ إليه الوِلايةَ على المَغْرِب والأندلس . فإذا وصل الوالي إلى مِصْرَ استقرّ فيها ثم أرسلَ والياً من قِبَلِه الى القَيْرَوان ؛ وكان الوالي على القيروان يُرْسِلُ مِنْ قِبَلِه والياً على المغرب إلى طنجةَ ووالياً على الأندلس الى قُرطبةَ .

غير أنّ ضَعْفَ الدولةِ الأمويّة الذي بدأ بعدَ فتحِ الأندلس بوقت قصير جعل سُلطةَ الأمويّين على المَغْرِب والأندلسِ اسماً مُطْلَقاً في أكثرِ الأحيان . من أجلِ ذلك اختلفَ مجيءُ الوُلاة الى المَغْرب والأندلس باختلاف الأحوالِ والمُناسبات : كانَ الوُلاةُ على المَغْرب والأندلس يُرْسَلونَ رأساً من دمشقَ أحياناً ، وكانوا يأتون من قِبَلِ والي مِصر أحياناً أخرى . وقد يأتي والي الأندلس من قِبَلِ والي إفريقية (القيروان) . وكثيراً ما استبدّ أهلُ البلادِ في المَغْرب وفي الأندلس في تقديمِ الوالي الذي يريدونه . وربّما استبدّ جَماعةٌ أو فَرْدٌ ففرضوا والياً على صِقْعِهِمْ ؛ وربّما أقامَ فردٌ نفسَه والياً على المغرب أو على الأندلس . وفي كثيرٍ من

الأحيانِ كان الخليفةُ في دمشقَ يُقِرّ الواليَ المستبدّ في مَنصبِه لأنّه عاجزٌ عن إقرارِ سُلطانه في ذلك المكان البعيد ؛ وربّما استطاعَ الخليفةُ أن يتجاهل هذا الواليَ المفروضَ أو المستبدّ وأن يُرْسِلَ والياً من قِبَلِهِ يُزيل الواليَ المستبدّ ويتولّى الإمارة هو .

ولم نَعْرِفْ في عصرِ الوُلاة « حكومةً » بالمعنى الحديثِ ولا بالمعنى الذي كان معروفاً في الدولة الأموية في ذلك الحين ، أو في أيامِ عُمَرَ بنِ الخطّاب على الأقلّ : تنظيماً قاصراً على الجَيْشِ وبيتِ المالِ وعلى سجلاّت الدولةَ . لقد كانتْ « حكومة الأندلس في عصر الولاة » حكومةً عسكريةً استبداديّة يَبْرُزُ فيها الطابَعُ القَبَلي (العشائري) . لقد كان الوالي هو الحاكمَ والقائدَ والقاضيَ ، وكان يُعالِجُ جميعَ أمورِ الدولة كأنّها أمورٌ متعلّقةٌ به وحدَه . وكان الوالي يُعيّن «عمّالاً » على المدن المختلفة ويَعزِلُهم حَسْبَ ما يَرى هو ، وقد كان هؤلاءِ العُمّالُ في الأغلبِ من أقاربه أو أصدقائه أو أهل عصبيّته .

ولم يستطع عربُ الأندلس أن يستفيدوا من التشريع ومن التنظيم السياسيّ اللذين كانا في الأندلس — كما فَعَلَ العرب حينما نزلوا في الشام والعراق وفارسَ ومِصْرَ — لأنّهم كانوا يجهَلون لغةَ أهلِ الأندلُسِ ولأنّ معظمَ العربِ الذين نَزَلوا في الأندلس كانوا بَدْواً لم يُعانوا السياسةَ والحُكْمَ من قَبْلُ مُعاناةً حَضَرية . من أجلِ ذلك ظلّ التشريعُ عندهم مُسْتَمَدّاً من الأصول الدينية : من القرآنِ الكريمِ والحديث الشريف ومن الإجماع (الاتّفاق فيما بينَهم على وَجْهٍ دونَ وجه من الأمور) . ولم يكن لهم علمٌ بالقياسِ لأنّه يتَطَلّبُ قدراً كافياً من التّفَقّه في الدين ومن مُعاناة المَنْطِق ممّا هو بعيدٌ عن طبيعةِ البَداوة .

وترك العربُ للنصارى في الأندلس حُرّيّةً سياسيّةً واسعةً : تركوا لهم القضاءَ فيما بينَهم وشيئاً من الإدارةِ المَحليةِ المُسْتَقِلّةِ الخاصّةِ

بهم . وكان الحاكم بأمر النصارى يدعى القومس . ولا ريبَ في أن حياةَ النصارى الدينيةَ واستمرارَ الأبرشيّات والأسْقُفيّات في قواعدِ الأندلسِ المهمّة ، الى جانبِ لغةٍ لهم لا يَعْرِفُها العربُ قد أجْبَرَ العرب على الرِضا بمثلِ هذا النظام .

وقد كان للنصارى ، مُنذُ عصرِ الوُلاة قَضاءٌ خاصٌّ بهم يَجْرون فيه على القانونِ القوطيّ . وكانَ قاضيهم يُسمّى قاضي النصارى أو قاضي العَجَم (لأنّ العربَ كانوا يسمّون أهلَ الاندلس الذين لم يدخُلوا في الإسلامِ ولا تعلّموا اللغةَ العربية عَجَماً) .

وكذلك كان لليهودِ تنظيمٌ قضائيٌّ واداريٌّ على غِرارِ ما كان للنصارى.

وسَرْعانَ ما أخذتِ الدولةُ الإسلاميةُ في الأندلس تشعُرُ بوطأةِ هذه التنظيمِ الإداريّ للنصارى ولليهود وبالضرر من نُشوء حكومةٍ غريبةٍ خاصّةٍ مُغْلَقَةٍ في قلب حكومةٍ عامّة .

فهرست الأعلام

مطابع دار الكتب
بيروت – لبنان
ص.ب ٣٥٥٩